

وحدھا روان تعرف النبض الحقيقي

قاسم محمد كوفي

رواية



وحدھا روان
تعرّف النبض الحقیقی

وحد هاروان تعرف النبض الحقيقي

رواية

قاسم محمد كوفحي

الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة

٢٠٢٦

• وحدها روان تعرف النبض الحقيقي

(رواية)

• قاسم محمد محمود كوفحي

• طبعة أولى 2026

• الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2026/6/3275)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	: وحدها روان تعرف النبض الحقيقي
تأليف	: كوفحي، قاسم محمد محمود
بيانات النشر	: عمان: دار الخليج للنشر والتوزيع، 2026
الوصف المادي	: 392 صفحة
رقم التصنيف	: 813.083
الواصفات:	: / الروايات العربية // الأدب العربي // العصر الحديث /
الطبعة	: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• (ردمك): ISBN 978-9923-23-297-2

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

﴿الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الراعية﴾

عندما أغلقت الدكتوراة روان باب شقتها المتواضعة في الطابق الثالث من عمارة «برج السماء»، شعرت وكأنها تُطوي صفحة طويلة من قصة لم تُروَ بعد، قصة تحمل بين طياتها ذكريات وأشباهًا لم تكف عن التردد في أذنيها. لم يكن صرير الباب المتآكل مجرد ضجيج عادي، بل كان شكوى خشبٍ عتيقٍ عاصر ما يكفي من الزمن ليشهد خيانات العشاق، ودموع الأمهات، وضحكات الأطفال الذين حُرّموا من إكمال رحلتهم في الحياة.

الهواء المُتخَمُّ برائحة العتق تسلل إلى صدرها كقصيدة حزينة. كان المكان يُتنفَسُ وحده، ينبض بقلبٍ مخفي خلف الجدران، والدرج، بمقبضه البارد، بدا كأنه يحذرهما، أو يحتضنها للمرة الأخيرة. في عالم الرويات، لا وجود لمكانٍ لا يحس، ولا بابٍ لا يتذكر، ولا مصعدٍ لا يخفي وجهًا في مرآته المشروخة.

خطوتها نحو المصعد كانت خفيفة، لكنها مشحونةٌ بثقل ألف خطوةٍ أخرى، خطواتُ نساءٍ عبرنَ هذا المبنى واحتفظت الجدرانُ ببصماتِ دموعهنّ. المصعدُ، مثل صندوقٍ صديئٍ يسكنه حارسُ الزمن، تململ كمن استيقظَ من حلمٍ قديم. روان، المعتادةُ على قراءة صمّتِ الأماكن، شعرتُ بأن شيئًا ما تغيّر. هناك في الداخل، بين الجدران التي كانت لها مأوى، شيءٌ بقي بعد رحيلها.

صوتُ خافت، كأن أحدهم يزحفُ على الأرضية الخشبي... لا ربح ولا أنبوب ماء، بل نَفَس. خافتُ أن تلتفت، أن ترى، لكنها التقطت نظرةً

أخيرةً نحو النافذة التي غالباً ما كانت تراقب منها الطيور، فرأت الظل .
لم يكن ظلاً فقط، بل سؤالاً معلقاً، كانعكاسٍ روحٍ لا تريد أن تُنسى .

في حقيقتها، حيث كانت تحتفظ بصورةٍ قديمةٍ لجَدَّتِها التي ماتت
وهي تهمسُ باسمٍ لم يُفهم، كانت هناك أيضاً سكين صغيرة . ليست
للمحماية فحسب، بل كأنها طقسٌ قديم، كتعويدةٍ لا تُفهم إلا في الليالي
التي تبكي فيها الجدران .

وحين وصل المصعد، ارتجف . الرقم «٣» وميضٌ أحمرٌ لا يريد
أن ينطفئ . ذلك الرقم الذي أُزيل منذ سنوات، بعد تلك الحادثة التي
يتحدث عنها الجيران همساً . البابُ انفتح ببطءٍ، كأن عملاقاً كان
يمسكه بأنفاسه الأخيرة .

في الطابق الثالث، حيث تُقيم الأساطير في ثنايا الواقع، دقت الساعةُ
القديمة ثانيةً . هذه الساعة لم تُصدر صوتاً منذ أن وصلت روان قبل
أعوام . العقرب الأحمر، الذي يشبه جرحاً مفتوحاً، تحرك فجأةً...
وورقةٌ صفراءُ سقطت من خلفها .

كُتب عليها بخطٍ باهتٍ، كأنما كُتبَ بحبر الأرواح: «أنتِ التالية...»
لم تكن الشقة التي جمعت «روان» و«مازن» لعشر سنوات مجرد
جدران وأسقف؛ كانت أقرب إلى كائنٍ عجوزٍ يتنفس ببطء، يحتفظ في
تجاويفه بأسرارٍ لا يبوح بها إلا حين تسود العتمة . كانت تلك الشقة
تعرفهما، وتحفظ كل أنفاس العتب، وكل القبلات المسروقة، وكل
العهود التي نُقشت على وسائد النوم ثم مُحيت مع أول خيانة .

الرطوبة التي تسكن زواياها، لم تكن مجرد أثرٍ للزمن، بل أرواحٌ لأحلامٍ ذبلت، تخرج كأفاعٍ رمادية من بين بلاط الحمام، تلتفّ حول ساقيها كلما مشت إلى المطبخ حيث كان يحب إعداد القهوة، في الوقت الذي يسبق الشروق بلحظة.

وكان الأثاثُ - آه، الأثاثُ الذي لم يتغيّر - يبدو كأجسادٍ خالية من الحياة، محنطة بأسماءٍ قديمة. تلك الأريكة البنية التي تُشبه جلد دبٍ نُزع منه الدفء، لم تكن مجرد قطعة أثاث، بل كانت مزاراً لذاكرةٍ خائنة. كانت تشعر، كلما جلست هناك، بأن الهواء يحمل صوتَ ضحكاتهما القديمة، فيصدق فجأةً ككأسٍ يتحطم تحت قدمٍ مرتجفة.

وعلى حافة النافذة، حيث يتمرّغ ضوءُ الشارع الباهت كجرحٍ لم يُشفى، ما تزال السيجارة نصف المطفأة تستلقي في منفضتها كجسدٍ ضئيلٍ نسيه الموتى. رمادها، حين يتحرّك مع تيار الهواء، يشبه رمادَ حبيبٍ لم ينتهِ من الاحتراق بعد. تلك الرائحة المرة، رائحة التبغ والغياب، كانت تنهش قلبها دون رحمة، تعيدها إلى الصباح الأخير، حين لبس معطفه وغادر دون أن ينظر خلفه.

لكن الرعب الحقيقي لم يكن في الذكرى... بل في الحياة التي عادت تُزهر تحت الأرض.

أصواتٌ تأتي من خلف الجدران، كأن الأرواح هناك تحفر بأناملها طريقاً نحو الضوء.

وفي الليل، حين تنطفئ المصابيح، يظهر ظلٌ طويل في المطبخ، يراقبها بصمت، لا يتحرك، لا يختفي، فقط ينتظر...

في تلك الليلة، عندما لمست السجارة القديمة بيدٍ باردةٍ كأنها يد غريب، سمعتُ دقاتٍ عنيفة، لا تشبه نبض قلبٍ بشري، بل تشبه جيشاً من القلوب المحبوسة وهي تطرق جدران الزمن بوحشية. اقتربت من الحائط، وهمست باسمٍ لم تنطقه منذ شهور، فانشق الجدارُ مثل رحمٍ فاسد، وانسكبَ منه سائلٌ أسودٌ كدمعةٍ ليلٍ فقدَ كل نجومه.

الأرضية ارتعشت تحت قدميها، ليس كزلازل، بل كذكرياتٍ تنهضُ فجأةً من سباتها الطويل.

رفعتُ عينيها نحو الساعة الحائطية التي توقفت منذ سنين عند الثالثة صباحاً - نفس اللحظة التي غادر فيها مازن ولم يعد. لكن الساعة الآن كانت تدور... لا إلى الأمام... بل إلى الوراء، كأنها تحاول محو الزمن الذي تبع فراقه.

ثم، بكل هدوءٍ قاتل، تشقق الزجاجُ، وبرزت خلفه كتابةٌ حمراء... لا يشبهها الحبر، ولا الدم، بل شيءٌ بينهما.

كانت الرسالة واضحة، كصفعة:

«اللعنة لم تبدأ هنا... ولن تنتهي.»

في قاعِ الحقيقةِ المهترئة، تلك التي تشبهُ جلدَ أفعىٍ تعبتُ من تبديلِ نفسها، لم تكن ملقاةً مجردُ بقايا امرأةٍ خاضتُ حباً وانهارت. بل كان العالمُ بأكمله يتنفسُ هناك... متجمداً في حنايا حريرٍ ممزق، وفي قلادةٍ فضيَّةٍ كانت، في زمنٍ ما، تلمعُ على عنقها كقمرٍ صغيرٍ يدورُ في مدارِ رجلٍ اسمه «مازن».

تلك القلادة لم تكن زينة، بل مفتاحٌ إلى مملكةِ الألم. وكانت
كلّما تحركت، تصدرُ صرخةً مكتومةً، كأنها تستدعي طيفه من زمنٍ
لم يعد يسكنُ هذا العالم، بل يتجولُ بين الشقوقِ مثل دخانِ الأحلام
المحروقة.

تخفي في جسدها ندوباً ليست ندوباً، بل أرواحاً صغيرةً تسكنُ
الجلد، تنمو كطحالب حزينة في قلبٍ لم يعد يعرف الفرق بين الخفقان
والخراب. كلُّ دمعةٍ تسقطُ منها، تتحوّل إلى كائنٍ شفافٍ يسبحُ في
رثيّها، ويهمس لها بصوتٍ لا يسمعه أحدٌ سواها:

«احذري... أنفاسكِ صارتُ سُمّاً ناعماً.»

في تلك الشقة التي نخرها الصمتُ كما ينخرُ السوسُ خشبَ
التواييت، لم تعد النوافذُ تفتحُ على العالم، بل على أحلامٍ مبللةٍ بالرماد.
رصاصَةٌ غير مرئية كانت معلقةً في الهواء، تنتظرُ لحظةً لتُطلقَ نفسها، لا
على جسد، بل على ذاكرةٍ باتت ترفضُ النسيان.

وكانت تشعرُ، كلما مشت، بأن ظلاً يتبعها، لا يمشي، بل يزحفُ
خلفها بكلماتٍ لا تُقال، بل تُرتل:

«سأنتزعكِ من جلدكِ كما انتزعتُ ضحكتكِ من أيامكِ.»

القلادة اهتزّت، كما تهتزُّ الروحُ لحظةً الفقد، وسالت منها الحروفُ،
لا كدمٍ بل كندمٍ متجلّد.

بينما الجدارُ خلفها تنفّس، كأنّه صدرُ بيتٍ خائف، وخرج منه هواءٌ
باردٌ تحيطه أصابعُ من العظام، كانت تبحثُ عن ماضيٍ لم يُدفن جيداً.

عندما ارتجّ الهواء، لم يكن بسبب الخوف، بل لأن الزمن نفسه
انكسر، وأطلقت الرصاصة التي كانت تنتظر. لكنها لم تخترق الفراغ...
بل اخترقت رثيها، المثقبتين بزجاج الحنين، بينما نزفَ منها دمٌ ليس
دمًا بل حكايةٌ تُكتَبُ على أرضية مغطاةٍ بذكرياتٍ ضاحكةٍ ومفزعةٍ في
آنٍ واحد.

رسمَ الدمُ ملامح «مازن» على الأرض، يضحكُ بوجهٍ مفتوحٍ كفمِ
مدينةٍ ابتلعها البحر.

انهارتُ الشقةُ كما ينهارُ مشهدٌ من روايةٍ نُسيت نهايتها، وسقطتُ هي
في الصمت، في حفرةٍ لا تُرى...

وفي القبو، تحت الألقاض، حيث كانت الروحُ تُخبئُ نفسها من
الحقيقة،

سمعتُ أصواتًا تنادي...

بصوت المدينة الميتة، وبضحكة المجهول:

«تعالِي... لم تنتهِ القصةُ بعد.»

غادرتُ الشقةَ كما تغادر الأرملة مملكة الذكريات: متلفتةٌ وراءها
كأن شيئًا منها ما زال عالقًا في الهواء، كأن ظلًا ناعمًا من ماضٍ مؤلم
كان يربط كاحلها بخيطٍ حريريٍّ لا يُرى. كانت خطواتها شبيهة بامرأة
تبحث عن الله في زقاقٍ مسدود، أو عن نفسٍ أخيرٍ في رئةٍ منهكة.

المصعد العجوز ابتلعها كجوفٍ حوتٍ غاصبٍ، وبدا كأنه يتنهد
من ثقل الأرواح العالقة بين طوابقه. كانت المرايا المتشقة في داخله

لا تعكس صورتها فحسب، بل تُعيد إنتاج مئات النسخ منها: نساءً يشبهنها، يبكين بصمت، يتسمن ابتساماتٍ مجروحة، أو يُحدّقن بعينين زجاجيتين في المجهول...

قال لها «مازن» ذات حبٍّ بعيد:

«المرايا نوافذ، يا صغيرتي، تُطلّ على حيواتٍ لم نعشها... أو ربما عشناها ونسينا كيف خرجنا منها.»

والآن، في هذا المصعد المعطوب، كان صوته ينبثق من الزوايا مثل موسيقى حزينة تُعزف على أوتارٍ صدئة... ضحكته تصدر من أعماق امرأة، وتلتف حول عنقها كوشاحٍ مبللٍ بالنار.

«هل تذكرين تلك الليلة حين احترق كلّ شيء؟»

العبارة خرجت كأنها من فمٍ خفيّ خلف الزجاج، لا صوت لها، لكنها تلامس القلب كما يلامس الدخان عيون الأرامل.

ثم جاءه صوتٌ آخر - صوتٌ كانت تعرفه دون أن تسميه - يقول لها: «كنتُ أتمنى أن تذوبي أنتِ أيضاً... لكنّ هذا قدرك.»

الذاكرة انفجرت في عقلها كزهرة جهنمية. رأت النار تتسلق الجدران، تنثر الرماد فوق صور الطفولة، وتحولّ هواء المطبخ إلى حكاية خنقٍ غير مكتملة.

رأت «مازن» يهرع ببطانية ليطفئ الحريق، لكن في عينيه بريقٌ غريب... بريق صبيٍّ يلهو في خرابٍ صنعه بيديه، وكأنّ الله نفسه قد غاب عن تلك الليلة.

المصعد يهبط الآن كجثة ثقيلة في نهرٍ من الرصاص، وهي تُدرك
فجأة أن المرايا لا تخون ولا تكذب...

بل تقول الحقيقة كما هي، فقط إن كنتِ مستعدة لسماعها.

في أعماقِ مرآة، لم تعد ترى نفسها كما هي، بل كما ستُصبح:

امرأةٌ بوجهٍ مُحترق، تجلسُ على كرسيٍّ يئنُّ تحتها، تحدقُ في شاشةٍ
تُعرض فيها أخبار اختفاء «مازن»، بينما يدُّ بلا جسدٍ تضع قلادةً فضيةً
على رقبتها المشوهة، كأنما تُعيد لها عهداً قديماً لم تُنكره قط.

توقّف المصعد فجأة بين الطوابق، والضوء المتقطع كان يشبه
نبضات قلبٍ يحتضر.

صوت «مازن» لم يعد يأتي من مكانٍ واحد... بل من كلّ الجهات،
كصلواتٍ ضائعةٍ في كنيسة مهجورة:

«اللعبة لم تنته... لا تنسي الموقد مجدداً.»

قبل أن يُغمى عليها، مدّت يدها إلى رقبتها...

فوجدت القلادة.

تلك التي أعطاها لها ذات ميلادٍ بعيد، حين كان العالم أكثر دفئاً.

لكنّها لم تعد كما كانت...

تحوّلت إلى طوقٍ معدنيٍّ بارد، كُتِب عليه بحروف لا ترحم:

«ملكُ الجحيم... الرجاء عدم الإزعاج.»

ابتلعها الفمُ الشرسُ للشارع الخارجي، كأن المدينة نفسها كانت

تنتظرها بشراهة، لتبتلعها في لحظةٍ من الغفلة، وتُخفيها في أحشائها التي لا تشبع. كان المطرُ يتساقطُ خفيفاً... لا كعقابٍ، بل كعزاءٍ باردٍ من السماء، رقيقاً كأنفاسِ أمِّ تبكي على ابنتها التي ضلّت طريقها في غابةٍ من الأرواح المُعذّبة. كلُّ قطرةٍ كانت تنهال على وجهها كقبلةٍ مترددة من ماضٍ لم يمت... بعد.

ضرباتُ المطرِ على الأرضِ كانت كقلبٍ يطرقُ جدرانَ التابوتِ. كلُّ صوتٍ صغيرٍ حولها بدا مشبوهاً: ارتطامُ الماءِ على الرصيف، زئيرُ السياراتِ في البعيد، ضوءُ النيون المرتجف على اللافتات، كأن المدينةَ تتحوّل إلى كائنٍ حيٍّ يراقبها ويتنفس في رقبتها.

كانت الحقيقةُ التي تحملها ليست مجرد متاع، بل سجلاً خامداً لسنواتٍ اختنقت داخلها، أرشيفاً من صرخاتٍ لم تُطلق، وجراحٍ لم تُلمس، وقراراتٍ لم تُتخذ. تشبّثت بها وكأنها آخرُ صلةٍ لها بعالمٍ تعرفه، حتى لو كان ذاك العالمُ قد خانها.

كانت تسير كمن يحملُ قلبه في كفيّهِ، يخشى أن يسقط فجأةً.

عندما صعدت الحافلة، شعرتُ بأن الهواء داخلها ليس هواءً، بل بخارُ الأرواح التي مرّت من هنا قبلاً، أرواحٌ لم تترك رائحتها فقط، بل تركت أصداءً لكلماتٍ لم تُكتمل. جلستُ قرب النافذة، كأنها تطلّ من طائرةٍ تحلق فوق مدينةٍ محترقة.

وعند كل صريرٍ يصدر من مفاصل الحافلة القديمة، كانت تشعر بأن شيئاً يُفتح في داخلها...

كتابٍ صديٍّ نحو ذاكرةٍ حاولت دفنها في تابوتٍ من النسيان.

الماضي؟

الماضي لم يكن كابوسًا ينتهي عند الاستيقاظ.

كان ضوءًا خافتًا لا ينطفئ أبدًا...

وكان «هو» يجلس الآن بجوارها... رغم أنه ميت.

أو على الأقل، هذا ما أقنعت نفسها به.

نفسه البارد لم يكن خيالاً... كان حقيقةً تُخدش بها أذنها من الداخل،

كأن صوته يتمدد داخلها كخيوط عنكبوتٍ سامٍّ.

«ماذا لو لم تهربي؟ ماذا لو كنتِ السبب؟ ماذا لو كنتِ أنا... فيكِ؟»

كانت تعرف أن الحافلة تسير بها إلى مكانٍ جديد...

لكنها شعرت فجأةً أنها تدور في دائرةٍ جهنمية،

كأن الطريق مرسومٌ بحبرِ الظلال، وأنها لن تصل... بل ستعود.

وبين رفرقةِ الرموش الثقيلة، رأت من خلال زجاج النافذة انعكاسًا

لوجهٍ لا يشبهها، لكنه كان يُحدّق فيها... ويبتسم.

وجهٌ «مازن»، لكنه محروق... كما تمنّت له ذات مرة.

صرخةٌ مكتومة علقّت في حلقتها،

لكن الحافلة لم تتوقف.

بل تابعت السير...

إلى حيث لا شيء ينتظر، سوى الحقيقة.

وهي، في أعماقها، كانت تعرف أن اللعبة لم تبدأ بعد.

في محطة القطارات، حيث تثنّ الصفارات كأرامل فقدنّ صوتهن
في طواير الانتظار، وقفتُ هي، بكامل هشاشتها، تحمل حقيبةً صغيرةً
وحلمًا أكبر من أن يُحمل.

كانت السماء تنقّط حزنًا خفيفًا، والأرض تكتظّ بخطواتٍ مترددة،
كلُّ منها يحمل خيبته في جيبه ويصمت.

مدّت يدها نحو شباك التذاكر كمن يمدّ يده ليصافح مصيرًا لا يعرفه،
واشترت تذكرة باتجاه الجنوب... الجنوب، ذاك التيه الممتدّ خارج
الخرائط، حيث لا شيء يعدُّ بشيء.

عندما التمعت عيناها فوق الرقم المنقوش، «٧»، شعرت أن ذاكرةً
ما داخلها قد انتفضت كطائر مذعور.

... «٧»

كان رقم قميص مازن، في ذلك الزمن الجميل الذي خانته الذاكرة
واحفظ به الألم.

مازن... أول خطأٍ نجبه، وآخر ندمٍ لا نعرف به.

ابتسمت بمرارةٍ لم تتعلّم بعد أن تبتلعها. كانت تعرف أن الأقدار لا
تكتفي بسرقة أحلامنا، بل تتقنُ فن إعادة تغليفها بسخرية مؤلمة... كأن
القدر شاعر حزين يكتب قصائد حبٍّ على أوراقٍ مبللة بالخذلان.

كل شيء في المحطة بدا متآمرًا معها: الريح التي تفتّش حقائب
العابرين، الأضواء التي تومض كسعالٍ قديم، حتى المقاعد الحديدية
التي تشهد كل ليلة على ولادات الرحيل وموالد الغياب.

شدّت على حقيبتها، وكأنها تشدُّ على ما تبقى منها. ومشت نحو
الرصيف رقم «٧»، حيث القطار ينتظر كعاشقٍ يائس يعرف أن من
يحبها ستغادره ذات وداع.

كانت تدرك أن الجنوب ليس وجهة، بل هروبًا.
وأن القطار الذي يصفر لها الآن، إنما ينعى براءتها قبل أن ينقل
جسدها.

ومع ذلك، مشّت نحوه... تجرُّ خلفها ذاكرة مثقوبة كجسدٍ نجا من
الحبِّ بأعجوبة.

صعدت إلى القطار كما يصعد العاشقُ إلى مقصلةٍ يعرفُ أن الشق
فيها مؤجل، لكنه قادم لا محالة.

مرّت بين المقاعد بخطى امرأةٍ تخشى أن تصحو ذاكرتها قبل أن
تجد مقعدها. كان القطارُ شبه خاوٍ، كما لو أن المدن قد أفرغت قلوبها
من المسافرين، واحتفظت فقط بالأرواح المكسورة.

جلست قرب نافذةٍ مهشّمة، كأنها كانت تنتظرها تحديدًا.
كانت الريح تتسلل من شقوقها، تلفح وجهها بشيء من العتاب،
وكان النافذة تعرف قصتها أكثر مما تعرفها هي نفسها.

أسندت جبهتها إلى الزجاج البارد.
خُيِّل لها أن المدن تفرُّ إلى الوراء، وأن العمر يسير بالعكس، يعود
بها إلى بداياتها... إلى لحظةٍ تمنّت فيها ألا تكبر، ألا تخسر، ألا تنكسر.

لكن الحياة كانت أبرع من أمانيتها...

فكبرت، وخسرت، وانكسرت، وها هي الآن تهرب من كل شيء،
ولا تدري إلى أين.

في الممر، كان صوت عجلات القطار على القضبان يشبه نشيد وداعٍ
طويل... كأنه عزفٌ منفرد لقلوبٍ تهاجر ولا تعرف إذا كانت ستجد
وطنًا أو سكينهً في آخر الطريق.

فتحت حقيبتها الصغيرة.

كانت خالية إلا من كتابٍ قديمٍ قرأته ذات مساءٍ بارد، ورسالةٍ صفراءٍ
لم تُرسلها إلى أحد.

تفحصت الرسالة بأطراف أصابعٍ مرتعشة، ثم أعادتها كما كانت.

لم تكن هناك جدوى من الكلمات.

الحياة أحيانًا تشبه الرسائل المفقودة: تصل متأخرة، أو لا تصل أبدًا.
رفعت رأسها.

تأملت وجوه المسافرين المتناثرين حولها: وجوهٌ تائهةٌ مثلها، وجوهٌ
تطفئ أنوارها بصمتٍ كي لا تفضحها الخيبة.

وفي غفلةٍ من الوقت، تحرك القطار.

اهتز قلبها مع أول ارتجاج، كأن بداخله بيتًا من زجاجٍ تصدّع، ولم
يسقط بعد.

ابتسمت... تلك الابتسامة المنهزمة التي يعرفها كل من حمل ذات
يوم حبًا أكبر من عمره، وخسارةً أوسع من ذاكرته.

أغمضت عينيها، وأسلمت نفسها للمجهول...

لعل الجنوب يخبئ لها ذاكرةً جديدة، لا تشبه شيئاً مما فقدته.
انطلق القطار القديم متثاقلاً، كعجوزٍ يجُرُّ أنفاسه بين زفير البخار
ونشيج الحنين. كان صريرُ الحديد على القضبان أشبه ببكاءٍ مكبوت،
كل ارتجاجةٍ فيه تروي حكاية وداعٍ قديم، وخيبةً عالقة على أطراف
العمر.

في المقعد الخلفي، حيث تتكاثر طبقات الغبار على النافذة كستارٍ
من النسيان، جلست روان، ملتحفَةً بوجعها، تختبئ من عيون العالم،
ومن ماضيها الذي ظل يلاحقها كظلٍّ عنيد لا يشيخ.

مدّت يدها المرتجفة إلى حقيبتها، تلك الحقيبة التي بدت وكأنها
تحمل أوجاع عصورٍ بأكملها. أخرجت فستاناً أسودَ باهت اللون،
محشوراً بين أطراف الذكرى، يئنُّ كجناحٍ ذابل.

وبين طياته، وجدت الرسالة...

رسالةٌ ذابلةٌ الأطراف، كأنها شربت من دموعها ألف مرة.
كان خطُّ مازنَ واضحاً رغم كل شيء... مائلاً، متمرداً، يصرخ على
الظرف بصمتٍ أشدَّ من العويل:

«إلى حبيبتي الدكتورة روان... افتحها فقط إذا قررتِ أن
تسامحيني.»

توقفت أنفاسها للحظة، كأن الهواء من حولها صار أثقل من أن
يُستنشق.

أغلقت أصابعها على الرسالة بقوةٍ حتى بياض المفاصل، وكأنها
تخشى أن تفلت منها في لحظة ضعف.

عينها التصقتا بالنافذة المغبّشة، لكن القطار لم يكن يعبر محطات
المدن فحسب، بل محطات ذاكرتها الموجعة أيضًا.

كل اهتزازة، وكل صرخة حديد، كانت تشدُّ عليها الخناق أكثر.
هل تغفر له؟

هل تفتح الرسالة فتفتح معها جرحًا ظنت أنها قد دفنته منذ سنوات؟
في الخارج، كان العالم يركض إلى الوراء، والأشجار تنحني،
والمحطات تتلاشى، والسماء تنكمش فوق رأسها كوشاح حزين.
أما في داخلها، فقد كانت معركة شرسة تدور... معركة بين الكرامة
والحنين، بين الكبرياء وحبّ أبي أن يُدفن حيًّا.

راحت تمسح بأناملها المرتجفة على حواف الظرف، تشعر بالكتابة
البارزة كما لو أن أصابع مازن لا تزال تلمسها، ترجف قربها، تستعطفها
بصمتٍ مذب.

رفعت الرسالة نحو شفّتيها المغلقتين، أغمضت عينها، وشمّت
عليها عبق الزمن الضائع، كأنها تحاول أن تستعيد ما لا يعود.

ثم، في لحظة استسلامٍ بين خفقة قلب وخيانة ذاكرة، بدأت تفتح
الظرف ببطءٍ، ببطء من يعرف أن كل كلمة ستنهشه كما تنهش الذئاب
فريستها.

في الخارج، دوى صفير القطار عاليًا، كأن العالم كله صرخ في تلك
اللحظة: احذري.

لكنها كانت قد فتحت الرسالة...

كانت الرسالة مكتوبة بخطٍ مرتجف، متشابك كأن الكلمات نفسها كانت تخشى الخروج.

رائحة الورق المعتق بالسنين صعدت إلى أنفها، فملأت صدرها برعشة لا تفسير لها.

قرأتها:

«روان،

أعلم أنني كنتُ الجرح الذي لم تتوقعيه، والخنجر الذي غافلك في ظهرك.

لم يكن الأمر خيانة لكِ بقدر ما كان خيانة لنفسي... كنتُ أضعف من أن أكون الرجل الذي تستحقينه.

في تلك الليلة، حين تركتكِ تبكين وحدكِ أمام أبواب الجامعة، كنتُ أعلم أنني أخسر أجمل شيءٍ حدث لي.

لكن كان هناك ما هو أكبر مني، ما لا أستطيع أن أشرحه على عجل، ولا أن أغسله بالدموع.

الآن، إذا فتحتِ هذه الرسالة، فهذا يعني أن قلبكِ لا يزال ينبض لي رغم كل شيء.

أرجوكِ...

إذا استطعتِ أن تسامحي، انتظريني في المقعد السابع من العربة الأخيرة...

سأكون هناك... كما وعدتكِ يوماً، أن لا أدع العمر يفرقنا مرتين.»

وقفت الكلمات في حلقها، ثقيلة، مؤلمة كقطعنا لم تندمل.

ألقت نظرة خاطفة على تذكرتها القديمة...

رقم «٧» كان هناك، كأنه مصادفة عبثية من القدر أو إشارة خفية أن كل شيء لم ينتهِ بعد.

ارتج قلبها في صدرها كعصفور مذعور.

هل يعقل أن يكون مازن هناك الآن؟

هل يمكن أن يحمل هذا القطار، المتآكل صدأه وأحلامه، رجلاً دفنته تحت طبقات النسيان منذ سنوات؟

القطار واصل طريقه عبر الفراغ، فيما كانت هي تمضي بين العربات، كل خطوة تقطعها كانت كأنها تسير على حد السكين.

على باب العربة الأخيرة، ترددت لثانية.

يدها كانت فوق المقبض، وقلبها في مكانٍ آخر، يركض قلبها إلى المصير المجهول.

ثم دفعت الباب...

وكانت المفاجأة تنتظرها.

دفعت الباب ببطء، فأَنَّ مفصل صدئٍ بصوتٍ خافت كأنه شهقة خوفٍ مكتومة.

دخلت إلى العربة الأخيرة...

لم يكن فيها سوى صفيين طويلين من المقاعد المتهالكة، ورائحة
الخشب العتيق المشبع برطوبة السنين.

كان الضوء خافتاً، يتسلل من نوافذ مكسورة، يرقص فوق الغبار
المعلق في الهواء كذكرياتٍ ترفض السقوط.

نظرت سريعاً... مقعدٌ بعد آخر، فارغٌ بعد آخر...

حتى وصلت إلى المقعد السابع.

توقف الزمن.

جفَّ ريقها.

ارتعشت ركبها كما لو أن الأرض تميد تحت قدميها.

كان هناك رجل يجلس قرب النافذة.

يرتدي معطفاً رمادياً فضفاضاً، وقبعته مائلة تخفي وجهه.

يدها، القابضتان على كتابٍ مفتوح، كانتا مألوفتين بشكلٍ موحٍ.

كأن قلبها عرفه قبل أن تعيه عيناها.

ذلك الرجفان الطفيف في أصابعه، تلك الطريقة التي يمرر بها إبهامه

فوق حواف الصفحات... كانت حركاته محفورة فيها كما لو كانت

جزءاً منها.

تقدمت خطوةً ببطء، وكأنها تخاف أن توظف حلمًا هشًا من غفوته.

همست باسمه، بالكاد تُسمع:

- مازن...

رفع الرجل رأسه ببطءٍ، وكأن الصوت جاءه من قاع عمرٍ مضى.
حين التقت عيناها بعينه، انفجرت الذكريات بينهما دفعةً واحدة:
لحظات حبٍّ مسروقة، دموع صامتة، ووعودٌ مرّقتها قسوة الحياة.
لم يتكلما.

القطار وحده كان يتكلم بصراخه بين القضبان، كأنه يروي حكاية
حبٍّ عاد من الموت.

مدّ مازن يده نحوها... ببطء، بتردد، بكثير من الخوف.
وفي كفّه، كان يحمل شيئاً صغيراً: سلسلة فضية عليها مفتاح صغير.
قال بصوت مبحوح، مخنوق بالشوق:

- هذا... مفتاح بيتٍ كنتُ أبنيه لك، يوم خذلنا الحياة.

تجمّدت روان.

كان الألم القديم، والحب القديم، والمستقبل الذي لم يُكتب بعد،
يتصارعون داخلها.

هل تمسك بالمفتاح وتمضي معه إلى قدرٍ آخر؟

أم تتركه، كما تركته من قبل، على رصيف الغياب؟

القطار كان يواصل اندفاعه المجنون...

وكان القرار يجب أن يُتخذ الآن... الآن أو لا شيء.

تقدمت خطوةً أخرى نحوه، وهي تحديق المفتاح الصغير الذي كان
يوماً وعداً مؤجلاً بالسعادة.

يداه لا تزالان ممدودتين نحوها...

وعيناه، العميقتان مثل ليلٍ بلا نجوم، تترجّيان كلمة غفران أو حتى نظرة حنين.

مرت لحظةٌ ثقيلة...

لحظةٌ بدا فيها العالم كله متوقفاً فوق طرف شفيتها، ينتظر حكمها.

ثم، بلا وعي، امتدت يدها المرتجفة نحو المفتاح.

لامست أصابعها أصابعه، فتدفقت الذكريات دفعةً واحدة كطوفان جارف:

ضحكاتها بين قاعات الجامعة، أول قصيدة كتبها لها على ورقة ممزقة، دموعها يوم الرحيل، وصمت الهاتف الذي مات بينهما لسنوات.

تسلل الدفء من ملمس يده إلى أعماقها.

كأن الزمن استدار فجأة، وأعاد إليها كل ما فقدته في لحظة خيانة.

لكنّها، حين قبضت على المفتاح، شعرت بشيءٍ آخر...

شيءٍ أقسى من الذكرى.

شيءٌ أشبه بحدسٍ داخلي يصرخ فيها: «لا تثقي بكل ما يعود متأخراً.»

سحبت يدها ببطء.

نظرت إليه نظرةً طويلة... نظرةً مليئة بكل الحب الذي كان، وكل الألم الذي صار، وكل الخوف الذي لا يزال.

قالت بصوتٍ ناعم، لكنه قاطعٌ كالسيف:

- أحياناً، يا مازن... الحب الذي نغفره يكون قد مات بالفعل.

ونحن لا نغفر إلا للأموات.

شهق القطار تحت أقدامها كأنه فهم قرارها قبل أن تفهمه هي.

وضعت المفتاح فوق الكتاب المفتوح الذي بين يديه...

ثم استدارت.

مشّت عبر العربة كمن يشق طريقه وسط حقل الغام.

كل خطوة كانت وجعاً، ولكنها كانت أيضاً خلاصاً.

لم تنظر خلفها.

لأنها كانت تعرف أن الحب الحقيقي، إذا كان حياً، كان سيلحق بها.

وحين وصلت باب العربة، سمعت همساً خافتاً من خلفها، لم تعرف إن كان صوته أو صوت الريح:

- سأنتظرك... حتى لو احتجتِ عمراً آخر لتعودي.

ثم انطلقت خارج القطار، نحو عالمٍ لا تعرفه...

لكنه، للمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد، كان عالمها هي، واختيارها هي.

حين وضعت المفتاح فوق الكتاب، شعرت أن قلبها نفسه قد تركته هناك، عارياً، بلا دفاع.

استدارت ومشّت نحو باب العربة، لا تنظر خلفها.

القطار كان يتأرجح بقوة، كأنما يريد أن يلفظها خارجاً، أن يحسم مصيرها قبل أن تتردد.

وعندما أمسكت بمقبض الباب، سمعت خطواتٍ خلفها.

خفيفة... مترددة... كسيرة.

توقفت دون أن تلتفت.

مرت لحظة بدت لها دهراً، ثم جاءه صوتها، هامساً، بالكاد تسمعه نفسها:

- إن كان لنا نصيب... سنلتقي.

ثم دفعت الباب، وخرجت.

رياح الليل صفعت وجهها كصفعة يقظة.

رفعت رأسها نحو السماء...

كانت النجوم تتناثر فوقها، وكأنها رسائل لم تُرسل بعد.

مشت على رصيف المحطة، حقيبتها تتأرجح خلفها، والقطار القديم يواصل ابتلاعه للمسافات.

في قلبها، لم يكن هناك قرار حاسم، ولا وداع نهائي.

كان هناك فقط وعدٌ صامت مع الحياة...

أن تترك الأبواب مفتوحة قليلاً، لعل الرياح تعيد إليها ما ضاع ذات خطأ.

ومازن؟

ربما سيظل هناك، في المقعد السابع، ينتظرها...

أو ربما هو أيضاً سيفهم، كما فهمت هي، أن بعض الأقدار تحتاج أكثر من حياة واحدة لتكتمل.

حين تلقت الدكتورة روان ذلك الخطاب الباهت، المُخاطب بـ «الدكتورة الموقرة»، من مكان عملها، كانت يديها ترتجفان، لكن عيناها لم تتزحزح عن السطور المكتوبة بخط يده الرسمية. كان التنقل إلى «وادي النخيل» مجرد خطوة إدارية بالنسبة لها، انتقال إلى مكان بعيد عن صخب المدينة، بعيد عن ذكريات الطلاق المرير الذي كان قد ترك في قلبها ندوبًا أعمق من أي جرح جسدي. كانت تأمل أن تجد في القرية الصغيرة فرصة للهروب، لتلتئم جروحها وتبدأ من جديد.

لكن ذلك الخطاب، رغم كلماته الموقرة وموضوعه الروتيني، كان يحمل في طياته إشارات لا يمكن تجاهلها. الكلمة التي أرسلتها إليها الإدارة كانت خالية من كل شيء سوى البيروقراطية، ولكنها كانت تعلم في أعماقها، ربما بحسها الأنثوي، أن الحياة في «وادي النخيل» ستكون أكثر تعقيدًا من مجرد وظيفة جديدة في مكان بعيد.

بينما كانت روان تقرأ الكلمات مجددًا، كان ذهنها يطفو على سطح الذكريات...

ذكريات تلك الليلة التي قررت فيها ترك كل شيء وراءها. كانت الحياة في المدينة قد أصبحت متعبة، مملة، وفاقة للروح. الطلاق، الذي كان يومًا خيارًا مميًا لزواج هزيل، تركها في حالة من العزلة والضياع. لا عائلة تحيط بها، ولا أصدقاء يمدون يد العون، وكل ما تبقى لها هو مهنة الطب التي كانت يومًا حلمًا راودها... لكن حتى تلك المهنة لم تعد قادرة على إخفاء ما تبقى من جروحها الداخلية.

لكن الآن... «وادي النخيل»؟

كان اسمها يبدو كملاذ، كأمل أخير للابتعاد عن تلك الذكريات الكثيرة. قررت أن تأخذ القرار، أن تسافر إلى حيث الهدوء، حيث الجبال التي تحيط بالقرية، وحيث يمكنها أن تعيد بناء نفسها في عزلتها الخاصة.

ومع مرور الأيام، وصوت قطار السفر الذي يحملها بعيداً عن كل شيء، بدأت مشاعرها تتبدل. كانت تتوقع أن تجد مكاناً هادئاً، مكاناً يلتئم فيه الجرح...

لكن «وادي النخيل» كان يحمل شيئاً آخر.

شيئاً غامضاً، كان يراقبها من بعيد، من بين الجبال التي كانت تحيط بالقرية، من بين جدران البيوت القديمة. فور وصولها، كانت أولى مفاجأتها.

لم تكن القرية كما تخيلتها. كانت الجبال الشامخة تقف هناك، كأنها سجون تحيط بالبشر. كانت الحياة هنا تسير ببطءٍ، وكأنها محكومة بنوع من الزمن المختلف، حيث كل شيء يتنفس بين الحقول والغابات، وكل شيء يبدو هادئاً بشكلٍ مشكوك فيه.

لكن تلك الهدوء كان يخفي وراءه شيئاً مظلماً. شيئاً لا يستطيع أحد أن يراه إلا إذا كان مستعداً لمواجهة الحقيقة.

كانت البيوت القديمة تقع بجانب بعضها البعض، بعضها مهدم جزئياً، وتعود رائحتها إلى تاريخ لم يعد أحد يذكره. وكان أهل القرية... هادئين للغاية، صامتين، يكادون لا يتكلمون إلا قليلاً.

كان هناك شيء غريب في أعينهم، شيء غير قابل للتفسير.
ولا أحد، من أهل «وادي النخيل»، كان يرغب في الحديث عن
الماضي.

روان، التي بدأت تشعر بشيء من القلق، قررت في صباح أحد الأيام
أن تستكشف المنطقة.

أثناء تجوالها في الزقاق الضيق الذي يقود إلى أطراف القرية، لفت
نظرها قسيمة خشبية صغيرة مهجورة، تقع بالقرب من بئر عميق. كان
المكان مهجورًا، وكأن الزمن قد توقف فيه. لكن ما جذب انتباهها،
ليس البئر فحسب، بل ذلك الصوت... صوت همسات غريبة، كان
يصل إليها وكأنهم يتحدثون عن شيء ما، وشيء خطير.

حين اقتربت، كان شيء آخر يحدث.

في الأفق البعيد، بين الجبال، بدأت تظهر ظلال غريبة تتحرك.

ظلال تشبه البشر، لكنهم لم يكونوا بشرًا.

لكن السؤال الذي ظل يطاردها...

هل كانت تلك الظلال جزءًا من الماضي الذي كانت تفر منه؟

أم أنها كانت بداية لكابوسٍ جديد... كابوسٍ سيغرقها في مصيرها،
الذي كان قد تم رسمه لها منذ لحظة تلقيها الخطاب الباهت؟

وهنا...

بدأت القصة الحقيقية.

قصة «وادي النخيل»... وكل ما كانت تخبئه الجبال وراء أسوارها. بينما كانت روان تستعد للعودة إلى منزلها بعد يوم طويل من العمل في العيادة، كان الظلام قد بدأ يسدل ستاره على القرية. الليل في «وادي النخيل» مختلف تمامًا عن أي مكان آخر. كانت السماء مليئة بالغيوم الثقيلة، وكأنها كانت تراقب كل حركة، كل نفس.

أخذت روان نفسًا عميقًا، حاولت إغلاق الباب وراءها بحذر، لكن فجأة، شعرت بشيء غريب. كان هناك صوت، غير مريح، يملأ الجو. كان يشبه همسات خافتة، تسرع خطواتها إلى الأمام ثم تتوقف، فقط لتعاود الانبعاث من جديد، وكأنها تتبعها.

تمت في نفسها محاولاً تهدئة ذهنها: «ربما هو الريح، ربما مجرد تخيلات.»

لكن في أعماقها، كانت تشعر بشيء غير طبيعي، شيء لا يمكن تفسيره. كان الهواء نفسه مليئًا بشيء غامض، وكأنما يحمل بين طياته سرًا قديمًا، سرًا مدفونًا بعمق في هذه الأرض.

في اليوم التالي، قررت روان أن تتبع تلك الهواجس التي كانت تتسرب إلى عقلها. قررت أن تذهب إلى تلك القسيمة الخشبية المهجورة بالقرب من البئر.

كان الفجر قد بدأ يظهر بصيصه، وكان كل شيء في القرية غارقًا في السكون. لكن ذلك السكون، رغم هدوئه، كان يحمل خلفه عبثًا ثقيلًا من الترقب.

أثناء سيرها على الطريق الضيق المؤدي إلى القسيمة، لاحظت شيئاً غريباً في السماء. كانت هناك نقطة ضوء صغيرة، تكاد تكون غير مرئية، لكنها كانت تلمع بطريقة غير عادية، وكأنها تطلب منها أن تتابعها. أخذت خطوة إضافية.

ثم خطوة أخرى، حتى وصلت إلى البئر. الهواء كان يهب بشدة، وكانت الأشجار تتحرك كما لو كانت تتنفس بشدة مع الرياح. كانت هناك حوافٍ مظلمة حولها، وكأن الظلال التي تسقط على الأرض كانت تبتلع الضوء. وعندما اقتربت من القسيمة، اكتشفت أن الباب كان مفتوحاً، رغم أنه كان مغلقاً بإحكام في المرة الأخيرة التي رآته فيها.

كان الباب يفتح بصوتٍ غير طبيعي، كأنه يئن تحت وطأة الزمن. دخلت ببطء، وفي الظلام الدامس، كان هناك شيءٌ غير مريح للغاية. شيء يلتصق بكل زاوية، كأنه يحاول إمساكها من الخلف. وكلما تقدمت، كان كل شيء يزداد سوءاً.

ثم...

رأت شيئاً على الحائط.

كان رسماً غريباً، محفوراً بخطوط غير منتظمة، وكأنها نُحتت بيد خفية في الظلام. كان الرسم يشبه منظرًا جويًا للقرية، لكن على الحائط كان هناك خط أحمر، يمر عبر كل شيء.

نظرت روان إلى الخط الأحمر بدهشة، ثم لمست بإصبعها الحافة، فإذا بها تجد أن الخط ليس مجرد رسم عادي... كان دمًا.

وقبل أن تتمكن من أخذ خطوة أخرى، سمعت صوتاً خلفها.
صوت خطوات خافتة... تتقارب منها بسرعة.
استدارت، قلبها يضطرب، وعيونها تبحث في الظلام عن أي أثر لهذا
الصوت الذي بدأ في ازدياد.
لكن ما وجدته، جعل شعر رأسها يقف.
وقفت أمامها امرأة غريبة، وجهها مخفي تحت وشاح داكن، كانت
عينها تتوهجان في الظلام.
قالت بصوت هادئ ولكن حازم: «أنتِ هنا الآن، روان... لكن
هل أنتِ مستعدة لتعرفي الحقيقة؟ الحقيقة التي كانت مخفية عنك منذ
سنوات؟»
في تلك اللحظة، عادت صور من ماضيها تتراكم في ذهنها، ذكريات
لم تجرؤ على التفكير بها منذ أن تركت المدينة.
النساء في قريتها كانت تهمس عن الأساطير القديمة.
وكانت هناك دائماً إشاعة عن «الدم المفقود»، الدم الذي يربط
الأجيال السابقة بالأرض نفسها، ولكن ما كان يبدو مجرد خرافة، بدأ
يصبح أكثر واقعية... أكثر تهديداً.
أدركت روان، في لحظة تجمّد، أن الأقدار التي هربت منها لم تكن
مجرد خطأ.
بل كانت تسير خلفها، تلاحقها، كما لو كانت تدفعها نحو نهايتها.
وتلك المرأة الغريبة، التي بدأت تتحرك نحوها، كانت آخر من
يعلم.

هل هي... حارسة السر؟ أم كانت هي نفسها جزءًا من هذا اللغز المظلم؟

وهنا، بدأ كل شيء يتشابك.

كانت روان قد دخلت عالمًا جديدًا، لا مفر منه. عالم من الأسرار القديمة... والدم المفقود

حين تلقت الدكتورة روان ذلك الخطاب الباهت، المُخاطب بـ «الدكتورة الموقرة»، من مكان عملها، كانت يديها ترتجفان، لكن عيناها لم تنزعج عن السطور المكتوبة بالحط الرسمي. كان الانتقال إلى «وادي النخيل» مجرد خطوة إدارية بالنسبة لها، انتقال إلى مكان بعيد عن صخب المدينة، بعيد عن ذكريات الطلاق المرير الذي كان قد ترك في قلبها ندوبًا أعمق من أي جرح جسدي. كانت تأمل أن تجد في القرية الصغيرة فرصة للهروب، لتلتئم جروحها وتبدأ من جديد.

لكن ذلك الخطاب، رغم كلماته الموقرة وموضوعه الروتيني، كان يحمل في طياته إشارات لا يمكن تجاهلها. الكلمة التي أرسلتها إليها الإدارة كانت خالية من كل شيء سوى البيروقراطية، ولكنها كانت تعلم في أعماقها، ربما بحدسها الأنثوي، أن الحياة في «وادي النخيل» ستكون أكثر تعقيدًا من مجرد وظيفة جديدة في مكان بعيد.

بينما كانت روان تقرأ الكلمات مجددًا، كان ذهنها يطفو على سطح الذكريات...

ذكريات تلك الليلة التي قررت فيها ترك كل شيء وراءها. كانت الحياة في المدينة قد أصبحت متعبة، ومملّة، وفاقة للروح. الطلاق،

الذي كان يومًا خيارًا مميّثًا لزواج هزيل، تركها في حالة من العزلة والضياع. لا عائلة تحيط بها، ولا أصدقاء يمدون يد العون، وكل ما تبقى لها هو مهنة الطب التي كانت يومًا حلمًا راودها... لكن حتى تلك المهنة لم تعد قادرة على إخفاء ما تبقى من جروحها الداخلية.

لكن الآن... «وادي النخيل»؟

كان اسمها يبدو كملاذ، كأمل أخير للابتعاد عن تلك الذكريات الكثيرة. قررت أن تأخذ القرار، أن تسافر إلى حيث الهدوء، حيث الجبال التي تحيط بالقرية، وحيث يمكنها أن تعيد بناء نفسها في عزلتها الخاصة.

ومع مرور الأيام، وصوت قطار السفر الذي يحملها بعيدًا عن كل شيء، بدأت مشاعرها تتبدل. كانت تتوقع أن تجد مكانًا هادئًا، مكانًا يلتئم فيه الجرح...

لكن «وادي النخيل» كان يحمل شيئًا آخر.

شيئًا غامضًا، كان يراقبها من بعيد، من بين الجبال التي كانت تحيط بالقرية، من بين جدران البيوت القديمة. فور وصولها، كانت أولى مفاجأتها.

لم تكن القرية كما تخيلتها. كانت الجبال الشامخة تقف هناك، كأنها سجون تحيط بالبشر. كانت الحياة هنا تسير ببطء، وكأنها محكومة بنوع من الزمن المختلف، حيث كل شيء يتنفس بين الحقول والغابات، وكل شيء يبدو هادئًا بشكل مشكوك فيه.

لكن تلك الهدوء كان يخفي وراءه شيئاً مظلماً. شيئاً لا يستطيع أحد أن يراه إلا إذا كان مستعداً لمواجهة الحقيقة.

كانت البيوت القديمة تقع بجانب بعضها البعض، بعضها مهدم جزئياً، وتعود روائحها إلى تاريخ لم يعد أحد يذكره. وكان أهل القرية... هادئين للغاية، صامتين، يكادون لا يتكلمون إلا قليلاً.

كان هناك شيء غريب في أعينهم، شيء غير قابل للتفسير. ولا أحد، من أهل «وادي النخيل»، كان يرغب في الحديث عن الماضي.

روان، التي بدأت تشعر بشيء من القلق، قررت في صباح أحد الأيام أن تستكشف المنطقة.

أثناء تجوالها في الزقاق الضيق الذي يقود إلى أطراف القرية، لفت نظرها كوخ خشبي صغيرة مهجورة، تقع بالقرب من بئر عميق. كان المكان مهجوراً، وكأن الزمن قد توقف فيه. لكن ما جذب انتباهها، ليس البئر فحسب، بل ذلك الصوت... صوت همسات غريبة، كان يصل إليها وكأنهم يتحدثون عن شيء ما، وشيء خطير.

حين اقتربت، كان شيء آخر يحدث. في الأفق البعيد، بين الجبال، بدأت تظهر ظلال غريبة تتحرك. ظلال تشبه البشر، لكنهم لم يكونوا بشرًا. لكن السؤال الذي ظل يطاردها...

هل كانت تلك الظلال جزءاً من الماضي الذي كانت تفر منه؟

أم أنها كانت بداية لكابوسٍ جديد... كابوسٍ سيغرقها في مصيرها،
الذي كان قد تم رسمه لها منذ لحظة تلقيها الخطاب الباهت؟
وهنا...

بدأت القصة الحقيقية.

قصة «وادي النخيل»... وكل ما كانت تخبئه الجبال وراء أسوارها.
بينما كانت الدكتورة روان تستعد للعودة إلى منزلها بعد يوم طويل
من العمل في العيادة، كان الظلام قد بدأ يسدل ستاره على القرية. الليل
في «وادي النخيل» مختلف تمامًا عن أي مكان آخر. كانت السماء مليئة
بالغيوم الثقيلة، وكأنها كانت تراقب كل حركة، كل نفس.

أخذت الدكتورة روان نفسًا عميقًا، حاولت إغلاق الباب وراءها
بحذر، لكن فجأة، شعرت بشيء غريب. كان هناك صوت، غير مريح،
يملاً الجو. كان يشبه همسات خافتة، تسرع خطواتها إلى الأمام ثم
تتوقف، فقط لتعاود الانبعاث من جديد، وكأنها تتبعها.

تمتتم في نفسها محاولاً تهدئة ذهنها: «ربما هو الريح، ربما مجرد
تخيلات.»

لكن في أعماقها، كانت تشعر بشيء غير طبيعي، شيء لا يمكن
تفسيره. كان الهواء نفسه مليئاً بشيء غامض، وكأنما يحمل بين طياته
سراً قديماً، سراً مدفوناً بعمق في هذه الأرض.

في اليوم التالي، قررت الدكتورة روان أن تتبع تلك الهواجس التي
كانت تتسرب إلى عقلها. قررت أن تذهب إلى تلك القسيمة الخشبية
المهجورة بالقرب من البئر.

كان الفجر قد بدأ يظهر بصيصه، وكان كل شيء في القرية غارقاً في السكون. لكن ذلك السكون، رغم هدوئه، كان يحمل خلفه عبئاً ثقیلاً من الترقب.

أثناء سيرها على الطريق الضيق المؤدي إلى القسيمة، لاحظت شيئاً غريباً في السماء. كانت هناك نقطة ضوء صغيرة، تكاد تكون غير مرئية، لكنها كانت تلمع بطريقة غير عادية، وكأنها تطلب منها أن تتابعها. أخذت خطوة إضافية.

ثم خطوة أخرى، حتى وصلت إلى البئر.

الهواء كان يهب بشدة، وكانت الأشجار تتحرك كما لو كانت تتنفس بشدة مع الرياح. كانت هناك حوافٍ مظلمة حولها، وكأن الظلال التي تسقط على الأرض كانت تبتلع الضوء. وعندما اقتربت من الكوخ، اكتشفت أن الباب كان مفتوحاً، رغم أنه كان مغلقاً بإحكام في المرة الأخيرة التي رآته فيها.

حينما تلقت الدكتورة روان ذلك الخطاب الباهت، الموجه إليها بـ «الدكتورة الموقرة»، من مكان عملها، لم يكن في ذهنها سوى فكرة واحدة: الهروب. الهروب من ضجيج المدينة، من تلك الذكريات التي لا تكف عن مطاردتها، من ذلك الطلاق الذي شطر حياتها إلى نصفين؛ أحدهما لا يزال يعلق بالألم، والآخر يتلمس خيوط الأمل، وإن كان أملاً هشاً. قرأت الكلمات الباردة التي تدعوها إلى الانتقال إلى «وادي النخيل»، قرية نائية، مكان لا يعرفه أحد سوى من يعيش فيه. بدا لها

وكأنه فرصة جديدة، لا تكاد تذكر تفاصيلها إلا أن تملأ فراغات الحياة بصمت.

لكن في تلك اللحظة، بينما كانت تمسك بالخطاب، ارتجفت يديها. تلك الكلمات، رغم رتابتها، كانت تحمل بين سطورها عبئاً غير مرئي. وكأنها، منذ اللحظة التي قررت فيها الانفصال عن الماضي، كانت تنتظر هذه اللحظة تحديداً. كان «وادي النخيل» يبدو بالنسبة لها ملاذاً، مثل صفحة بيضاء تنتظر أن تُكتب عليها قصة جديدة. لكن، هل هناك حقاً مكان يمكن أن يُمحى فيه الماضي؟ أم أن الأقدار لا تنسى، مهما ابتعدنا عنها؟

أخذت الدكتورة روان نفساً عميقاً، ووضعت الخطاب جانباً. ربما كانت بحاجة إلى ذلك الوقت لتفكر، لتقرر. كانت تعلم في قرارة نفسها أن الانتقال إلى «وادي النخيل» ليس مجرد خطوة مهنية، بل كانت تعني أكثر من ذلك بكثير. كان يعني هروباً، ولكن أيضاً مواجهة. مواجهة تلك الخيبات، تلك الأيام التي سلبت منها جزءاً من نفسها، جزءاً لا تعرف إن كانت ستجده يوماً.

بينما كانت تمشي في شوارع المدينة، كانت عيونها تتأمل كل شيء، وكل شيء كان يراها ولكن لا يراها. كانت المدينة غريبة عليها الآن. الحافلات التي تمر بجانبها، أضواء الشوارع التي لا تنطفئ، الناس الذين يمرون دون أن يتركوا أي أثر في روحها، كلها كانت ترداداً بُعداً. هل كانت هي من تغيرت، أم أن المدينة كانت هي من نزع منها روحها؟ كل شيء هنا أصبح عبئاً ثقيلاً.

وفي تلك اللحظة، جاء القرار.

«وادي النخيل». كانت مجرد كلمات، لكنها كانت تحمل في جوفها قيداً غير مرئي، كما لو أن الرياح نفسها كانت تدفعها نحو هناك. هل كانت هذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها بأن الحياة تقودها إلى مسارات لم تكن تعرفها؟ أم كانت هذه هي المرة الأولى التي تقرر فيها أن تتبع ما يقوله لها قلبها، حتى لو كان ذلك يعني دخول عالم مجهول تماماً؟

مع وصولها إلى «وادي النخيل»، كانت أولى المفاجآت.

القرية، كما كانت تتخيلها، كانت تقع بين جبال شاهقة، كان الصوت الوحيد الذي يملأ الأجواء هو همسات الرياح، وصوت خشخشة الأوراق تحت الأقدام. كان هناك شيء في الهواء... شيء قديم، شيء يثير الفضول. ليس فقط الهدوء الذي يغلف المكان، بل هناك نوع من الغموض، وكأن الطبيعة نفسها تحتفظ بسرّ قديم لا يريد أحد أن يكتشفه.

أخذت روان قراراً سريعاً بأن تذهب للاستكشاف، لتُشبع فضولها الغارق في دهاليز العقل. أثناء تجوالها، شعرت كما لو أن المكان كان يتحدث إليها بلغة لا تستطيع فهمها. كانت البيوت الطينية المتناثرة هنا وهناك وكأنها جزء من الماضي نفسه، ملامحها مهدمة كما لو أن الزمن توقف عندها، وكأن الناس في هذا المكان لا يعيشون حياة طبيعية، بل حياة في انتظار شيء ما... شيء عميق وعتيق.

وقفت أمام بئر قديم عند أطراف القرية، وهو الذي كان يلعب في ضوء الشمس الخافت. ورغم هدوء المكان، إلا أن هناك شيئاً كان يراودها في أعماقها. هل كانت هي من تخلق تلك الهواجس، أم أن شيئاً كان يحاول أن يصل إليها، أن يشير فضولها؟

نظرت إلى المياه الراكدة في البئر، فشعرت بشيء غير مريح يملأ قلبها. كانت تعكس صورة وجهها، ولكن هناك شيء في انعكاسها بدا غير واضح. وكأنها ترى نفسها في مكان آخر، في زمن آخر.

في تلك اللحظة، جاء صوت من خلفها، مبلاً بالهواء البارد:
«القلوب المكسورة تجد دائماً طريقها إلى هنا، ولكن ليس كل من يأتي يعود.»

استدارت لتجد امرأة غريبة، ملامحها مغطاة بظلال كثيفة. كانت عيناها تلمعان في الضوء المائل، وتحدثت بنبرة هادئة، لكن حادة، وكأن الكلمات نفسها كانت تحمل وزناً ثقيلاً.

«أنت هنا الآن، أليس كذلك؟ ولكن هل أنت مستعدة لملاقة الحقيقة التي تبحثين عنها؟»

صمتت الدكتورة روان، ولم تجد جواباً. كانت تلك المرأة، بمظهرها الغامض، وكأنها تعرف كل شيء عن ماضيها، وكأنها كانت جزءاً من حلم قديم.

هل كانت هذه المرأة تتحدث عن الماضي؟ أم أنها تتحدث عن شيء لم يكن قد بدأ بعد؟

شيء ما كان يتأملها، يتابعها في كل خطوة تخطوها. وفي تلك اللحظة، أدركت الدكتورة روان أن «وادي النخيل» لم يكن مجرد مكانٍ للهرب. كان مكانًا لتجديد المواجهات، ولتجديد الأسئلة التي كانت تظن أنها دفتتها منذ زمن بعيد. هل يمكن أن تهرب من نفسك؟ وهل ستظل العواصف الداخلية تلاحقك مهما ابتعدت عن كل شيء؟

أخذت روان نفسًا عميقًا، وعينها لا تزالان مسمرتين على انعكاس وجهها في بئر الماء القديم. كان الهواء في وادي النخيل باردًا، يلامس بشرتها برفق، لكن شيئًا ما في الجو جعلها تشعر بشيء غير مريح. كان هناك شيء غير مرئي يراقبها، يلاحق خطواتها، وكأنها مجرد جزء من مشهد لا تعرف كيف دخلت فيه.

حاولت أن تقنع نفسها بأن هذه مجرد هواجس، وأنها في النهاية مجرد طبيعة غريبة للقرية الهادئة، لكن شيئًا في أعماقها كان يقول لها أن هذا المكان ليس كما يبدو. الكلمات التي تلفظت بها المرأة الغريبة، التي ظهرت فجأة من وراء الظلال، كانت تتردد في ذهنها، وكأنها لم تكن مجرد كلمات، بل كانت جزءًا من لغز عميق لم تفهمه بعد.

«أنتِ هنا الآن، أليس كذلك؟ ولكن هل أنتِ مستعدة لملاقة الحقيقة التي تبحثين عنها؟»

تلك الجملة، رغم بساطتها، كانت مثل جرح قديم يفتح من جديد. هل كانت تقصد ماضيها؟ تلك الذكريات التي ظنت أنها دفتتها إلى الأبد؟ أم كانت تتحدث عن شيء آخر، شيء أكبر من كل شيء، كان ينتظرها في زوايا هذا المكان المظلم؟

لم تستطع روان أن تنطق بكلمة واحدة، فقط اكتفت بالنظر إلى تلك المرأة التي وقفت أمامها، وكأنها جزء من الغموض الذي يحيط بالمكان. كانت عيون المرأة حادة، تتأملها كما لو كانت ترى داخل قلبها، داخل أفكارها، وكأنها تعرف كل شيء عن ماضيها، عن الأيام التي قضتها في المدينة، وعن اللحظة التي قررت فيها مغادرة كل شيء. «القلوب المكسورة تجد دائماً طريقها إلى هنا...» تابعت المرأة، بنبرة كانت أشبه بالحكمة التي تكتسب عبر سنوات من التجربة. «ولكن ليس كل من يأتي يعود.»

هل كانت المرأة تتحدث عن الوادي نفسه؟ أم عن تلك القوى الغامضة التي تحكم هذا المكان؟ كان الصوت يشبه همسات الرياح التي تعصف بالأشجار المحيطة، كأن كل شيء هنا يحمل رسالة، لكن لا أحد يستطيع فك شفرتها.

شعرت روان وكأنها تغرق في دوامة من الأفكار المتناقضة. هل كانت هي من اختارت المجيء إلى هنا؟ أم أن هذا المكان كان ينتظرها منذ البداية؟ هل كانت هي من تهرب من الماضي، أم أن الماضي هو الذي يأتي لبحث عنها في أماكن لم تخترها؟

ظلت المرأة تراقبها بصمت، وعينها لم تترك عينها. وكأنها كانت تنتظر إجابة. لكن الإجابة لم تكن واضحة بالنسبة لروان. هي كانت مجرد طيبة، مجرد امرأة مبتعدة عن كل شيء، عن كل الوجوه التي كانت تعرفها، وعن كل الأماكن التي تركت فيها أجزاء من نفسها. كيف يمكنها أن تجيب على سؤال ليس لديها جواب له؟

«ماذا تعرفين عن هذا المكان؟» همست روان أخيرًا، كأنها تتحدث إلى نفسها، أكثر من حديثها إلى المرأة.

«كل شيء هنا يتحدث، وكل شيء هنا يشهد على ما مرّ، وما سيأتي. وادي النخيل ليس مجرد قرية، إنه مرآة للروح. الناس الذين يأتون إلى هنا، قد لا يعودون كما كانوا، ولكن قد يجدون شيئًا ما في أنفسهم لم يعرفوه أبدًا.» قالت المرأة، ثم اختفت بين الأشجار في طرف الوادي.

تجمدت روان في مكانها، تجتاحها مشاعر مختلطة بين الفضول والخوف. كان كل شيء يبدو غريبًا. تلك المرأة، تلك الكلمات، الوادي نفسه... كانت كأنها قطعة من حلم مظلم، حلم يتداخل فيه الواقع بالخيال، والحقيقة بالسراب.

ماذا لو كانت هذه هي اللحظة التي ستغير فيها كل شيء؟ كانت قد ظنت أن الهروب إلى وادي النخيل سيعني الهروب من نفسها، من ماضيها. لكن يبدو أن المكان كان يحمل مفاجآت أكبر مما تخيلت. هل كانت قادرة على تحمل هذا الارتباك الذي يزداد عمقًا مع كل خطوة تخطوها في هذا المكان؟

بينما كانت تسير في المسار الضيق بين الأشجار، كان الصوت الوحيد الذي تسمعه هو وقع قدميها على الأرض، ولكن في قلبها كان هناك شيء آخر. شيء أكبر، شيء يصرخ في أعماقها. هل كانت ستجد في هذا المكان ما كانت تبحث عنه؟ أم أن هذا المكان سيظل غامضًا، حتى بعد أن تتركه؟

وفجأة، في اللحظة التي كانت تفكر فيها في مغادرة هذا الوادي، سمعت صوتاً آخر. هذه المرة كان الصوت يأتي من بعيد، من داخل الوادي نفسه. كان صوت ضحك خافت، خافت جداً لدرجة أنها لم تكن متأكدة مما إذا كان حقيقياً أم مجرد خيال. لكن شيئاً ما في ذلك الصوت جعل قلبها يتسارع، وكأن هناك شيئاً لا يمكن تجاهله.

هل كانت ستلتفت إلى هذا الصوت، أم ستظل تمضي في طريقها، باحثة عن معنى لما يجري حولها؟

كانت العيادة التي وُعدت بها روان، تحت ضوء السماء الرمادية، أشبه بموقع هجرته الحياة منذ زمن بعيد. مبنى حجري قديم، يتناثر عليه غبار القرون، وكأن الزمن قد قرر أن يتوقف هنا، داخل جدرانها التي تحمل آثار الحكايات المخبأة. لم يكن هذا المكان مجرد عيادة، بل كان نصباً تذكاريّاً للأسرار المدفونة والأحداث التي فُقدت في طيّات الماضي. واجهته المزخرفة بنقوشٍ غريبة، تداخلت فيها الأشكال الهندسية والنباتية، تراقص مثل شيفرات سحرية، تُخفي معاني كانت قادرة على تغيير مصير أي شخص يتجرأ على فك رموزها. كانت هذه النقوش أشبه برسائل متوارثة من العصور القديمة، ورسائل لم تُفهم بعد، وأسرار دفنت بعيداً عن الأنظار.

حين دخلت روان من الباب الخشبي العتيق، الذي بدا كأنه يتنهد من فرط القدم، رآها على الفور تلك الملفات الطبية القديمة المكسدة على الأرفف المهترئة. كانت الأرفف تفوح منها رائحة الزمن، ورائحة

الأوراق التي كأنها خُطَّت منذ عقود. لكن في وسط تلك الأوراق، كان ثمة شيء يثير الفزع. كانت الملفات لا تحكي عن الأمراض فقط، بل كانت تحمل قصصًا وأسرارًا أعمق بكثير من أي تقرير طبي عادي. من بينها، تقارير عن حالات جنون جماعي غريبة، تكررت فيها الأوصاف التي لا يمكن تفسيرها لعقول ضاع فيها العقل، حيث كان المصابون يتحدثون عن أصوات لا يسمعونها غيرهم، ويرون «كائنات» تنشق من جذور النخيل ليلاً. كائنات كانت تصرخ في الليل البارد، ثم تختفي كما لو لم تكن موجودة أبدًا.

أما الملف الأكثر غرابة، فكان ملف الطبيب الذي اختفى في عام ١٩٨٧. كان اسمه قد مُحي تمامًا من سجلات العيادة، لكن في الزوايا المعتمدة للملف، كانت هناك كلمات أخيرة له، كُتبت بخط غير مستقر: «هم يعرفون أنني اكتشفت الحقيقة... سامحني يا قريتي العزيزة». كانت تلك الكلمات تحمل في طياتها تهديدًا صامتًا، إشاراتٍ إلى شيء مظلم كان يحيط بالمكان، شيء لم يكن بإمكان أي من سكان القرية أن يتخيله.

تحسست الدكتورة روان الملف بين يديها وكأنها تمسك بحبل رفيع، ينقلها إلى عالمٍ لم تتخيله أبدًا. كل ورقة كانت تحكي عن شيء غامض، شيء يتسلل من خلال الحواف المظلمة لهذا المكان، وكل خطوة كانت تقرّبها أكثر إلى اكتشاف حقيقة مروعة كانت مخبأة هنا، في قلب هذه العيادة القديمة. وكأن الأثاث نفسه، المتهم والمترام بمروور الزمن، كان يئن تحت وطأة الأسرار التي دفنها داخل جدرانها.

هل كانت هذه العيادة مجرد ملاذ للمرضى، أم أنها كانت مأوىً لمجموعة من التجارب المحرمة؟ في كل زاوية، وفي كل غرفة، كانت هناك إشارات غير مفهومة، تفاصيل تبدو عادية لكنها تحمل في طياتها علامات تشير إلى أن هذا المكان كان أكثر من مجرد عيادة طبية. كان سرًّا لم يُكتشف بعد، وكان كل من دخل إليه قد أصبح جزءًا من لغز أكبر من أن يفهم.

أخذت الدكتورة روان نفسًا عميقًا، ولكنها كانت تشعر بشيء غريب يتسلل إليها. هل كان هذا المكان يعيد تشكيل واقعها؟ أم أن سر العيادة سيكون هو الذي سيعيد تشكيل حياتها كلها؟

لكن الصدمة الحقيقية كانت في ليلة اتسعت فيها السماء حتى بدت وكأنها تخفي أسرارًا في جوفها، حين اكتمل القمر وكان ضوءه فضيًا يغطي كل شيء في هالة من الغموض. في تلك اللحظة، كان كل شيء في القرية ساكنًا، كما لو أن الوقت نفسه قد تجمّد. لكن لم يكن السكون هو ما لفت انتباه الدكتورة روان، بل الصوت الذي جاءها فجأة، كالرعد الخافت الذي يسبق العاصفة.

كان الصوت غريبًا، دقائق متتابعة لطبول تُقرع من تحت الأرض، عميقة وعميقة للغاية. لم يكن الصوت صادرًا من البشر، ولا من أي آلة بشرية. كان يُشبه الهمسات القديمة التي تأتي من أعماق الأزمنة، كأنها صرخة من الماضي لا يمكن تجاهلها. ربت قلبُ الدكتورة روان بعنفٍ، وأصبح كل شعور في جسدها مشدودًا إلى تلك الدقات، كما لو كانت تجذبها إلى مكانٍ مجهول.

من نافذة العيادة، التي كانت تئن تحت وطأة الزمن، رأت شيئاً لا يُصدّق. ظلال طويلة تتحرك بخفة، وكأنها تتحرك عبر الهواء ثقيلًا بأسرارٍ لا تُرى. كانت الظلال تتسلل في صمت الليل باتجاه أشجار النخيل التي تصطف على أطراف القرية. كانت تلك الظلال، رغم هدوئها، تحمل شيئاً غريباً، كأنها تنتمي إلى عالم آخر. تحركت في انسجام مع النسيمات الباردة التي بدأت تهب فجأة، وبدت وكأنها في طقسٍ طقوسي قديم، طقسٍ لا يجرؤ أحد على التحدث عنه.

إغراء الفضول، تلك القوة التي تقودها إلى المجهول دائماً، سيطرت عليها. لكن هناك شيء كان يُحذرهما في داخلها. لكن، كما هو الحال دائماً مع رواد المجهول، كان فضولها أكبر من خوفها. نزلت من العيادة بهدوء، خطواتها خفيفة على الأرض الترابية التي كانت تتناثر فيها بقايا الذكريات. لم تلتفت خلفها، كانت عيناها تركزان فقط على الظلال التي تبتعد أكثر وأكثر، وكأنها تتنقل بين العوالم.

عندما اقتربت من نخيل القرية، بدأ الصوت يزداد وضوحاً، وكان كما لو أن الأرض نفسها بدأت تُنطق بأسرارها المخبأة. كل خطوة كانت تقودها إلى عمق أكبر في الغموض، وكلما اقتربت، كلما شعرت بشيء ثقيل في الهواء، شيء لا يُمكن تسميته، لكنه كان يثقل قلبها ويجعلها تشعر بأنها لا تسير بمفردها. كانت هناك قوة ما تُلاحقها، لا تراها لكنها تشعر بها، تراقب خطواتها، ترقب لحظة انكشاف السر.

ثم، وبشكل مفاجئ، توقفت الظلال أمام بئر عميق جداً، كان يبدو كفم جهنم مفتوحاً في وجه السماء. أضواء ضوء القمر، كأنما يُريد أن

يُظهر شيئًا كان مُخفيًا طوال السنوات. كان هناك شيء غريب ينجرف من أعماق هذا البئر، شيء ضبابي يتحرك ببطء، كما لو كان يتسرب من عالم آخر. لم يكن هذا مجرد بئر، بل كان ثغرة بين عالمين، بين الزمان والمكان. شعرت الدكتورة روان وكأنها قد دخلت إلى نقطة لا عودة.

وفجأة، ظهرت أوجه غريبة، وجوه لا تنتمي إلى البشر، تظهر في الظلال التي تراقبها من بين الأشجار. كانت عيونهم تتوهج وكأنها تحتوي على التاريخ كله، على الأسرار التي دفنت منذ قرون. كان الصوت، الذي بدأ كدقات طبل، يتحول الآن إلى همسات متشابكة، كلمات غير مفهومة. لكنها كانت تعلم، رغم كل شيء، أن هناك شيئًا ما كان يُخبرها أنها دخلت إلى قلب اللعنة نفسها.

اكتشفت في تلك اللحظة أن «وادي النخيل» ليس مجرد اسمٍ جغرافي يُطلق على مكانٍ نائي في الخريطة. بل كان هذا الوادي لعنة قديمة، سُميت بهذا الاسم لتظل راسخة في ذاكرة الزمن، لا تلتفت للماضي ولا تسمح لأي شخصٍ بتركه.

النخيل هنا ليس شجرًا...

إنهم حراسٌ لبوابةٍ ممنوعةٍ،

وأوراقهم التي تتهاوى في الهواء، ليست سوى صفحاتٍ من كتابٍ أسود، يحمل بين طياته قصصًا لم تُكتب بعد. كل ورقةٍ تلامس الأرض، تشبه توقيعًا على مصيرٍ جديد، كل شجرة نخيل تقف بعناد، وكأنها تحرس سرًا قديمًا لا يُفهم ولا يُسبر غوره. لم تكن هذه الأشجار مجرد

كائنات حية، بل كانت تتنفس التاريخ ذاته. كل خشبة، وكل سعفة، تحمل في أعماقها ماضيً طويل، مرصوفًا بدموعٍ وذكرى لم تُمسح. هو تاريخٌ لا يُمكن للزمن أن يُمحوه، ولا للبشر أن يُغيروه.

كانت الدكتورورة روان تقف أمام تلك الأشجار، عيناها تراقبان أوراق النخيل التي تتساقط ببطء، وكأنها تحاول أن تعطيها إشاراتٍ غير مرئية. كانت تشعر بأن كل سعفةٍ تلامس الأرض تحمل في ثناياها تاريخًا عميقًا، كان مغلقًا في سرٍ عتيق لم تفهمه بعد. وكلما اقتربت، زادت رائحة الأرض التي تعبق بعبير الماضي، لكن ثقل تلك الرائحة كان يثير داخلها شعورًا بالغربة، وكأنها لم تُخلق هنا، أو أن شيئًا ما في هذا المكان يربطها إلى شيءٍ بعيد، إلى مكانٍ آخر، إلى زمنٍ مضى.

أصواتٌ غريبة تملأ الأفق، وحينئذٍ لم تعرفه قبلاً يتسرب إلى قلبها، كل شيءٍ في هذه القرية كان يراودها عن نفسها. كانت وكأنها تسير في حلقةٍ مغلقة، تتساقط فيها أوراق النخيل من حولها، بينما نظرات تلك الأشجار تراقبها بصمت. أهى مجرد شجرة؟ أم حارسٌ غامضٌ لبوابةٍ سرية؟ كان هناك شيءٌ في الهواء، شيءٌ غير مرئي، وكأن القرية نفسها كانت تتنفس معها.

وهي تتنقل بين الأشجار، تشعر أن هناك أيدٍ خفية تحيط بها، تسحبها إلى حيث لا تدري. كانت تراقب بصمت وتفكر في نفسها: هل هي هنا بسبب اختياراتها؟ أم أن القرية هي التي اختارتها؟ تلك القرية المنعزلة التي ابتلعها الزمن كما يبتلع الرمل البحر، تُخفي تحت كل زاوية وكل حجر سرًا قديمًا، أسرار لم يجروا أحد على الكشف عنها. هل كانت

تلك الأشجار، تلك النخيل التي تُحاط بالمجهول، هي من دَعَتْها إلى هذا المكان؟ أم أن الطريق إليها كان مُخطّطاً له منذ الأزل؟

في لحظةٍ من التأمل، شعرت بشيءٍ غريب يمر عبر جسدها، كأنما الأرض نفسها تحت قدميها كانت تتنفس. كانت تعتقد أنها تعرف جيداً لماذا اختارت الهروب من ماضيها، لكن الآن، مع كل خطوةٍ تخطوها بين الأشجار، بدأت تشعر بأن الماضي الذي كانت تفر منه كان يسحبها بشكلٍ غير مرئي، وكأنها كانت تسير داخل دوامة لا مفر منها.

الآن، على حافة اللغز، كانت الدكتورة روان أمام خيارٍ عميق. هل ستستمر في الهروب من الماضي؟ هل ستغلق عينيها عن أسرار هذا المكان، وتكمل في محاولتها للهروب، تلك المحاولة التي كانت تظنها آمنة؟ أم أن القرية اختارتها هي، وأن وجودها هنا لم يكن محض صدفة؟ هل هذه القرية تحمل في أحضانها شيئاً يفوق قدرتها على الفهم، شيءٌ كان دائماً في انتظارها؟

بينما كانت الأشجار تراقبها، والأرض تحكي لها حكاياتٍ صامتة، تراجعت خطوةً إلى الوراء، لكن قلبها ظلَّ في مكانه، ثابتاً على حافة قرارٍ مصيري.

لم تعلم أن «طبيبة القرية» ليست وظيفةً فحسب، بل كانت أكثر من ذلك بكثير. كانت بدايةً لسلسلةٍ من الأقدار التي تحاك في الظلال، وأدوارٍ مُقدّرة لأشخاصٍ لا يعلمون شيئاً عن مصيرهم الذي يقترب منهم في صمت. لم تكن الطيبة مجرد منقذة للمرضى، ولا مجرد

مرشدة في هذا المكان النائي المليء بالأسرار. بل كانت ضحيةً مُعدّةً لتضحياتٍ أكبر، تلك التضحيات التي لم تكن لتكون واضحة إلا في لحظةٍ من الوعي المفاجئ، عندما تبدأ الأنفاس في التداخل، وتكشف الستار عن كل ما كان مُخبأً.

لم تكن الدكتورة روان تدرك في البداية حجم المسؤولية الملقاة على عاتقها. كلما مرّ يومٌ آخر، وكلما نظرت إلى تلك الوجوه المجاهدة التي كانت تنتظرها في العيادة، كانت تشعر بشيءٍ غريب يختلج في قلبها. لم يكن الأمر مجرد مهنة طبية كما كانت تظن. كانت الوظيفة أشبه بالمرشد الذي يقودها إلى طريقٍ مليءٍ بالظلمات، وتلك الوجوه التي كانت تطلب المساعدة لم تكن سوى مرآة تعكس ضبابية الحقيقة. في هذا المكان، كانت جدران العيادة تحتفظ بأسرارٍ قديمة، وحكاياتٍ لم تروَ من قبل. وكلما فتحت باب العيادة لتستقبل مرضى اليوم، كان الهواء يتنفس معها وكأن الأرض نفسها تخبئ سرّاً. كان الهدوء الذي يعمّ المكان يشعرها دائماً بعدم الراحة. هل كانت العيادة حقاً مكاناً للشفاء؟ أم أنها كانت مسرحاً لعرض درامي قديم يتكرر مع مرور الزمن؟ لا أحد كان يعرف.

وفي تلك الليلة التي كانت القمر فيها يكشف عن وجهه الساكن، شعرت الدكتورة روان بشيءٍ غير مألوف في كل شيء حولها. بدا لها أن القرية بأكملها كانت تتنفس معها، وأن كل خطوة تخطوها على أرضها، كانت تضعها أعمق في فخٍ قديم. كانت تشعر بأن هنالك شيئاً ما في هذه

الأرض، في هذه العيادة، في هذه الوظيفة التي تشغلها، كان يحركها بقوة خفية.

«طبيبة القرية» لم تكن مجرد امرأة تُعالج المرضى، بل كانت جزءاً من لغزٍ محير، كلما اقتربت منه، ازدادت غرابته. لم تكن تعلم أن مصيرها قد كُتب منذ اللحظة التي اجتازت فيها عتبة القرية. كانت حياتها جزءاً من نسيجٍ معقد، جزءاً من توضّيات لم تكن مستعدة لها، ولكنها كانت مجبرة على العيش في عالمٍ يخلط بين الأحياء والأموات، بين الحاضر والماضي، بين الحقائق والأوهام.

كانت تلك الوظيفة التي قبلتها بعفوية، والتي اعتقدت أنها مجرد عمل يومي يسير كأي عمل آخر، تحمل في طياتها قوى أكبر من أي تفكير عقلائي. مع كل ساعة تمرّ في العيادة، كانت تكتشف أن حياتها قد أصبحت جزءاً من لعبة أكبر من أي تصور لها. والآن، بينما كانت تدرك شيئاً فشيئاً عن حقيقة مكانها، أدركت أن توضّياتها قد بدأت تزداد، وأن كل خطوة تخطوها على هذه الأرض قد تكون آخر خطوة نحو مكانٍ لا تعرفه، مكانٍ مليءٍ بالظلمات التي تُنيرها فقط أسرار كانت ستظل دفينية لولا «طبيبة القرية» التي اختارت أن تلعب دورها في هذا الفصل المجهول من الرواية.

وصلت الدكتورة الدكتورة روان إلى قرية «وادي النخيل» مع بزوغ فجرٍ كاسفٍ، حيث كانت سحبٌ رصاصيةٌ تتراكم في السماء، كأنّها لا تستطيع التنفس تحت وطأة الأسرار التي أخفتها تلك الأرض منذ أمدٍ

بعيد. كان الضوء ضعيفاً، وبدت الشمس كما لو أنها ترفض الظهور، وتكتفي بتقديم لمحاتٍ خافتةٍ من ضوءٍ غير مكتمل. بدا كل شيء في تلك اللحظة كأنما كان يمرّ عبر جسرٍ ضبابيّ، وحين استنشقتُ الدكتورة روان هواء الصباح، كانت عيناها تنتقلان بين النخيل الملتوي كما لو كان يلفّ القرية بحزامٍ من سلاسلٍ غير مرئية، تمنعها من الخروج، تمنعها من الفهم.

كانت الأشجار التي تزين أطراف القرية كحراسٍ أوفياء قديمين، وأعناقها الطويلة التي تتمايل في الرياح بدت وكأنها تراقبها بعناية، تُخفي أسرارها في ظلالها الغامضة. السعف المتكسّر، الذي كان يتناثر حول الجذوع العتيقة، يشبه أصابعَ عرّافاتٍ عجائز يرفعن أصابعهن في تحذيرٍ صامتٍ، مُنذراتٍ بما لا يُقال. كانت الأرض نفسها تنفس معها، وبخطواتها الصغيرة، كانت تشعر كأنها تسير على حافةٍ بين الحلم والواقع.

النسيم الذي كان يمرّ بها كان مزيجاً غريباً، يحمل معه عبير الهيل والقهوة العربية، لكنّها لم تكن قادرةً على التخلص من رائحةٍ أخرى، تلك الرائحة الثقيلة التي اختلطت مع هواء الصباح؛ رائحةٍ ترابيةٍ رطبةٍ، كانت تذكرها بشيءٍ ما في أعماقها. رائحة كانت أعمق من مجرد ترابٍ مبلل. كانت رائحة القبور الحديثة، ترابٍ لا يزال يعبق بالحياة والموت في آنٍ واحد. لا يمكن للروح أن تلتقط هذا النوع من الرائحة إلا إذا كانت قد مرّت بتجربةٍ عميقةٍ، تجربةٍ تلامس الأعماق السحيقة للأماكن التي تُخبئ فيها القصص الأكثر غموضاً.

توقفت الدكتورورة روان لثوانٍ، وأغمضت عينيها، كأنها تريد أن تمحو الصورة التي ارتسمت في ذهنها: النخيل الملتوي، والأرض المشبعة بالذاكرة، والهواء الثقيل الذي كأنما يرفض أن يمرّ بسهولة. كان هناك شيءٌ غير طبيعي في هذه القرية، شيءٌ لا يمكن أن تلمسه أو تراه، لكنه كان يحيط بها بكلّ قوته، وكأنّه يكشف عن جزءٍ من سرٍّ لا تؤدُّ هذه القرية أن تُكشفه.

كل شيء هنا كان يهمس بسرٍّ خفيّ، كل شيء كان يناديها دون أن يفصح عن نفسه. كانت الأرض تتنفس في تناغمٍ غريبٍ مع نفسها، بينما كانت الدكتورورة روان تشعر بأنّها ليست فقط ضيفاً في هذا المكان، بل هي جزءٌ من سيناريو غامضٍ كانت قد انغمست فيه دون إرادتها. في لحظةٍ من الشكّ، أدركت أن هذا المكان ربما قد اختارها، لا لتكون مُعالجَةً للمرضى فحسب، بل لتكون شاهدةً على ما كان يختبئ في الظلال، لتكتشف ما لا يستطيع أحدٌ أن يكتشفه.

فجأة، تذكرت كلمات أحد الممرضين القدامى الذي ذكر أنّ هناك أموراً في «وادي النخيل» لا يجب أن تُسأل عنها. أسرار لا ينبغي للغرباء أن يقتربوا منها. هل كانت هذه التحذيرات مجرد خرافات، أم أنّ هناك شيئاً آخر أكبر من مجرد الحكايات؟ ومع كل خطوة تخطوها نحو العيادة، كانت الشكوك تتزايد، وكلما تلاشت الأفق، كانت أشجار النخيل تزداد في كثافتها، وكأنها تغلق عليها الطريق في اتجاهٍ واحد.

هل ستكتشف الدكتورورة روان هذه الأسرار المدفونة، أم أنها ستصبح واحدةً من ضحايا هذا المكان الذي يرفض أن يُسمع صوته؟

السوق الصغير كان يعجُّ بحركةٍ مُصطنعةٍ، وكأنَّ الحياة هنا مجرد تمثيلية يومية، يعيدُ أهلُ القرية تمثيلها كلَّ صباحٍ بحركاتٍ آلية، كأنهم لا يستطيعون التوقف عن لعب الأدوار في مسرحية طالما وُجدت في قلوبهم، خوفاً من أن يكتشفَ أحدٌ أنَّ الجمود قد استقرَّ في نفوسهم، في شوارعهم، وفي كل شيء حولهم.

أصواتُ الباعة التي تعلو وتنخفض، وصوتُ الزبائن المتذمرين، والروائح المتداخلة بين البهارات والفواكه الجافة، كانت جميعها تُشعرها وكأنَّ هذا المشهد يتكرر يوماً بعد يومٍ بلا جدوى. ولكن على الرغم من ذلك، كان ثمة شيء غريب في الجو، شيءٌ غير مُريح، كما لو أنَّ الجميع يعرفون شيئاً لا يجرؤون على الإفصاح عنه.

كانت العيون التي التقت بها غريبةً، ليست مجرد نظراتٍ عابرةٍ أو فضولية، بل كانت مليئةً بالريبة، كالسكاكين التي تتجه نحوها بحذرٍ، تنقُصُ عليها لتغرز في قلبها، كأنهم لا يرون فيها سوى دخيلة غريبة، جريئة بما يكفي لتقتحم عالمهم، الذي يظنون أنه لا يُرحب إلا بالأموات. في كل وجهٍ كان هناك علامةٌ خفيةٌ للشك، كان بإمكانها أن تلمسها بيدها، وأن تسمع صداها في هواء السوق الحار. وفي أعماقهم كان ثمة خوفٌ قديمٌ، خوفٌ من التغيير، خوفٌ من الغريبة التي ربما تحمل شيئاً غريباً معها.

بينما كانت تسيرُ نحو عيادتها المعدَّة في بيتٍ حجريٍّ قديمٍ، حيث كان المكان مُركَّباً من الجدران التي تنبُضُ بحكاياتٍ قديمةٍ، ونافذةٍ معتمةٍ تطلُّ على الأزقة الضيقة، التقطتُ أذناها همساتِ النسوة اللاتي

كان يجتمعن حول البئر القديمة، تلك البئر التي كان يُقالُ عنها إنها قد تكون مصدرًا لقصصٍ لا تُحكى، مكانٌ تتجمع فيه أسرارٌ تنفُسُ في صمتٍ غريب. كانت أصواتهنَّ خافتة، لكنَّها كانت كافية لثُسمعها:

«انظروا... جاءتْ بديلتهَا...» كانت إحداهن تقول ذلك بصوتٍ شبه هامس، وكأنَّها لا تريد أن تُسمع من أحد، لكن كلماتها كانت تتسرَّبُ إلى مسامعها بوضوحٍ مؤلم.

«هل ستُصلحُ ما أفسده الطبيبُ السابق؟» جاء صوتٌ آخر، وكان فيه غمَزٌ مبطنٌ، وكان السؤال كان يعبر عن شيءٍ أكثر من مجرد استفسارٍ عادي.

أما الصوت الثالث فكان أكثر غموضًا، وأكثر فزعًا: «أم أنَّها ستُصبحُ جزءًا من لعنةِ القرية؟»

كانت تلك الكلمات هي التي خَلَبَتْ تفكيرها، وشعرتُ وكأنَّها سرتُ في عروقها مثل تيارٍ كهربائيٍّ غريب. لماذا كانت هذه النسوة متأكداً إلى هذا الحد؟ وما الذي جعل الطبيب السابق يختفي بهذه الطريقة الغامضة؟ أسئلةٌ كثيرةٌ تدفقتُ في عقلها، لكن الإجابة الوحيدة التي تردتُ في رأسها كانت: «اللجنة».

كانت العيادة التي ستبدأ فيها عملها تشعرها وكأنَّها دخلتُ إلى قلبِ هذا اللغز، المكان الذي كان يعجُّ بكلِّ أنواع الأسرار والمخاوف المكبوتة. ومع كل خطوةٍ تخطوها في ذلك السوق الضيق، وكل كلمةٍ تسمعها همساتٍ في الرياح، كانت تدري أنها قد دخلت في مكانٍ لا يُرحَّبُ بالغرباء، لا بالأحياء، بل بالأَمْوات.

هل ستصبحُ هي أيضًا جزءًا من هذا المجهول؟ هل ستعيش في ظلّ
هذه اللعنة التي كانت تخيم على الجميع؟

البئرُ نفسه كانَ يُناديها بصوتٍ غارقٍ في الظلام، كأنّما من قاعه
السحيق يرتفعُ صوتٌ مكتومٌ، يتسلّلُ عبر المسافات المظلمة بين
الجدران القديمة: «إيّاكِ أن تسألِي عن الليلة السابعة...» كان الصوت
محملاً بشيءٍ غريب، كأنه تنبئةٌ خافتٌ، يهمس في أذنها بينما يختلط مع
الرياح الباردة التي تتسرب من بين النخيل. لم تكن تعلم لماذا تملكتهَا
تلك الرغبة المريبة في الاقتراب من ذلك الصوت، مع أنها كانت تعرف
أن الفضول قد يكون أكثر الأعداء فتكًا. لكن، كان هناك شيءٌ غير مرئيٍّ
يجرّها، شيءٌ كُتِبَ لها منذ اللحظة التي وطأت فيها قدمها هذا المكان
الملعون.

في ذلك المساء، بينما كانت تجلسُ وحيدةً في زاويةٍ من تلك الغرفة
الصغيرة التي تطلُّ على البئر، شعرتُ بأنّ الزمن نفسه قد تجمّد، كما
لو أن هذا المكان كان يرفض السماح لها بالمغادرة أو حتى بالعودة
إلى حياتها السابقة. كان هناك هواءٌ ثقیلٌ، يثقلُ صدرها كلما حاولت
التنفس. ومع ذلك، لم تتمكن من كبح رغبتها في معرفة أكثر عن هذه
«الليلة السابعة» التي كانت تُذكر دائمًا في همسات القرية. كان الأمر
يشبه سحرًا غريبًا، يدفعها لأن تغوص في أعماق هذا السرّ المظلم، رغم
تحذيرات القرية المبطنة.

حتى أكوابُ القهوة التي رُفعتُ أمامها بدتْ كعروضٍ ترحيبٍ
مسمومةٍ، عيونٌ تراقبها من خلف الأكواب التي ارتجفت يد أصحابها

وهم يقدمونها لها، وكأنهم يقدمون لها السم في أكوابٍ ذهبية. كل يد تمُدُّ لها الفنجان، كانت ترتجفُ كما لو أنها تمسكُ بحيةٍ ضخمة، تنتظر اللحظة التي ستفاجئها بعض السموم في قلبها، تمامًا كما كان يحدث في قصص الجدات القديمة. كل تفصيل صغير كان يحمل علامةً غريبة، وكان كل شيء من حولها يبدو محاطًا بكثافة من الأسرار والتهديدات الصامتة.

لقد كان هناك شيءٌ مرعبٌ في هذه القرية، لا يجرؤ أحدٌ على التحدث عنه صراحة، لكن الجميع يعلمه. كانت كل نظرة، وكل كلمة، وكل حركة، تختفي وراء ستارٍ من التوتر والقلق. وكأن أهل هذه القرية كانوا يمرون بتجربةٍ مستمرة، يرددون خلالها كلماتٍ لم يجرؤوا على تفسيرها.

بالرغم من كل هذه التلميحات المخيفة، لم تستطع روان أن تحسم أمرها. هل كان هذا مكانًا قدريًا، حيث تنجرف الأقدار إلى حتفها دون أن تُدرك؟ أم كانت هي من اختارت أن تدخل في هذه الدوامة، باحثة عن الحقيقة التي من شأنها أن تعيد تشكيل فهمها للحياة والموت والواقع؟ وأثناء ارتشافها للقهوة، حاولت أن تُلهي نفسها بتفاصيل المحيط، لكنها شعرت أن كل حركة من حولها كانت تكاد تتكلم. الظلال التي تحركت على الجدران، الأضواء التي خفت وزادت في ثانيةٍ واحدة، والزجاج المكسور في نافذة الغرفة... كلها كانت تهمس لها بما لا تستطيع أن تدركه.

لكن أكثر ما كان يثير في نفسها الخوف، هو الفكرة التي كانت تتسلل
ببطء إلى ذهنها: هل سيكون لها دور في هذه الليلة السابعة؟

البيت الحجري الذي خُصص لها كان يحمل في جدرانه صدى
أنفاسٍ قديمةٍ، تنبعث من بين الشقوق والزوايا كأنها همسات غامضة،
تشكو عبث الزمن. كانت جدرانه وكأنها تخفي خلفها تاريخاً طويلاً من
الأسرار المخبأة بعناية، قصص لم تُرو، وأحداث لم تُكشف بعد. كان
المكان يعبق برائحة عتيقة، وكأنه لم يُمس منذ عقود. في الزوايا، كانت
هناك خيوط رقيقة من العنكبوت تتشابك كرموز مفقودة، فيما كانت
الرياح تهمس عبر الثقوب الصغيرة في الجدران، لتنقل صوت الماضي
المطمور إلى أذنيها، في كل مرة تحاول أن تغمض عينيها.

بين الأوراق المبعثرة على مكتب الطبيب السابق، لفت نظرها شيء
غريب. كانت المذكرة ملقاة في زاوية مظلمة، مكتوبة بخط مرتعش، كأن
صاحبها كان يكتب تحت ضغط نفسي شديد، أو ربما خوف من شيء
كان يلاحقه: «الليلة السابعة... سيأتون ليكمل الطقوس... لا تفتحي
الباب مهما حدث!». كلمات قصيرة، لكنها ثقيلة كحجارة ملقاة على
صدرها. كانت تلك المذكرة بمثابة تحذير، لكن تحذيراً عميقاً أكثر من
أن يفهم بسهولة.

أعادت المذكرة إلى مكانها بعناية، لكنها لم تستطع أن تتخلص من
شعور غريب بدأ يتسلل إلى أعماقها. كانت تلك الكلمات بمثابة شيفرة
مغلقة، قد تكون مرتبطة باللغز الذي يحيط بالقرية المظلمة.

خارج النافذة، كانت أشجارُ النخيل تتحركُ في الظلام كـ «جنودٍ أوفياء» حقًا، لكنها كانت تتراقص بطريقتٍ غير طبيعية، وكأنها تسير في تناغمٍ مع قوى غير مرئية، قوى لا يمكن للعين البشرية أن تراها أو حتى تفهمها. لم تكن الأشجار مجرد نباتاتٍ، بل كانت تشكل حاجزًا غير مرئيٍّ بين عالمين، وتحتها كانت تختبئ أسرارٌ قديمةٌ، لا يكشفها سوى أولئك الذين يعبرون عتبة المجهول.

الليلة الأولى في القرية كانت مليئةً بالقلق. كانت الدكتورة روان جالسةً في غرفةٍ مظلمةٍ، يحيطها السكونُ كغطاءٍ ثقيلٍ. كان الظلامُ قد حلَّ تمامًا، وبدأت تشعر بشيءٍ غريب، وكأن هناك شيئًا ما يراقبها، يترصد كل خطوةٍ لها. في البداية، ظنّت أنه مجرد وهمٍ بسبب الوحدة، لكن مع مرور الوقت، بدأ الصوتُ يتسلل من الخارج. كان صوتُ دقاتٍ تُقرعُ على أبوابِ القرية، دقاتٌ ثقيلةٌ، تُشبهُ عدداً تنازلياً، وكأن الوقت يمرُّ ببطءٍ نحو لحظةٍ مفصلية.

دقاتٌ تتوالى ببطء، وكأنها تحدد اللحظة الحاسمة التي يجب أن يتكشف فيها اللغز، لكنها كانت تزداد حدةً وقوةً مع كل لحظة. كانت تلك الدقات تُثير في داخلها شعورًا غامضًا، شعورًا بأن شيئًا قد بدأ بالفعل. كانت هناك تهديداتٍ واضحة في تلك الدقات، لكنها لا تعرف إن كانت تهددها شخصيًا أم أن هذه الدقات هي جزءٌ من شيء أكبر، شيء يتعلق بالقرية نفسها وباللغز الذي لم تكتشفه بعد.

وفي كل مرة كانت تسمع فيها تلك الدقات، كانت تتذكر كلمات المذكرة، وتزداد شكوكها. هل هي مجرد ضحيةٍ عابرةٍ في هذه اللعبة

المظلمة؟ أم أن هناك سبباً آخر يجعلها هنا، في هذا المكان المهجور، حيث يتداخل الواقع مع الخرافة، ويختلط الزمن بالماضي؟

كل شيءٍ حولها كان يتلاشى في الضباب. وكلما اقتربت من الإجابة، كلما زاد الغموض، وكأنها كانت تُنزع تدريجياً عن أقدامها الأرض الصلبة، لتجد نفسها تغرق أكثر فأكثر في بحرٍ من الظلال.

لم يكن الدكتور عبد الرحمن مجرد طبيب عجوز في قرية نائية، بل كان بمثابة تمثالٍ حيٍّ للحكمة التي ورثها عبر الأجيال. كان يحمل في أعماق قلبه إرثاً من المعرفة المتراكمة، علماً بطيئاً لكنه عميق، علماً مشبعاً بالطقوس والعلاجات التقليدية التي تمررها الأمهات إلى بناتهن، والتي يُسطرها الزمن في أساطيرٍ وأقاويل. سنواته الطويلة بين جدران البيوت الطينية، التي تشقها الرياح وتغسلها الأمطار، ومع عيون القرية التي تحتفظ بأسرارها العتيقة، جعلته يعرف كل نبضة قلب في هذه الأرض، وكل وجع يئن في صدور أهلها، حتى لو كان ذلك الوجع غير مرئي، مُخفى تحت طبقات من الغبار أو عبر أسوار الزمن.

كان الدكتور عبد الرحمن أكثر من مجرد طبيب؛ كان هو الرابط بين الماضي والحاضر، بين العادات التي لا تنكسر وبين العلوم التي كانت تجد طريقها بصعوبة إلى هذه القرية المعزولة. كان يعرف ماذا يقول للمرأة التي تحمل في قلبها شوقاً لا يطفئه الزمن، وكيف يُعالج الصغير الذي جاء إلى الدنيا ليجد نفسه عالقاً بين طقوسٍ لا تنتهي. وفي كل مرة كان يدخل فيها أحد أهل القرية إلى عبادته القديمة، كانت الأرض

نفسها تتنفس بهدوء، وكأنها تراقب ما سيقدمه لها من علاج، من راحة، من تطهير.

لكن حين وصلت الدكتورة روان، كان هناك شيءٌ غريب في الهواء. كانت هي تلك الرياح الجديدة التي هبَّت فجأة على القرية، الرياح التي لم يعرفها عبد الرحمن من قبل، الرياح التي لم تستطع تلك الأشجار التي طالما ارتاحت تحتها روحه أن تفسرها. كان شيءٌ في عيونها، في سكون خطواتها، ينبئ بأن الأمور قد تغيرت. وعندما مدت يدها إلى ملفات المرضى، كانت تعبيرات وجهه تتحول، شيئاً فشيئاً، من الترحيب الهادئ إلى حالةٍ من التردد، وكأن الزمن نفسه قد قرر أن يختبر إيمانه بكل ما آمن به طوال حياته.

لم يكن ما جاء به الزمن مجرد تحدٍّ عابر. فقد أحس عبد الرحمن أن هناك شيئاً أعمق من ذلك. كانت الدكتورة روان تمثل الوجه الآخر للطب، الطب الذي يتحدث بلغة الأرقام والأبحاث والجرعات الدقيقة، بينما كان هو، في عالمه القديم، يرى العلاج في النبضات الخفية للروح والكرامة الإنسانية. كان يرى في يديها القوة لشفاء الأجساد، لكنه كان يخشى أن يكون وراء تلك القوة شيءٌ لا يعرفه. شيءٌ يهدد بهدوء العالم الذي شيده طوال سنواته. كان يشاهدها بعينين مثقلتين، بينما كانت هي تستكشف كل زاوية من عيادته، كما لو كانت تبحث عن شيءٍ بعيد، شيء لا يمكنه أن يراه، شيء قد يسحب من تحت قدميه الأرض التي يقف عليها.

وفي تلك اللحظات، بدأ الشك يتسلل إلى قلبه. هل كانت هي حقًا مجرد طيبة؟ أم أن هناك شيئًا آخر في أعماقها، سرٌّ دفينٌ لم يُكشف بعد؟ هل كانت تحمل مفاتيح لغزٍ قديمٍ كان قد اعتقد أنه قد طُوي للأبد؟ ومع كل خطوة كانت تأخذها في هذا العالم الذي رآه طويلًا وعاش فيه، بدأ عبد الرحمن يتساءل إن كان قد آن الوقت لمواجهة الماضي، لملاقاة الزمان الذي عارضه، لنرى إن كان ما يعتقد علمًا، أم أن تلك الرياح الجديدة ستفتح له أبوابًا جديدة قد لا يستطيع إغلاقها أبدًا.

كانت الدكتورة روان كالغريب الذي يحمل رياح التغيير، وجهٌ جديدٌ قادمٌ من عالم بعيد، عالم يعج بالتقدم والابتكار، لكن كان هناك شيءٌ في نظراتها، في خطواتها، في حضورها الطاعني، كان ينبئ عبد الرحمن بأن تلك الرياح التي تحملها لن تكون مجرد نسيمٍ عابر. كانت تمشي وكأنها تملك مفاتيح الأسرار التي لم يعرفها جيلٌ قبله، تمسك في يديها شهادات جامعية من أماكن لا تصل إليها أقدام الفلاحين، وتحمل بين طيات قلبها أساليب علاج حديثة لم تألفها هذه الأرض القديمة، التي نبتت فيها جذور الحكايات والتقاليد على مر الأجيال.

منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، شعر عبد الرحمن بشيء غير مألوف يسري في أرجاء قلبه. لم تكن هي فقط امرأة جديدة في القرية، بل كانت شبهاً يلوح في الأفق، تثير الغبار وتكشف عن حقائق قديمة دفنتها الأيام. كانت روائح الأدوية التي تحملها في حقيبتها تمزج بين طيب الزمان القديم ومرارة المستقبل الذي يقترب، وكان هو، في سكونه العتيق، يشعر بذلك التهديد الصامت الذي يوشك أن ينقض عليه.

في كل خطوة كانت تخطوها نحو العيادة القديمة، كان عبد الرحمن يشعر بارتجاف الأرض تحت قدميه. كانت تحمل شيئًا ما في قلبها، شيء مختلف تمامًا عما كان يعرفه، شيء يهدد الاستقرار الذي عاش فيه لعقود. كان يراها تتحدث مع المرضى، وتستخدم مصطلحات لم يسمع بها من قبل، كلمات تأخذ الحياة في اتجاه آخر. وعيناه، اللتان تعودتا على لغة الطب الشعبي والحكمة الموروثة، كانتا تجدان صعوبة في التكيف مع المفاهيم الجديدة التي كانت تقترحها.

لكن ما كان أكثر ما أزعجه، هو تلك النظرة التي كانت تعكسها عيناه، تلك النظرة التي كانت تبدو وكأنها ترى أبعد مما يراه. كان يشهد في عيونها شيئًا غامضًا، شيئًا لا يستطيع أن يضع له تفسيرًا. هل كان شعورًا بالفضول تجاه هذه الأرض القديمة؟ أم كان شيئًا أعمق، شيء قادم من ماضٍ لا يمكن لهما إلا أن يلتقيا فيه؟

منذ أن وطأت قدماها القرية، بدأ عبد الرحمن يشعر بأن هناك شيئًا على وشك الحدوث، شيء كان ينتظره، لكنه كان يخشى مواجهته. كان قلبه، المملوء بالحكمة القديمة، يدرك أن هذه المرأة ليست مجرد طبيبة أخرى في هذه القرية الصغيرة، بل كانت الزلزال الذي سيضرب أسس كل ما كان يعتقد صحيحًا. وكأنها، في هدوئها المطبق، تحمل معها العاصفة التي ستقتلع كل ما هو ثابت، كل ما كان يعتمد عليه الناس في حياتهم اليومية.

وفي الليل، حين يسود الهدوء على القرية، كان عبد الرحمن يجد نفسه في حالة من التأمل العميق. هل كان الزمن قد حان لملاقاة هذه

القوة الجديدة؟ هل كان عليه أن يواجه ما كان يهرب منه طوال حياته؟ ربما كان هو نفسه قد أصبح جزءاً من لعبة الزمن، لعبة تطوي صفحة جديدة من تاريخ قريته التي طالما رآها ثابتة لا تتغير.

ورغم كل شيء، كان يعلم في أعماق نفسه أن القرية التي نشأ فيها لن تظل كما هي بعد اليوم. الدكتوراة روان، بغرابتها وحضورها الطاعني، كانت مجرد بداية. وكان يظل في قلبه سؤالٌ واحدٌ: هل سيكون هو، بكل ما يمثلُه من حكمة وأسرار، قادرًا على الوقوف في وجه الزلزال القادم؟ أم أنه سيصبح جزءًا من هذه العاصفة التي لن يستطيع الوقوف أمامها؟

لم يكن الأمر مجرد اختلاف في الطب؛ كان صراعًا مريرًا بين عالمين متناقضين، لا أحد منهما مستعد للتنازل عن ما يعتقد أنه الطريق الصحيح للشفاء. كان ذلك الصراع ينمو في قلب عبد الرحمن مع كل يوم يمر. عالمه، الذي تشبّع بحكمة الجيل القديم، كان يستند إلى تجارب مئات السنين، وكان يعتقد بشدة أن الأعشاب التي تنبت في الأرض تعرف أكثر عن شفاء الإنسان من أي آلة. يذكر كيف كان جده يجمع تلك الأعشاب بحذرٍ، كيف كان يطحنها ويصنع منها أدوية تمتاز مع روح الأرض، وكيف أن كل جزء من النبات يحمل تاريخًا طويلاً من الألم والشفاء. كانت تلك الأعشاب هي الميراث، وكانت القناديل التي تضيء الليالي الحزينة هي الشاهد على تلك القصص التي لم ترو.

لكن في مقابل ذلك، كان هناك عالم آخر، عالم آخر كانت تعيشه
الدكتورة روان. عالم ينقض عليه كل يوم جديد من اختراعات،
تقنيات، واكتشافات علمية غير مرئية. عالم تضيء فيه المختبرات
بأضواء كهربائية قاسية، حيث الأجهزة الحديثة تحتل المكان، والأدوية
تُصنع في المصانع الضخمة التي لا علاقة لها بالتراب أو الزهور. عالم
لا يعرف المداواة بالأعشاب، بل بالمواد الكيميائية والتكنولوجيا
المتطورة. كانت روان تمثل ذلك العالم الذي لا يستطيع عبد الرحمن
إلا أن يشاهده وهو يزحف إلى قريته الصغيرة، حيث يصبح كل شيء
ممكناً في عيون من يؤمنون بالعلم بديلاً عن الإيمان بالعوادات القديمة.
كيف يمكن لجيلٍ تعلّم سر الأعشاب على ضوء القناديل أن يثق
بجيلٍ تعلّم تحت أضواء المختبرات؟ كيف يمكن لقلب عبد الرحمن
أن يتقبل فكرة أن الأدوية لا تأتي من الأعشاب التي تنمو على ضفاف
الأنهار، بل من أنابيب اختبار تزدهم بالمواد الكيميائية والغازات
السامة؟ كان يشعر كأن عزلته عن العالم الحديث كانت حصناً يحميه
من سيل التغيير، لكن الآن، كان يبدو أن هذا الحصن بدأ يتصدع.

كان عبد الرحمن، مع كل خطوة تخطوها روان في العيادة، يشعر
أن الأرض نفسها تهتز تحت قدميه. كان يراها تستخدم التكنولوجيا،
التي كان يراها في البداية مجرد أداة غريبة، وكأنها جزء من السحر الذي
لا يفهمه. ووسط هذا الصراع، بدأ يشعر بشيء آخر أيضاً. بدأ يرى أن
كل حبة دواء، مهما كانت قوية، لا يمكنها أن تشفي الروح المريضة
مثلاً تفعل البسمة البسيطة، أو كلمة طيبة، أو لمسة يد خفيفة تُطفئ

الحريق الذي يعصف بقلب المريض. كان يعتقد أن العلاج ليس مجرد شفاء للجسد، بل هو شفاء للروح، والعلاج الحقيقي لا يكمن في ما يُقال في الكتب الطبية أو تحت أضواء المختبرات، بل في تلك اللحظات البسيطة التي تجلب الطمأنينة للنفوس.

وفي تلك اللحظات التي كانت روان تعالج فيها المرضى باستخدام الأدوات الحديثة، كان عبد الرحمن يراقبها عن كثب، يستمع إلى كلماتها، ويشاهد تفاعلها مع الناس. كان يدرك أنه ليس ضد التقدم، لكنّه كان يعلم أن هذه التكنولوجيا، مهما كانت متطورة، لا يمكنها أن تحل محل شيء أعمق وأقوى، شيء مرتبط بتجربة أجيال كاملة. كان يقف على حافة التغيير، يشاهد جيلاً جديداً يضع ثقته في المجهول، بينما كان هو يضع ثقته في الأرض، في الأعشاب، وفي المعرفة التي تأتي من الأجداد.

لكن مع مرور الوقت، بدأ عبد الرحمن يشكك في يقينيّاته. هل يمكن حقاً للطب القديم أن يواجه التحديات التي تطرأ على العالم؟ وهل تلك العادات التي استمر بها لأجيالٍ قد بدأت تفقد قوتها في عالم يزحف فيه التقدم بسرعة، وتصبح فيه الحياة أكثر تعقيداً؟ كان يشعر، في أعماقه، أن هناك شيئاً جديداً على وشك أن يحدث، وأنه سيحتاج إلى اتخاذ قرار عميق. هل سيظل متمسكاً بعالمه الذي يعرفه، أم سيتقبل هذا التغيير الذي يوشك أن يقتحم قريته مثل العاصفة؟

كانت تجاعيد وجهه، التي امتزجت بخطوط الزمن، تحكي قصة رجل شهد الكثير من الأيام السوداء، والأوقات الصعبة التي تقوّض

الجسد، ولكنها لا تكسر الروح. كل تجاعيد كانت تحمل ذكرى لحظة مرّت على قلبه، كل خطّ كان عبارة عن فصلٍ من فصول صبره وصموده في وجه الحياة. سنوات طويلة من العمل بين الأناس البسطاء في هذه القرية الصغيرة، حيث كان يزرع فيهم بذور الأمل بعلاجٍ لا يحتاج إلى مشرط أو دواء كيماوي. كان يثق أن الأرواح، لا الأجساد، هي التي تكتب قصة الإنسان الحقيقية. تعلم كيف يكون الشفاء حقيقيًا، ليس فقط في جسد المريض، بل في روحه المتعبة.

كان يعرف أن اليد التي تداعب جبهة مريض، والابتسامة التي تُشرق رغم الوجع، كانت أسلحة أقوى من أي دواء يمكن أن يحمله عياده. لكنه أيضًا كان يعي أن الزمن لا يقف على أحد، وأن عجلة الحياة تدور بسرعة أكبر من أن يلتقطها أي شخص، مهما كانت قدراته أو معرفته. وبينما كانت الأعشاب تروي آلام الأجساد، كانت الحياة قد بدأت تنقل له إشارات بأن الوقت قد حان للتغيير. وكان يراقب، في صمت، وصول الدكتوراة روان، ذلك الوجه الجديد، تلك القوة الشابة التي لم يعرفها من قبل، وبدأ يشعر في قلبه أن قدومها ليس مجرد خطوة إضافية في مسار حياة القرية.

كان يعلم أن هذه المرأة لم تأتِ إلى هنا من أجل أن تكتب مجرد تقارير طبية، أو أن تستبدل عيادته بعلاجٍ أرقى وأسرع. بل كان يراها تمثل قدوم عصر جديد، عصر من المستحيل أن يجد له مكانًا في هذا العالم القديم. تلك الابتسامة التي كانت تشرق على وجهها كإشراقة

شمس في صباح بارد، تلك الثقة التي تجسدها في كل خطوة تخطوها، كانت تحمل رسالة له مفادها: «التغيير قادم، وسيكون بدون رحمة.»

رغم أنه كان حذرًا في البداية، ورغم أنه حاول أن يقنع نفسه بأن هذه مجرد امرأة أخرى تبحث عن مكانٍ لطبها في هذه القرية الصغيرة، إلا أن شيئًا في أعماقه بدأ يتغير. كان يشعر، كما لو أن الأرض نفسها قد تغيرت تحت قدميه. كان يتساءل في لحظاتٍ من الضعف إن كانت هذه هي اللحظة التي سيجد نفسه فيها مغلوبًا على أمره، وإن كانت هذه البداية لما سيأتي بعد ذلك. أليس من المؤلم أن يدرك أن ما بنى عليه حياته قد يصبح ذا قيمة أقل في عيون الجيل الجديد؟

وكما تجاعيد وجهه، كانت أفكاره تتراكم، وتبدو متشابكة، مليئة بالأسئلة التي لم يجد لها جوابًا. هل سيبقى كما هو، رجل الزمان القديم الذي يثق في الطب الطبيعي ويؤمن بعلاجات الأرض؟ أم هل سيكون من الضروري أن يضع هذه التقاليد جانبًا وأن يفتح قلبه وعقله لهذا العصر الذي يبدو أنه لا يرحم أي أحدٍ يرفض أن يواكبه؟

كانت الدكتورة روان كالعاصفة التي تهب على سكونه، وتحمل معها بذور التغيير. كان يعلم أنه لا يمكن لأحد أن يوقف الزمن، لكن قلبه كان يرفض أن يتقبل فكرة أنه ربما يكون قد وصل إلى نقطة لا عودة فيها. كان هناك قلق دفين في داخله، وهو الذي لطالما آمن بأن الأرواح العميقة هي التي تتحكم في كل شيء. فهل كانت هذه الروح الشابة، التي جلبت معها تقنيات جديدة وعلوم حديثة، قادرة على أن تُغني عن الروح القديمة التي لطالما استندت إليها قريته؟

كان صوته الداخلي يصرخ بأن هذه ليست مجرد مهنة جديدة تأتي وتحل محل الأخرى. هذه كانت بداية لانتهاة حقبة، بداية لفصل جديد لن يكون له فيه مكان. لكن هل كان يستطيع أن يقاوم هذا التغيير؟ وهل كان من الممكن أن يظل ثابتاً في عالمٍ بدأ يخرج عن سيطرته؟

كان يخشى أن تكون الدكتورة روان بعيدة كل البعد عن فهم هذا العالم الذي عاش فيه طوال عمره، أن تنظر إلى أهل القرية من خلال عدسة أرقام وبيانات، فتختزل حياتهم في كلماتٍ جافة على صفحات ملفات طبية. كانت هذه القرية، في عينيه، أكثر من مجرد تجمع من البشر، كانت روحاً نابضة، تكمن في كل زاوية، وفي كل حجر، وفي كل نسمة هواء تمر بين أشجار النخيل القديمة. كان يعرف أن أهالي القرية لا يحتاجون إلى وصفات دواء فقط، بل إلى من يفهم همساتهم، من يقرأ في أعينهم أسرار الألم التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، من يدرك أن آلامهم ليست مجرد أعراض مرضية، بل قصصاً تنبض بالحياة، تحمل تاريخاً مليئاً بالتضحيات والذكريات.

كان يشعر بقلقٍ عميق أن الدكتورة روان، تلك الوافدة من عالمٍ بعيد، ربما تتعامل مع هذه الأرواح الطيبة كما لو كانت مجرد حالات طبية لئعالج، وتُدَوِّن في ملفاتٍ تُركن في أرفف مكاتب المستشفيات. لكن أهل القرية لم يعرفوا في حياتهم تلك اللغة الجافة التي تملأ العيادات والمختبرات، ولم تُنسَ لديهم الطريقة التي يُشبع بها القلب بالجُمل العاطفية والنظرات التي تلمس الروح قبل الجسد. كان هذا القلق يطارده في كل لحظة، وكأن هناك حرباً صامتة تدور في ذهنه بين

قلبه الذي يعرف هذه الأرض جيداً، وعقله الذي بدأ يشكك في قدرته على إيقاف عجلة التغيير.

كان يعتقد أن هذه القرية، بظلالها الطويلة وحقولها الممتدة، بحاجة إلى من يعرف كيف يطبب على أوجاعها برفق، ويغرق في غموضها، وليس من جاء لتقديم الحلول الجاهزة التي لا تناسب آلامها الحقيقية. فهم أهل القرية، كما كان يراهم، لم يكونوا مجرد أشخاص يعانون من الأمراض الجسدية، بل كانوا محاربين في معركة مع الزمن، تحمل كل واحد منهم قصة عميقة ومرهقة. كل جرح كان يحمل وراءه ذكرى قديمة، وكل ألم كان جسراً إلى ماضٍ مظلم، وكل عضة من الحياة كانت جزءاً من صراع مستمر مع القدر.

وهو، في قلبه العميق، كان يخشى أن يظل هؤلاء الناس في نظرها مجرد «حالات». كان يأمل أن لا تراهم كملفات طبية، ولا تظن أن علاجهم يكمن في جرعات دواء أو مسكنات. بل كان يود أن تراهم كما رأهم هو؛ أرواحاً مكبلة بالأسرار التي لا يمكن لأي وصفة طبية أن تحلها. كان يود لو أن بإمكانه أن يريك تلك الوجوه التي تحكي أكثر من أي تحليل مخبري، تلك الأيدي التي تحمل ثقل الأرض أكثر من الأجساد العادية، وكان يود لو أنها تستطيع أن تلمس قلب كل واحد منهم كما لمس هو أرواحهم عبر السنين.

بينما كانت روان تتحرك في أروقة القرية، كان هو يراقبها في صمت، يراقب كل خطوة، وكل تفاعل مع الأهالي، وكل كلمة تخرج من شفتيها. كان يتساءل في نفسه: هل ستمكن من دخول قلوب هؤلاء

الناس كما دخل هو؟ أم أن العلم الذي تحمل في يديها سيحجب عنهم تلك العوالم الخفية التي اختبرها هو طوال حياته؟ كان يتمنى لو أنها تستطيع أن تدرك أن كل واحد من هؤلاء «المرضى» لا يحمل مجرد تشخيص، بل يحمل تاريخاً من النضال، والفرح، والدموع، التي لا يمكن أن تُفهم إلا من خلال عيون قادرة على رؤية ما وراء الظاهر.

وكانما الزمن قد ألقى بهما في طريقين متوازيين؛ هو، الذي عاش في صمت وهدوء، يروي حكايات القرية عبر الأجيال، وهي، التي تحمل أدواتها الطبية كأنها سلاح في وجه عالم لا يعترف إلا بالحقائق الجافة. كان هو يعتقد أن العلاج الحقيقي لا يأتي من جهاز قياس ضغط الدم أو الأشعة السينية، بل من القدرة على الاستماع، والاحترام، والتواصل العميق مع الأرواح التي تختبئ وراء الأوجاع. أما هي، فكانت، في نظره، لا تزال في مرحلة الاكتشاف، تحاول أن تشرح للعالم ما يعجز هذا العالم عن فهمه.

كان يواجه نفسه مع أسئلة كبيرة: هل ستنجح روان في فهم هذه الأرواح كما فعل هو؟ أم أن هناك حدوداً لا يمكن لأي علم أن يتجاوزها؟ حدود تتعلق بالأرض، بالعواطف، وبالذكريات التي تجعل هذه القرية أكثر من مجرد مكان.

لكن الأمر لم يكن مجرد مخاوف طبية، ولم يكن مجرد قلق من أن يُرى في عيون الأهالي كطبيب عجوز تستهلكه الأيام والأعوام، بل كان خوفاً عميقاً من أن يفقد مكانته، من أن تتحول تلك العيون التي كانت دائماً تبحث عنه في كل أزمة إلى العيون التي تبحث عن بديل. كان يشعر

بأن مركزه، الذي بني بعناية طوال سنوات، يوشك على الانزلاق في هاوية لا مفر منها، ويعرف أن هذا ليس مجرد تحول في الرأي أو تفكير جديد، بل كان يراه انكسارًا في شيء أعمق. كان يراه انكسارًا في نفسه، في هويته، وفي كل ما ظل يعتقد أنه ثابت.

فكرة أن يصبح مجرد ذكرى، أن يكون ماضيًا في المكان الذي كان فيه حاضرًا مطلقًا، كانت تكاد تشل تفكيره. كيف له أن يتصور يومًا أن تلك العيون التي كانت تبحث عن يدٍ تمسح الألم وتواسيه، تلك التي كانت تعترف بحكمته وتحترم تجاربه، قد تصبح الآن مشوشة، تبحث في الاتجاهات الأخرى، بحثًا عن الدكتوراة روان أو غيرها من الأطباء الذين سيأتون بجديد لم يعرفوه من قبل؟ كان يرى في هذه الفكرة تهديدًا غير مرئي، خافئًا ولكنه حقيقي، يتسرب إلى كل زاوية من حياته. كان يعلم أن الحياة لا تملك أي رحمة، وأنه إذا لم يتمسك بتلك العيون التي كانت بحاجة إليه، فسيجد نفسه يومًا ما وحيدًا، يتنقل بين جدران فارغة، يردد لنفسه تلك الأسئلة التي لا يستطيع أحد أن يجيب عليها.

كان يختبر ذلك التوتر الذي لا يُحتمل؛ توتر بين الموروث والمستقبل، بين الحاجة إلى التمسك بالتقاليد التي كانت تجعله أكثر من مجرد طبيب، وبين التحدي الذي تمثله تلك الثقة العمياء في العلم الحديث، الذي جاء الآن مع شخص جديد، قد تكون سيرتها العلمية قد جعلتها مشبعةً بالثقة، لكنها في نظره لم تختبر بعد حرارة الأرض التي كانت تحت قدميه كل يوم. كان يخشى أن الدكتوراة روان، بمواقفها المدروسة، وبخطواتها الواثقة، لن تعرف كيف تتنقل في الأزمات التي

يتعرض لها الأهالي. فهم لم يطلبوا دواءً فحسب، بل كانوا يطلبون من شياطينهم حكاياتهم التي تتوارثها الأجيال.

في أعماقه، كان يحس بأن ذلك اليوم الذي سيحل فيه الزمان وينقضي، سيكون يومًا يحلم فيه بأن يعود إلى تلك اللحظات التي كانت تسير فيها الحياة ببطءٍ تحت أشجار النخيل، حيث كان الجسد والعقل والروح يتشابكون في وحدة واحدة لا يمكن لأي علاج أن يفرق بينهم. هل ستظل القرية تعترف بحكمته، أم سيأتي زمن جديد تسيطر فيه تلك الأيدي الشابة، التي لم تعرف بعد ماذا يعني أن تكون قيد الأرض، ماذا يعني أن يكون قلبك مرهفًا ليس تجاه ألم الجسد فقط، بل تجاه ألم النفس، الألم الذي لا تراه العين المجردة؟

كلما مر الوقت، كان عبد الرحمن يشعر بأن مستقبله قد بدأ يذوب في هواء غير متوقع، كما يذوب الثلج في شمسٍ لا ترحم. كان في صراعٍ غير مرئي مع نفسه، بين حنينه إلى الماضي وتطلعه إلى المستقبل. كان يحاول أن يمسك بالخيط المتناثرة التي كانت تربطه بأرضه، لكنه كان يعرف أن الأيام لن تنتظر أحدًا. فحتى لو حاول أن يحارب الزمن، فإن كل شيء من حوله كان يتغير.

وفي خضم كل تلك المخاوف، كان هناك سؤال واحد يطرق عقله كل ليلة، يرن في أذنه كدقات ناقوسٍ متسارعة، لا يمكن له أن يهرب منه أو يتجاهله: هل كانت الدكتوراة رومانًا تهديدًا فعلاً؟ أم أنها، بطريقة لم يكن يدركها بعد، قد تكون الفرصة الأخيرة لإنقاذ ما اعتقد أنه لم يعد بحاجة إلى إنقاذ؟

أخذ السؤال يتسلل إلى أعماقه، يجتاحه في لحظاتٍ من الهدوء القاتل، تلك اللحظات التي يترأى فيها له أنه على وشك أن يواجه شيئاً لم يتوقعه، شيئاً قد يغير مسار حياته بأسره. كان يشعر وكأن هذا السؤال هو المفتاح الذي قد يفتح أمامه أبواباً مغلقة، أبواباً كان يظن أنه قد أغلقها للأبد. لكنه في ذات الوقت كان يخشى أن يكون هذا السؤال هو بوابة لعصرٍ جديدٍ من الضياع، حيث قد يجد نفسه عالقاً بين عالمين لا يستطيع العيش في أيٍّ منهما.

كان يسير في ممرات ذهنه المظلمة، يفكر في الأيام التي قضاها في العيادة، محاطاً برائحة الأعشاب والطقوس القديمة التي كانت تصنع توازناً غريباً بين الناس وأرواحهم. هناك، حيث كان يُعتبر رمزاً للمعرفة المتوارثة، كان يعزف على أوتار الحياة القديمة. لكن الآن، مع وصول الدكتوراة روان، بدأ يشعر بأن هذا التوازن بدأ في التصدع، وأن العوالم التي كان يعتقد أنه من يديرها قد بدأت تتداخل بطرق غير متوقعة.

هل كانت هي مجرد انعكاس للتقدم، للمستقبل الذي لا مفر منه؟ أم أنها كانت أكثر من ذلك؟ هل كانت الرسالة التي طالما تجاهلها، التحذير الذي كان عليه أن يفهمه من وقتٍ طويل؟ وبينما كانت خطواتها تتردد في أروقة القرية المظلمة، بدأت تشكل في ذهنه فكرة غريبة، فكرة أن ربما قد جاء وقتٌ لإعادة التوازن، لكن بطريقة لا يتصورها. ربما كانت روان هي المفتاح لحل اللغز الذي طالما تجنب رؤيته.

لكن مع كل هذه الأفكار التي تتداخل في ذهنه، كان يشهد قلبه صراعاً أعظم. كان يعلم أن القرار الذي سيتخذه سيحمل تبعات أكبر مما يظن.

هل سيواجه المستقبل بعقل متفتح، أم سيظل متمسكاً بما آمن به طوال حياته، يغلق عينيه عن كل ما هو جديد خوفاً من المجهول؟

وفي كل ليلة، بينما كانت الظلال تتراقص تحت ضوء القمر الخافت، كانت تلك الأسئلة تعاوده، تقض مضجعه وتثير في قلبه شكوكاً أعمق. كان يشعر وكأن الزمن قد بدأ في الانقضاء عليه، يضغط عليه بخطوات متسارعة، والخيارات التي أمامه تتضاءل مع كل لحظة تمضي. هل ستصبح الدكتورة روان سيدة المستقبل، تلك التي ستعيد ترتيب العالم بأسره؟ أم أنها، كما كان يعتقد في البداية، مجرد زلزال عابر لن يلبث أن يتلاشى مع مرور الوقت؟

ربما، فقط ربما، كانت هذه اللحظة هي الفرصة الوحيدة لفتح صفحة جديدة، صفحة لا تحمل فيها آثار الماضي الثقيل، بل صفحة بيضاء تنتظر أن تملأها الأفقار.

لم تكن كلماته مجرد جمل تُقال وتُنسى، بل كانت أشبه بسياطٍ تجلد صمت القاعة، ترسم ملامح المعركة التي بدأت قبل أن تخطُ الدكتورة روان خطواتها الأولى في هذه القرية. كان كل حرف يخرج من فمه وكأنما يحمل وزن التاريخ بأسره، يصرخ في وجه الحاضر، يصرخ في وجه كل من يجروء على تحدي ما آمن به هذا الرجل طيلة عقود. كانت تلك الكلمات تتسلل بين الحضور، تتغلغل في أعماقهم كما سمَّ بطيء، كل منها يزرع بذور شكوك جديدة، يدفعهم للتساؤل: هل حقاً نحن على الطريق الصحيح؟ هل من الحق أن نتمسك بما اعتدنا عليه؟ أم أن التغيير، الذي طالما خفناه، أصبح ضرورة لا مفر منها؟

عندما نطق بكلماته، كان صوته مبحوحًا، لكنه يحمل في طياته القوة الكافية لتحريك الجمود في الهواء. كان يُعيد صياغة مفاهيم كانوا يظنون أنهم قد فهموها منذ الأزل، يضع كل شيء في موضع شك، ويضع حجر الأساس لصراع لا يبدو له نهاية واضحة. كل كلمة كانت بمثابة طلقة نارية تُطلق على الحاضر، تُشكك في المستقبل، وتدعو الجميع إلى العودة إلى الماضي بأبعاده الغامضة، تلك التي كان يعتقد أنها كانت آمنة، مستدامة.

القاعة التي كانت قد امتلأت بالهمسات والتأملات أصبحت فجأة ساحة معركة خفية، حيث تلتقي الأعين بحذر، وتحاول كل واحدة منها تحليل ما سمعته، كل واحدة منهم يحاول أن يبرر موقفه، ليقول في نفسه: هل أنا مع هذا الرجل، الذي يشدنا نحو الجذور، أم أنني مع هذا الوجه الجديد الذي يحمل الأمل لكن قد يرافقه الخراب؟ كانت تلك الكلمات هي النقطة التي يبدأ فيها انقسام القرية إلى معسكرين متناحرين.

كلما نطق بكلمة جديدة، كانت تزداد الحيرة في عيون الحضور، ويزداد الضغط في صدر الدكتور عبد الرحمن. كان يعلم أن الدكتور روان لم تكن مجرد وجه جديد جاء ليقرب الموازين، بل كانت تمثل كل شيء لم يستطع هذا الجيل التقدم إليه بعد، كل ما يخشاه. كان يراها تهديدًا، ليس فقط لمهنته، بل لنظام الحياة الذي طالما كان في طياته توازنٌ هش، يراه هو الوحيد القادر على الحفاظ عليه.

في تلك اللحظة، بدأ يشعر بالرهبة من ما قد تحمله الأيام القادمة. كلمات هذا الرجل كانت تطعن في قلبه، تجعله يتساءل إن كان فعلاً على صواب في مقاومته لهذا التغيير، أم أن مقاومته كانت محاولة يائسة للحفاظ على ما تبقى من عقيدته القديمة؟ كان في عينيه شعور بالوحدة، وكأنما أدرك فجأة أن المعركة التي بدأها منذ سنوات قد تتخذ منعطفاً لم يكن مستعداً له، حيث قد يجد نفسه في الطرف الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه بعد الآن.

وها هي الدكتورة روان تقف في الزاوية الأخرى من القاعة، صامته، تنصت لكل كلمة تُلقى على الحضور، ولكن عيونها لم تكن تخفي شيئاً. كانت تراقب، تراقب الرجل الذي كان يظن نفسه الحاكم الوحيد لهذه القرية الصغيرة، وفي أعماقها، كانت تعرف أن هذه المعركة ستكون مختلفة تماماً عن أي معركة خاضها من قبل. ولم تكن تعلم بعد أن الكلمات التي رُمي بها في وجهها لم تكن سوى بداية لحرب أكبر بكثير، حرب ستكشف كل الأسرار المدفونة في قلب هذه الأرض.

وقف الدكتور عبد الرحمن هناك، شامخاً كجبل اعتاد أن يكون هو الحامي والمرجع، يتحدث بثقة العالم الذي لا يُشكك في معرفته، وبنبرة رجل يعرف أن كلماته تحمل وزناً لا يُستهان به. كان محاطاً بالهواء الثقيل الذي حمل معه سنوات طويلة من الخبرة والمعرفة التي تراكت في أعماق قلبه. كل خطوة كان يخطوها، وكل كلمة كان ينطق بها، كانت كأنها أصداء لزمان قديم، حيث كان هو الوحيد الذي يستطيع رسم حدود الحقائق والأوهام. «الناس هنا لا يثقون إلا بما يعرفونه،

ولن يأتمنوا على حياتهم طيبة لم تعش بينهم»، قالها بصوت ثابت، لكن في عمقه كان هناك شيء آخر... تحذير؟ تهديد؟ أم مجرد حقيقة أراد أن يلقيها في طريقها مثل حجر يعترض سيرها؟

الكلمات خرجت منه كرصاصات من بندقية قديمة، باردة ودقيقة، ولكن ما لم يُسمع كان الأثر الذي تركته في أذني الحضور. لم تكن تلك مجرد نصيحة، بل كانت جدارًا صلبًا أمام الدكتوراة روان، تهدف إلى كسر جناحيها قبل أن تطير. كان وجهه عابسًا، مشدودًا كأنما يتحدى الفكرة نفسها أن تقتحم عالمه، عالمه الذي سهر على بنائه وتطويره لعقود طويلة. ولكن رغم برودة الكلمات، كانت هناك شرارة تنم عن شيء أعمق.

الحقيقة التي لم تُقال كانت أن عبد الرحمن لم يكن مجرد رجل مسن يحمل أوزار الماضي، بل كان أيضًا شخصًا يعاني في صمت من فقدان سلطته في قرية كانت في يوم من الأيام، ملكه. كان يشعر بأن الدكتوراة روان، بحضورها الجديد والمختلف، تشكل تهديدًا ليس فقط لمهنته، ولكن لأسطورة كان قد بناها حول نفسه. كان يشاهد تلك الشابة، التي لم تعرف عن القرية سوى ما قرأته في كتب الطب، وكأنها تحمل معها عاصفة ستقتلع جذوره العميقة.

وبينما كانت عيون الحضور تراقب كل حركة، كانت تلك الكلمات بمثابة إشارة لبداية معركة غير مرئية، معركة تبدأ في صمت وتنفجر في لحظة واحدة. عبد الرحمن كان يعلم أن الدكتوراة روان، رغم تفوقها العلمي، قد تفتقر إلى شيء أساسي لا يستطيع العلم تفسيره. كان

يعلم أن المعرفة الحقيقية لا تأتي من الكتب أو من المختبرات، بل من الوجوه التي تنظر إليك كل صباح، ومن الأصوات التي تعلو مع الرياح، ومن العيون التي ترى فيك أكثر من مجرد شخص غريب، بل ترى فيك تهديدًا لما كانت عليه حياتهم طوال الأجيال.

بينما كانت الدكتورة روان تقف هناك، تتحمل عبء الكلمات الثقيلة، كانت تشعر بشيء آخر يتسلل إلى قلبها، شعور ليس بالتحذير أو التهديد، بل بشيء أشد: شعور بالشك. هل كان عبد الرحمن مجرد رجل عجوز يخاف من التغيير؟ أم كان يعرف شيئًا عميقًا لا تعرفه هي بعد؟ هل كان قادرًا شيئًا في القرية يتجاوز العلم والممارسة؟ سؤال واحد فقط ظل يطن في ذهنها مع كل كلمة خرجت من فمه: هل تستطيع أن تظل وفية لعلمها الجديد وتواجه هذا الحاجز القوي، أم ستضطر للاعتراف بأن هناك شيئًا ما في هذه الأرض، في هذه القرية، يفوق قدرات كل شهادات الطب التي تحملها؟

لكن الدكتورة روان لم تكن من النوع الذي يتراجع أمام الحواجز. كانت كلماته مثل رياح عاتية، تحمل في طياتها بذور الشك والتردد، ولكنها لم تكن كافية لإطفاء جذوة التحدي التي اشتعلت في قلبها. على العكس، كانت تلك الكلمات كأنها زادت من اشتعال النار في أعماقها، فجعلتها تشعر بشيء غريب، نوع من الإصرار لم تعهده في نفسها من قبل. كانت تشعر كما لو أن شيئًا ما في تلك اللحظة، في تلك القرية الغريبة التي تحتجز أسرارًا قديمة بين جدرانها، قد استفاق في داخلها.

النبرة التي نطق بها الدكتور عبد الرحمن، ذلك الصوت المملوء بالحكمة التي لا تقبل الجدل، جعلها تدرك فجأة أن الأمر ليس مجرد عدم ثقة أو خوف من المجهول. كان هناك شيء أكثر عمقاً، أكثر غموضاً. كان الصوت الذي خرج منه، الذي طالما حكم هذه الأرض لعقود، يحمل بين طياته تمسكاً بعهد قديم، بزمٍ كانت فيه كلماته هي الوحيدة التي يُلْتَفَت إليها، حين كان يُنظر إليه كحاكم غير مُتنازع عليه لهذه القرية.

كان ذلك الصوت ليس مجرد اعتراض على حضورها، بل كان إعلاناً ضمنياً عن رغبة عميقة في الحفاظ على سلطة لا يمكن المساس بها، على حكمٍ من نوعٍ آخر، حكم قائم على المعرفة التقليدية التي انتقلت من جيل إلى جيل، والتي كان هو حارسها الأمين. كان في نبرته تحدٍ خفي، نوعاً من الاستفزاز، كأنه يقول لها: «هل تظنين أنك تستطيعين التفوق عليّ؟ هل تظنين أن شهادتك يمكنها أن تغير شيئاً في هذا المكان؟»

أغمضت الدكتورة روان عينيها للحظة، محاولَةً أن تأخذ نفساً عميقاً، تحاول أن توازن بين إعجابها الساكن في قلبها تجاه هذه الحكمة التي اكتسبها عبد الرحمن عبر السنين وبين الإصرار الذي بدأ يتشكل في داخلها، إصرار على أن لا تكون مجرد ضيف عابر في هذه القرية، بل أن تكون جزءاً من معركة حقيقية.

كانت تعلم أن النضال هنا ليس فقط من أجل تغيير طريقة العلاج أو إدخال أساليب طبية حديثة، بل كان عن أكثر من ذلك بكثير. كان عن

تحدي سلطة قديمة، عن فتح باب لم يكن أحد يجرؤ على فتحه من قبل. كان عن اكتشاف ذلك الشيء المجهول، الذي يختبئ وراء أسوار هذه القرية، والذي ربما لا يستطيع العلم الحديث تفسيره.

ولكن في نفس الوقت، كانت تشعر بتردد يمر في قلبها. هل هي مستعدة للمضي قدمًا في هذا التحدي؟ هل تستطيع أن تكسر جدار هذه السلطة التي لا تعرف الرحمة؟ هل يمكنها أن تفتح أبوابًا ربما تظل مغلقة إلى الأبد إذا قررت أن تتجاوز حدود ما هو مألوف؟

لكل خطوة كانت تخطوها في هذا المكان، كان يزداد في قلبها يقينٌ بأن هذا التحدي ليس مجرد صراع مع عبد الرحمن، أو حتى مع تقاليد القرية، بل هو صراع مع نفسها، مع حدودها الخاصة، مع الخوف الذي طالما قيدها. في أعماقها، بدأت تتشكل قناعة جديدة: ربما كان كل هذا مجرد بداية لأشياء أكبر وأعظم، وصرخة داخلية قالت لها: «الآن، قد حان وقت التغيير.»

كانت كلماته إعلانًا لحربٍ صامتة، معركة لن تُخاض بالأسلحة، بل بالصبر، بالإصرار، وبالقدرة على إثبات أن التغيير ليس دائمًا عدوًا. كان عبد الرحمن، ذلك الرجل الذي أمضى عمره يزرع بذور القديم في كل زاوية من زوايا القرية، يراها كتهديد مباشر ليس فقط لسلطته الطبية، بل لمعتقداتٍ راسخة في قلبه، لمفاهيم استمرت في النمو معه عبر سنوات. كان يتحدث وكأن التغيير شيء غريب، مقلق، معادٍ لما هو ثابت وآمن. وبينما كان يوجه كلماته نحوها، شعرت روان بأنها لم تكن مجرد كلمات، بل كانت تهديدات متخفية، رسائل مُشفرة تدعوها

للتراجع، كي لا تنقُص على حجر الأساس الذي ارتكزت عليه قرية
بأكملها.

لكنها لم تكن لتراجع. في أعماقها، كان هناك صوتٌ خفي
يقول لها: «هذا ليس مجرد اختبار لعزيمتك، بل هو اختبار لروحك.
ستخوضين معركة قد تظنين أنها صراع مع عبد الرحمن، لكن الحقيقة
هي أنك ستواجهين نفسك أولاً.» كانت كلماته تصدح في ذهنها، تثير
الاضطراب، لكنه في نفس الوقت كان يمدّها بقوةٍ غير مسبقة. كانت
المعركة أعمق مما أدركت، معركة بين ما كان يُعتقد أنه صحيح وما
يمكن أن يُعتبر منتهى الجهل. كيف يمكن لقريته التي عاشت في رتبة
السنوات أن تقبل بتغيير قادم من بعيد؟ وكيف يمكنها هي، وهي القادمة
من عالم مليء بالتكنولوجيا الحديثة والعلوم الدقيقة، أن تبرهن على أن
ما تعلمته في كتبها يمكن أن يساهم في تخفيف الألم، ليس فقط من خلال
الأدوية بل من خلال المنهجية العلمية التي كانت تظنها أمراً مسلماً به؟
كانت تشعر بثقل التحدي، كأنها تواجه جبلاً لا يستطيع أحد تحريكه
بسهولة. لكن الجبل، الذي بدا صامداً في وجه الرياح، بدأ يظهر شقوقاً
دقيقة في صموده. ربما لم يكن كل شيء ثابتاً كما كان يظن. وربما كان
الوقت قد حان لفهم أن التغيير ليس دماراً، بل هو عملية، خطوة خطوة،
كالماء الذي يتسلل عبر الصخور ليشق طريقه.

كانت روان تعلم في أعماقها أن المعركة ليست صراعاً بسيطاً حول
من يمتلك المعرفة الأصديق أو الأكثر صحة. كانت هذه حرباً ضد
الخوف من المجهول. ضد المقاومة النفسية التي نشأت عبر الأجيال.

كان عبد الرحمن، في صمته وثباته، يمثل الماضي بكل ثقله، بينما كانت هي تمثل المستقبل الذي قد يكون أكثر تعقيداً، وأكثر وحشية في بعض جوانبه، ولكن أيضاً أكثر وعداً بالشفاء.

وقفت في تلك اللحظة، وهي تستنشق الهواء الثقيل الذي ملأ المساء. الليل الذي كان يهبّ بهدوء ليغطي القرية بظلامه، كان يحمل معه شبحاً من الصمت الثقيل، صمت أبدعته أجيال متعاقبة من القبول بالأقدار. ولكنها، في تلك اللحظة، كانت تشعر أن الهواء حولها يحمل شيئاً آخر. كانت هناك بداية شيءٍ جديد، شيء كان عليها أن تصارعه وتحتويه في الوقت ذاته. لم يكن الانتظار خياراً، بل كان الضرورة الوحيدة. لم يكن التغيير مجرد فكرة مجردة، بل كان واقعاً ينبغي أن تُختبر قدرته على التسلل إلى قلب كل حجر في هذه القرية.

مضت قدماً، رغم المخاوف التي كانت تتسلل إلى قلبها، ورغم الأصوات التي كانت تحاول أن تخترق ذهنها. كانت تعرف أن الطريق أمامها لن يكون مفروشاً بالزهور، بل ستكون مليئةً بالحفر، بالأشواك، وبالظلال التي لن تتركها أبداً. لكن في قلب هذه الظلال، كانت ترى بريقاً صغيراً من الأمل. بريقاً يكبر مع كل خطوة، مع كل لحظة تمر، لتكشف أمامها الحقيقة المرة: أن التغيير لا يُمكن فرضه بالقوة، بل يجب أن يُسمح له بالنمو ببطء، كزهرة صغيرة تشق طريقها عبر الأرض الصلبة.

نظرت إليه بثبات، وعينها لا ترفّ ولا تهتزّ. كان الهدوء الذي يحيط بها مثل ساحة معركة مهياة للتصعيد، لكن عينيها لم تكشف عن شيء

سوى التأمل العميق. لم تقل شيئاً. لم يكن الوقت وقت جدال، ولا كان من الحكمة أن ترد التحدي بتحدٍّ صريح. فحتى وهي تواجهه بنظرها القوية، كانت تدرك في أعماقها أن الحرب الحقيقية لن تكون في هذه القاعة المظلمة، المليئة بكلمات لا تحمل إلا وعوداً فارغة. الحرب كانت هناك، خارج هذه الجدران، حيث الأزقة الضيقة التي تحيط بالقرية، والمنازل التي تسكنها الأرواح القديمة التي لم تعرف سوى الثبات والتقاليد. هناك، حيث سيتجمع القلق في كل زاوية، ويختبئ الخوف في كل نافذة مفتوحة. كانت الحرب الحقيقية في تلك العيون التي ستراقبها بترقب، متربصة، منتظرة أن تسقط في أول اختبار.

في تلك اللحظات، أدركت أن صراعها ليس مع عبد الرحمن فقط. ليس مع الكلمات التي قالها، ولا مع سلطته التي يبدو أنها لا تقبل التنازل. الصراع كان أعمق من ذلك، وكان يلتف حول قلبها كحصار تدريجي. كانت تعرف أن هناك من يراقب، من يتربص أدنى هفوة. أول خطوة خاطئة. أول لحن غير متناغم بين ما تؤمن به وما ينتظرونه منها. في تلك اللحظة، كان كل شيء يمكن أن يكون قيد المراقبة: كيف ستتعامل مع هذا المجتمع الغارق في خوفه من التغيير؟ كيف سترد على تلك العيون التي تقتفي كل حركة، تراقب كل كلمة تخرج من فمها، تترقب أي تهوّر صغير يمكن أن يشير إلى ضعف؟ كانت تلك العيون كالشبكات الخفية التي تلتقط أي شعور غير مألوف، أي شق في درع يقينها الذي بنته طوال حياتها المهنية.

وهناك، في البيوت التي كانت تخشى التغيير أكثر من أي شيء آخر، كانت تلمس فزعاً غير مبرر في النفوس. كانت تدرك أن أصغر تراجع منها يمكن أن يُستخدم سلاحاً ضدها. وإذا كان هناك شيء واحد لا يغفره هذا المجتمع، فهو الضعف. لم يكن مجرد اختبار طبيبات جديدات؛ كانت مسألة بقاء، أو بالأحرى، مسألة هوية. لم تكن روان غريبة فقط في هذه القرية، بل كانت فكرة جديدة تُختبر. وكانت تعرف أن الخوف من التغيير لن يموت بين ليلة وضحاها، وأن قوتها ستكون على المحك، وأن القدرة على إقناع هؤلاء الناس بمصداقيتها ستعتمد على التفاصيل، على كل نظرة، على كل ابتسامة، على كل قرار.

كانت تتنفس بعمق، وتحاول أن تحكم سيطرتها على قلبها الذي كان ينبض بسرعة أكبر من المعتاد. لم يكن بإمكانها أن تُظهر تردداً، ولو للحظة واحدة. يجب أن تبقى ثابتة. يجب أن تكون هي القوة، هي المثال الذي يمكنهم أن يروا فيه سبباً يدفعهم للثقة بما تقدمه. ولكن حتى في تلك اللحظات، كانت هناك أصوات في رأسها، كأنها تهمس بحذر: هل تستطيعين فعل ذلك؟ هل يمكن لشخص غريب، لا ينتمي لهذه الأرض، أن يُغيّر ما ترسّخ في الأجيال؟ لكنها جاهدت كي تبقى هذه الأصوات محاصرة، وأطلقتها لتغرق في صمت عميق. الصمت الذي يسبق العاصفة.

كانت عيون عبد الرحمن تلاحق كل حركة لها، وكل تفكير يبدو عابراً في ذهنها. وعندما أخيراً وجدت نفسها وحيدة في ذلك المكان، بعد أن خرج الجميع، شعرت بثقل المعركة التي تنتظرها. لم تكن هذه

المعركة حربًا عسكرية ولا حربًا كلامية؛ كانت حربًا على القيم. على المعتقدات. على طريقة الحياة نفسها. وبقدر ما كانت تعرفه عن الطب، كانت تدرك أن الشيء الوحيد الذي لن يُعالج أبدًا هو القلوب التي لا تريد أن تتغير.

كان هناك نوع من النضج في هذا التحدي. مثل زهرة تنمو في مكان بعيد، تتحدى الظروف لتشق طريقها نحو الشمس، رغم الرياح العاتية، ورغم الحجارة التي قد تُلقى في طريقها. ولكن، مثل الزهور، كانت روان تعلم أن لكل نضوج ثمنًا. وكان عليها أن تدفع هذا الثمن لتثبت أنها ليست مجرد شبح في قريتهم القديمة، بل تغيير يجب أن يُحتسب.

لكن في النهاية، كانت تعلم يقينًا أن المعركة ليست فقط مع عبد الرحمن، ولا مع أهل القرية الذين لا يريدون القبول بالآخر، بالذي يختلف عنهم. المعركة الحقيقية كانت داخلها، بين ما تظنه ممكنًا وبين ما تراه العيون الأخرى مستحيلًا. وبين الأمل بأن تترك أثرًا، وبين الخوف من أن تُدفن تلك الآمال قبل أن تُعطى الفرصة للنجاح.

لكنها لم تكن مستعدة للخسارة. لم تترك خلفها كل شيء، ولم تقطع المسافات الطويلة بين المدن، لتصل إلى هذه القرية النائية، ثم تقف الآن، على عتبة التحدي الأكبر في حياتها، وتقبل بأن يُنظر إليها كدخيلة، كتهديد. كانت تعلم جيدًا أن ما تفعله ليس مجرد قرار مهني، بل هو أكثر من ذلك بكثير. كانت هذه معركتها الكبرى، المعركة التي لا تقتصر على الأطباء، ولا على السكان المحليين فقط. إنها معركة في قلبها، معركة بين ما تريد أن تكونه وما يتوقعه منها الجميع.

لطالما كانت تؤمن أن الإنسان لا يُقاس بعدد السنين التي قضاها في مكانٍ ما، بل بحجم الأثر الذي يتركه، ولا يمكن للأيام أن تكون شاهدة على ذلك الأثر، بل الأفعال، والتغيير الذي يحدث في النفوس، في العقول، وفي المجتمع. وهذه القرية، على الرغم من عزلة أهلها، كانت بحاجة إلى هذا التغيير، إلى من يُعيد تشكيل مفاهيمهم عن الحياة والصحة، لتصبح أكثر انفتاحًا، وأكثر توازنًا بين الحكمة القديمة والعلم الحديث. لكن هذا الطريق لم يكن مفروشًا بالورود. بل كان مليئًا بالأشواك، والقيود التي كانت لا تزال تلتف حول كل فكرة جديدة، كل خطوة غير مألوفة.

كان يعلم الجميع في القرية أن عبد الرحمن كان هو الجسر بين الماضي والحاضر، بين الشفاء بالعشب وبين الشفاء بالعلم. ولهذا، كان من الصعب على هؤلاء الناس أن يتصوروا أن امرأة غريبة ستأتي لتخوض حربًا ضد هذا التراث العريق. لكن، كلما فكرت أكثر في تحدياتها القادمة، كلما تعمقت في شعورها بأن المراهنة على الماضي فقط لن تكون كافية. فكلما تعمقت في تلك الزوايا المظلمة من عقول أهل القرية، كانت تكتشف أن المقاومة التي تواجهها ليست فقط على مستوى الأطباء أو المسؤولين، بل في العقول نفسها.

كانت كل خطوة تخطوها نحوهم هي بمثابة اختبار لجدار العادات القديمة التي لم يكن من السهل تحطيمها. وكان عبد الرحمن، بكلماته، وكبريائه، هو أول جدار يتعين عليها كسره. كان يحاول، عن غير قصد، أن يزرع الشك في قلبها. كان يوجه ضربات ناعمة، مُغلّفة

بالخبرة والقدرة على قراءة الناس، يراقبها بعين الرجل الذي لا يُخطئ، ويستشعر كل حركة، كل كلمة. في أعماقه كان يعلم أنه إذا هزّت هذه الشابة عنادَ أهل القرية، فسيكون لها التأثير الأعظم، ليس فقط على حياة الناس، ولكن على تقاليدها.

لكنها كانت تعرف أنه ليس كل من يواجهها هو خصم يمكن أن يُهزم بسهولة. كان عبد الرحمن ليس مجرد شخص قديم يحمل الحكمة. كان يمثل كل ما في القرية من ربط متين بالجذور، بكل ما هو معروف وثابت. كانت مواجهته تعني أكثر من مجرد تحدي طيب آخر، بل تعني تحدي قوى مترسخة في أعماق هذا المجتمع. ومع ذلك، كانت روان تؤمن أن التغيير لا يأتي بسهولة، وأنه في بعض الأحيان، يجب أن تكون على استعداد لدفع الثمن الأكبر لتثبت أن الأمل في التغيير ليس مجرد سراب.

لكن، كما تعلمت في كل تلك السنوات من دراستها، فإن التغيير لا يحدث من دون جرح. هناك دائمًا مقاومة، دائمًا خوف من فقدان الهوية، لكن في عمق هذا الخوف يكمن الأمل. كانت تعرف أن الطريق طويل، وأنها ستواجه لحظات من الشك، لكن كل خطوة، كل محادثة، كل علاج ستحققه هنا، سيكون خطوة نحو تحقيق هدف أكبر. كان عليها أن تزرع في قلوب هؤلاء الناس بذور الأمل، وأن تفتح لهم أبوابًا لم يكونوا يتخيلونها من قبل. وهذا، على الرغم من الصعوبات، كان ما يدفعها للثبات.

كانت على يقين من أن ما تفعله في هذه القرية لا يتعلق فقط بتحسين العلاجات أو تقديم بدائل علمية، بل هو تغيير في فكر الناس أنفسهم. كانت تريد أن تبرهن لهم أن المعرفة لا تأتي من مكان واحد، ولا تُقاس بمكان واحد. وأن التغيير ليس بالضرورة تهديداً، بل هو تطور. أن الشجاعة لا تعني عدم الخوف، بل المواجهة رغم الخوف. كانت تعلم أن العيون التي تراقبها لن تتركها تنفس بسهولة، لكنها كانت مستعدة للمخاطرة بكل شيء من أجل أن تثبت لهم أنه في النهاية، الأثر الذي تتركه هو ما سيظل.

كانت تعرف في أعماقها أن الطريق أمامها ليس طريقاً يسير فيه الجميع، ولكنه الطريق الذي اختارته، الطريق الذي ستصنع فيه واقعاً جديداً للأجيال القادمة. كانت تُثبت لنفسها أولاً، ثم للآخرين، أن الإنسانية ليست مجرد تقاليد ولا تجارب قديمة، بل هي القوة التي تجعلنا نستمر في الماضي قدماً، مهما كان الثمن.

وكانت على يقين أن أثرها سيكون أعمق مما يتخيله الدكتور عبد الرحمن. كانت تشعر به في كل نبضة قلب، في كل نفس يتردد في صدرها، في كل خطوة تخطوها على هذه الأرض التي لم تكتشفها بعد. كانت تعلم، في أعماقها، أن ما ستفعله هنا سيكون أكثر من مجرد تغيير في أساليب العلاج أو التدابير الطبية. كان هذا تحدياً أكبر، تحدياً للمفاهيم، للثقافة، وحتى للزمان نفسه. كانت تعلم أن ما تفعله سيترك بصمة في أرواح أهل هذه القرية، في طرقهم في الحياة، في طريقة تفكيرهم، بل في آمالهم وأحلامهم.

لكن لم يكن هذا الأمر سهلاً. لم يكن مجرد دخولها إلى هذه القرية مرهوناً بالحكمة التي تحملها، بل كان مشروطاً بالكثير من المعارك النفسية، الاجتماعية، وحتى الثقافية. لقد دخلت على أرض مليئة بالتقاليد العريقة، حيث كان كل شيء قديماً متجذراً في الأعماق، متشابكاً مع الماضي، وفي قلب هذا التقاليد كان هناك شخص واحد فقط يعتقد أنه لا شيء يمكن أن يتغير. الدكتور عبد الرحمن. وهو الرجل الذي بدا وكأنه الحارس الأمين لعقيدة مضى عليها الزمن.

كانت كلماته، التي ألقى عليها بتلك الثقة العميقة، هي بداية القصة التي لم تُكتب نهايتها بعد. كان يعتقد أن أسلوبه، تلك الخبرة الطويلة التي اكتسبها عبر السنين، ستظل هي الحاسمة، كما لو أن أجيالاً من المعرفة التي احتفظ بها بين يديه يمكن أن تبقى ثابتة. كان يظن أن تلك الكلمات التي أطلقها مثل سهامٍ مسمومة، قادرة على أن تُعطل أي محاولة للتغيير. لكن روان لم تكن من النوع الذي ينسحب أمام الخوف أو التحدي. كانت كلمات عبد الرحمن بمثابة المحفز الذي تحتاجه، ليست للخوف أو الانسحاب، بل للاستمرار والتمسك بما تؤمن به أكثر من أي وقت مضى.

شعرت وكأنها أُحرقت بنار تحديه، وكأن نيرانه تحترق في روحها، تذيب كل شك، وتولد فيها قوة جديدة. كان يتصور أن تغييراً من هذا النوع سيكون شبحاً، تهديداً لمكانته. لكن بالنسبة لها، لم تكن هذه حرباً على شخصه أو على سلطته، بل على المفاهيم التي أحاط بها هذا المكان. كانت الحرب الحقيقية تكمن في ذلك الصراع الداخلي، في

مواجهة التقاليد الراسخة والخيارات التي جعلت منها امرأة غريبة عن هذه الأرض.

لكن لم تكن روان راغبة في الانتصار في معركة من نوع آخر، معركة تقليدية. كانت تعلم أن ما تحتاجه هذه القرية هو أكثر من مجرد تغيير في أساليب العلاج. كان كل شيء مرتبطًا بالعقل الباطن للمجتمع. تغيير المفاهيم يعني أيضًا إعادة صياغة الطريقة التي ينظر بها الناس إلى الحياة، إلى الطب، وإلى أنفسهم. كانت تعلم أن هذه القصة، التي بدأت مع أول كلمة نطقها عبد الرحمن، لن تكون سهلة. ولكن مع كل كلمة، مع كل تحدي، ستزداد قوتها أكثر. ستغدو قصة لم تُكتب نهايتها بعد، ولا بد من أن تأتي النهاية بمعنى مختلف، بنظرة مختلفة، ربما حتى بعالم مختلف.

كانت مستعدة للقتال من أجل إيمانها، ولم يكن هناك أي شيء، حتى كلمات عبد الرحمن، يمكن أن يقف في طريق هذه الرحلة التي اختارتها.

لكنّ الدكتورّة روان لم تكن ورقةً في مهبّ رياح القرية... بل كانت شرارةً تشتعل في قلب الظلام، قادرة على إشعال النار حتى تحت المطر الغزير. كانت عيناها البنيتان، اللتان اعتادتتا على مواجهة الموت في عُرف الطوائى المكتظة بالمرضى والأئبن، لا ترفضان أن تلاحظا التحديقات السوداء التي تتبعها كظلالٍ، تلتصق بكل خطوة تخطوها على هذه الأرض الغريبة. لم تكن تلك العيون مجرد نظرات فضولية أو

سخرية خفية؛ بل كانت تحمل شيئاً مظلماً، شيئاً مخيفاً، كما لو كانت تحاول أن تلتهمها حية، تمتص كل أمل في التغيير قبل أن يولد.

ولكنها لم تُرهَب. كانت تعرف كيف ينقُصُ الوقت على القلب في اللحظات الأكثر ظلمة، وكيف يفرض الذعر نفسه على كل فكرة، ولكنها كانت عازمة على مواجهة هذا الرعب، ليس كطبيبة فقط، بل كمستكشفة، كمن تحارب في أرض مجهولة، مليئة بالأسرار المخبأة في الظلال. شعرت بعبء هذه الأرض، بوزنها الثقيل على كاهلها، كأن كل حجر وكل شجرة في هذه القرية يعبر عن ذاكرة عتيقة، ذاكرة لم تجد من يجروء على فتحها بعد.

قرّرت أن تخترق جدار الصمت بفأس الإصرار، متحدىً به القوى التي تعتقد أن التغيير خيانة. لم تكن تعرف كل تفاصيل هذه القرية، لكنها كانت متأكدة من شيء واحد: لن تترك نفسها لتكون مجرد عابر في هذا المكان. كان لديها رؤيتها الخاصة، تلك الرؤية التي نشأت على أساسها فلسفتها في الطب، لكنّ ما يحيط بها الآن لم يكن مجرد حالة مرضية تحتاج إلى علاج. كان هذا تحدياً أعمق بكثير، معركة ضد أعراف راسخة، وصراع ضد ذاكرة جماعية لا تزال تعيش في العصور القديمة.

أرادت أن تكون أكثر من مجرد طبيبة تأتي وتذهب، أكثر من مجرد شخص يُعالج المرضى على الورق ثم يغادر. أرادت أن تُحدث تغييراً حقيقياً في نفوس هؤلاء الناس، أن تزرع فيهم بصيصاً من الأمل في عالم

مليء بالشكوك. كان ذلك يتطلب منها أكثر من مجرد استشارة طبية؛ كان يتطلب منها أن تكون هي نفسها التغيير، أن تعيد تعريف ما يعنيه «الشفاء» على هذه الأرض.

كانت مستعدة لكسر كل قواعدها القديمة. لم يكن الطريق أمامها مفروشا بالورود، بل كان مليئا بالأشواك، بالظلال التي تراقبها. لكنها كانت تعلم في أعماق قلبها أن كل خطوة تخطوها على هذه الأرض ستقودها إلى ما هو أكبر من مجرد تشخيص وعلاج. كانت تسير في متاهة مظلمة، وفي كل زاوية كان يختبئ التحدي، ومع ذلك، كان شعاع الأمل يشق طريقه من قلبها إلى السماء، حاملا شعلة العزيمة التي لن تنطفئ أبداً.

قررت أن تصبح أكثر من مجرد «طبيبة» في هذه القرية... أرادت أن تكون أملاً يسطع في غياهب الظلام، وأن تكتب قصة تغيير لا يعرف أحد كيف ستنتهي، ولكنها كانت تعرف يقيناً أن النهاية لن تكون كما بدأتها.

بدأت بخطوة جريئة، خطوة لم تكن لشبه أي بداية أخرى في حياتها. كان الصباح لا يزال في مهده، والهواء مشبعًا برائحة الندى، لكنها كانت قد قررت أن تبدأ قبل الفجر، وهي عازمة على جعل تلك العيادة الصغيرة التي افتتحتها بمثابة علامة فارقة في حياة هذه القرية التي جثمت فيها عقود من السكون. أضواء مصباحاً أخضر ضخماً كان يشع ضوءاً شبيهاً بـ«عُرف الحرب»، مستعدة لاستقبال أي مريض، بغض النظر عن الثمن، أو ربما بلا مقابل. كانت تعلم أن الطريق الذي

اختارته لن يكون سهلاً، ولكنها كانت على استعداد لملاقاة التحديات وجهاً لوجه. لم يكن هذا مجرد مكان للشفاء الجسدي، بل كان نقطة تحول لشيء أعمق، شيء يتعلق بقلوب الناس وأرواحهم المتعبة.

في اليوم الأول، كان الصمت في العيادة يصرخ بصوتٍ غير مسموع، يرافقه شعور غريب من الترقب. لكنه لم يدم طويلاً. في اللحظة التي كانت تعتقد أن اليوم سيمر هادئاً كأي يوم آخر، سمع صوتاً غير متوقع. دقات متناقلة على الباب، وكأنها جلبت معها عبء الزمان. وعندما فتحت، وقفت أمامها صورة غريبة: عجوزٌ أعورٌ يحملُ قربة ماءٍ بالية، قربةٌ كانت تُشبه جلد الأفعى في تجاعيدها المتشابكة. كانت قد بدت له كأحد تلك الكائنات التي لا تجذب الأنظار، لكن عينيه... عينيه كانت تفيضان بقصة لم تُحكى بعد.

«أشعرُ أن شيئاً يتحرك في أحشائي...» همس بصوتٍ خافتٍ يكاد يكون صرخة مكتومة، كأنه يخشى أن يوقظ شيئاً مظلماً في الهواء. كان وجهه شاحباً، وعيناه مليئتين بالحيرة، بينما كانت يده ترفرفان في الهواء بشكل غير متوقع، ترسمان علاماتٍ غريبة كأنما يخطّان حروفاً قديمة من لغة لا يعرفها أحد. لم يكن حديثه واضحاً، لكن كل كلمة خرجت من بين شفثيه كانت تحمل بداخلها طاقة من القلق والخوف، كأنما العالم من حوله بدأ يتحول بشكلٍ غير طبيعي.

«القرية... تلدُ كائناتاً من لحمي!» تردد صوته في أرجاء الغرفة، مليئاً بالتوجس. كان يشير إلى مكانٍ ما في صدره، وكأن الألم الذي يشعر به أكبر من مجرد مرض. كان الأمر أكبر من ذلك بكثير. كان ذلك الكائن

الذي تحدث عنه، الذي يتحرك في أحشائه، ربما كان رمزاً للوحش الخفي الذي يهدد هذه الأرض بأسرها، أو ربما كان هو نفسه، قلقه العميق.

لكن الدكتورة روان لم تُظهر أي تردد. نظرت إليه بعينين هادئتين، لكنها داخلياً كانت تشعر بذلك الشك الذي بدأ يتسرب إلى قلبها. ما الذي كان يحاول هذا الرجل أن يقوله لها؟ كانت تلك الكلمات تحمل في طياتها شيئاً غريباً، كانت تحكي عن ألم لم تفهمه تماماً بعد، وعن قلق لا يبدو أنه مجرد مرض جسدي.

ابتسمت بلطف، محاولة أن تخفف من حدة الموقف، لكنها كانت تعلم أن هذا الرجل ليس مجرد مريض آخر. كانت هناك قوى في هذه الأرض أكبر من أن تُفهم بسهولة، وكان هذا العجوز بمثابة مفتاح لم يقوم أحد بمحاولة فتحه قبلها. كانت هذه بداية لشيء عميق، شيئاً ربما كان جزءاً من لغز قرية لا تزال تحمل الكثير من الأسرار في أحشائها المظلمة.

في تلك اللحظة، أدركت أنه ليس المرض الذي ستعالجه هنا فقط، بل كانت روح القرية نفسها، والتي بدأت للتو تتنفس من جديد، تعبيراً عن شيء لم يكن أحد مستعداً له.

لكن التحدي الحقيقي جاء في ليلة الجمعة، تلك الليلة التي كانت تخيم فيها الظلال على القرية، حيث كانت الرياح تحمل معها همسات غامضة، وكان كل شيء يبدو ساكناً في عالم لم يكن أحد يعرف متى قد تنفجر فيه المفاجآت. كانت الدكتورة روان في العيادة وحيدة، الضوء

الأخضر الذي أضاءته في صباح اليوم الأول لا يزال يلوح كرمزٍ صغيرٍ في بحر العتمة المحيطة. وكان الصمت هو الرفيق الوحيد في تلك الساعة المتأخرة من الليل، عندما كسر فجأةً دويٌّ مفاجئٌ هذا السكون.

دَقَّاتٌ عنيفةٌ على الباب، متسارعة، وكأنها تطلب النجاة، وكأنها تحمل رسالةً من عالمٍ آخر. نظرت الدكتورة روان إلى الساعة، كانت قد تجاوزت منتصف الليل، وأصوات الدقات تملأ قلبها بالقلق والتوجس. هرعت إلى الباب لتفتح دون أن تفكر، لا تدري ما الذي ينتظرها وراءه.

وكانت المفاجأة التي جعلتها تشعر وكأن قلبها توقف عن الخفقان للحظة. امرأةٌ شابة، وجهها شاحب، وعينيها تحترقان بالدموع، تلتف حولها عباءة سوداء كأجنحة طائرٍ ضائعٍ في ظلامٍ أبدي. كانت تحمل بين يديها شيئاً صغيراً، ملفوفاً في خرقة قديمة وملطخة بالدماء. قبل أن تنطق بكلمة، كانت العيون المذعورة لهذه المرأة تخبر الدكتورة بكل شيء: كان هناك شيء رهيب يحدث، وكان الوقت ينفد بسرعة.

صرخت بألمٍ شديد، وكان صوتها ضعيفاً لكنه كان يصرخ بالحاجة إلى الإنقاذ: «أنقذيه... قبل أن يكتشفوا أمره!» كان صوتها يرن في أذنيها كصفعة قوية. ولكن ما الذي كانت تعنيه؟ من هم هؤلاء الذين يجب أن لا يكتشفوا أمر الطفل؟ ماذا كان هذا السر المخبأ في تلك اللحظات المقلقة؟

دققت الدكتورة روان النظر إلى الطفل في يديها. كان صغيراً للغاية، تنفسه ضعيف، وعيناه نصف مغلقتين كما لو كان في غيبوبة، أو ربما

كان يحتضر. لم يكن وجهه يعرف الابتسامة، بل كان مليئًا بتجاعيد الألم والتعب، وأثر الجروح كان باديًا عليه. وفي وسط صدغ الطفل، كانت هناك وشم غريب بشكل غامض، يمثل رمزًا للنخيل - مثل ذلك الموجود على جدران العيادة، النقش الذي طالما تساءلت عن معناه.

لكن الرمز على صدر الطفل كان يلمع وكأن له حياة خاصة به، كأنما يتنفس مع كل شهيقٍ وزفير، وكأن لعنةً قد حلت على هذا الطفل، أو ربما كان هو نفسه يحمل لعنة غير مرئية.

المرأة كانت تهز يدها، بعيونٍ مشوشة، مطالبةً بالإنقاذ، لكن كان واضحًا أن هذا الطفل يحمل سرًا أكبر من مجرد مرضٍ عابر. كانت الدكتورة روان تشعر بشيء غريب في الجو، كأن الزمن قد توقف، كأن الفضاء حولها قد ضاق بها، وكل خطوة تتخذها كانت تقودها إلى شيء عميق ومدهش، شيء قد يغير مجرى حياتها للأبد.

«من هو؟» سألت بصوتٍ مبحوح، عيونها تبحث في تلك المرأة الحائرة، محاولةً أن تقرأ ما وراء الكلمات التي قالتها، هل كانت تخفي شيئًا؟ هل كانت تلك الدماء التي تلتخ ملابس الطفل دليلًا على شيء أبعد من مجرد جرح عادي؟

أجابتها المرأة بصوتٍ متقطع: «إنه...» وتوقف لسانها، وكأن الكلمات قد اختنقت في حلقها. كان هناك خوف عميق في عيونها، أكثر من مجرد خوف من الموت. كان هناك شيء مروّع في الجو، شيء يجعل الهواء ثقيلًا بالرهبة، شيء لا يمكن للعقل البشري أن يستوعبه بسهولة.

كانت الدكتورة روان تعرف، في تلك اللحظة، أنها دخلت في عالم آخر. عالم مليء بالأسرار المدفونة التي ستنتفض عليها كوحشٍ مفترسٍ. ولم يعد أمامها سوى أن تتخذ قرارًا مصيريًا، فإما أن تفتح أبواب العيادة للعالم المجهول، وإما أن تبقى في أمانٍ زائف، بعيدًا عن كل ما هو غامض. ولكن ما الذي تختار؟

أثناء الفحص، كانت يديها تتقلان بحذر فوق صدر الطفل، كل حركة كانت مليئة بالترقب. كان الليل قد ارتسم بظلاله الثقيلة على العيادة، والضوء الأخضر المنبعث من المصباح الوحيد في الغرفة يكاد يلتقط التفاصيل الصغيرة في الهواء. كان الطفل في حالة إغماء شبه تامة، وصوت تنفسه الضعيف كان كأنه يأتي من عمقٍ بعيد، من مكانٍ لا يمكن الوصول إليه.

لكن شيئًا ما كان غريبًا، شيئًا كان يثير في داخلها شعورًا بالخطر، وكأن قطعةً من اللغز قد بدأت تتشكل أمام عينيها. شعرت بشيء غير طبيعي عند مرورها على منطقة القلب. لم يكن كما توقعت، فالثقب الذي اكتشفته كان صغيرًا جدًا، يكاد يكون غير مرئي للعين المجردة، لكن وجوده كان مؤكدًا. كان ثقبًا غريبًا، مؤلمًا في مظهره، وكأن شيئًا ما قد أُستخرج من داخل جسد الطفل، كأن عمليةً خفية قد تمت في غفلةٍ عن الجميع.

دقات قلبها تسارعت وهي تلمس الثقب بحذر، تحاول أن تفهم ما وراء هذا اللغز. ماذا يعني؟ ماذا يُستخرج من جسد طفلٍ صغير بهذا الشكل؟ لكن قبل أن تتمكن من طرح السؤال، كان كل شيء يتغير

فجأة. في لحظةٍ واحدة، وبينما كانت لا تزال تدقق النظر في الثقب الغريب، اختفت الأم. لا، لم تكن مجرد اختفاء عادي. اختفت كما لو أنها تبخرت في الهواء، مثل ظل ضاع في الليل، تاركةً وراءها الفراغ.

ارتبكت روان للحظة، عيناها تبحثان في الغرفة، تتابعان حركة الهواء في الزوايا، بحثاً عن أي علامة تُشير إلى وجودها. لكن ما لفت انتباهها أكثر من كل شيء كان الرائحة، رائحة زيتٍ مرٍّ، مشبعةً بنكهةٍ غريبة ومقرزة. كانت تشبه تلك التي تنبعث من البخور الأسود، البخور الذي يحرقونه في الأقبية المظلمة، حيث لا يُسمع صوت ولا يُرى نور.

كانت هذه الرائحة تلتف حولها، تنساب في الهواء مثل خيوطٍ غير مرئية، وكأنها تحمل معها قصة قديمة، قصة ظلامٍ لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها. وكأن هذا الزيت هو آخر شيء تركته الأم خلفها، آخر أثرٍ قد يكون مفتاحاً لفهم ما كان يحدث.

أغلقت الدكتورة روان عينيها للحظة، تحاول السيطرة على اندفاعات قلبها. كانت مشاعرهما مضطربة، بين اليقين بأن هناك شيئاً خفياً يدور في الخفاء، وبين الشكوك التي بدأت تتراكم حول تلك الأم، وحول كل ما كان يحدث.

كان الفحص، الذي كان يجب أن يكون أمراً روتينياً، قد تحول إلى لغزٍ معقدٍ، لغزٍ يخفي وراءه سرّاً قد لا تستطيع حتى أقوى العقول تحليله.

ما الذي كان يحدث هنا؟ ما الذي كانت تخفيه هذه الأم؟ ولماذا كانت رائحة البخور الأسود، تلك الرائحة التي لا يجرؤ أحد على

اقترابها، تلاحقها حتى في هذه اللحظة؟ أسئلة كانت تراودها كخيوط تشابك بعضها البعض، وبدأت تدريجيًا تشعر بأن الأمور ليست كما تبدو.

وفي اللحظة التي كانت تفكر فيها في كل هذه الاحتمالات، تذكرت شيئًا غريبًا: رمز النخيل الذي كان محفورًا على صدر الطفل، ذلك الرمز الذي ظهر في البداية مجرد علامة عابرة، لكنه الآن بدا وكأنه يحمل رسالة أكبر من مجرد زخرفة.

الآن، كان الصمت يلف المكان كغيمة كثيفة، كأن الهواء نفسه قد تجمد في مكانه. روان كانت تقف على حافة الهاوية، وبين يديها مفتاح لسر قد يكون أعمق مما تخيلت، أكثر خطورة مما كانت تستطيع تصوره في تلك اللحظات. القرار كان يلوح أمامها كخيال قاتم في نهاية نفق مظلم، وكل خطوة تخطوها قد تقودها إلى المجهول. كانت تعرف أنه لا مجال للعودة الآن.

إما أن تعلن تمرداها على كل ما تعرفه، على كل ما تعلمته، على القيود التي فرضها عليها أهل القرية والتي أصرّوا على أن تكون مرشدًا لروحهم الحائرة، أو أن تصبح مجرد دمية في مسرحية دموية، تُدار خيوطها من وراء الستار بواسطة قوة قديمة لم ترد لها أن تظهر.

كأن العيون كلها كانت تراقبها، وكأن كل خطوة تخطوها على أرض القرية الموحشة كانت تُسجل في دفاتر قديمة، دفاتر كُتبت فصولها منذ قرون مضت. كان إحساسها بأن التاريخ يتكرر في تلك اللحظة يراودها، وكأنها كانت جزءًا من سيناريو مكتوب لا يمكنها الهروب منه. وكلما

حاولت الهروب، كانت تجد نفسها تغوص أعمق في الأرض نفسها التي ظنت أنها ستقلب منها.

لكن ما جعل قلبها ينبض بسرعة أكبر، ما جعل عرقها يتصبب من على جبينها، هو تلك المذكرات التي عثرت عليها خلف خزانة الأدوية. كانت مذكرات الطبيب السابق، الذي اختفى فجأة دون أي أثر يذكر. وهو نفسه الذي كانت تظن أنه مجرد ضحية لقوة خارجة عن إرادته. لكن ما قرأته كان صادمًا. كان يشير إلى شيء لا يمكن تصوره، شيء لا يمكن لعقل أن يحتمله.

«الموتى هنا لا يرحلون... إنهم ينتظرون جسدًا جديدًا ليعودوا!!»

كانت هذه الجملة تلوح أمام عينيها، تردد في أذنيها وكأنها لا تستطيع الهروب منها. هذه الكلمات كانت تحمل شيئًا مرعبًا، شيئًا يعرفه الجميع لكن لا يجرؤ أحد على قوله. الموتى في هذه القرية لا يرحلون، بل يعودون. كانوا يعودون ليس كما كانوا، بل بأجساد جديدة، بأرواح تتنقل بين الأحياء، تبحث عن جسد يستقبلها كما يستقبل البحر سفينةً تائهة.

هل كان هذا سر القرية؟ هل كانت هذه هي القوة التي تتحكم بكل شيء من وراء ستار؟ وعندما تفكر في ذلك، تجد نفسها متورطة في لعبة قديمة جدًا، لعبة من صنع الموت والحياة، لا يمكن لأي فرد أن يهرب منها مهما حاول.

كانت تعلم الآن أن أمامها خيارًا صعبًا. إما أن تقف في وجه هذا السر، أن تنقب عن الحقيقة المدفونة تحت رمال الزمن، قد تعثر على

شيء قد تطيح بالظلام الذي يلف القرية. أو أن تظل في صمت، تراقب الأحداث تتحرك حولها، ولكنها ستكون في النهاية مجرد دمية في مسرحية لا فكاك منها، مسرحية لا يمكنها الهروب من فصولها، مهما حاولت.

الطفل الوحيد في القرية... ذلك الكائن الصغير الذي لا يملك من العمر سوى بضعة سنوات، ومع ذلك كان يحمل في عينيه أسرارًا لا يمكن لأحد أن يفسرها. كان يتنقل في الأزقة الضيقة كظلال، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، وكأن هناك خطأ غير مرئي يفصل بينه وبين باقي سكان القرية. لكن في أعماق تلك العيون التي كانت تراقب من بعيد، كان السؤال يتردد: هل هو مفتاح اللعنة التي طالما تحدثوا عنها، أم أنه مجرد ضحية أخرى في لعبة القوة القديمة التي لا ينجو منها أحد؟ ما كان يدهش أكثر، أن هذا الطفل بدا وكأنه ليس جزءًا من هذا الزمن. كان يملك شيئًا غريبًا في ملامحه، شيء يربط بينه وبين الأساطير القديمة التي سمعها أهل القرية عن البوابة المنسية، تلك البوابة التي يُقال إنها تحمل بين طياتها أسرارًا مظلمة، وأرواحًا ضائعة تنتظر أن تجد جسدًا جديدًا. كان يشبه ذلك الكائن الذي يُستدعى من الظلال في لحظات الخطر، ليحمل إرثًا قديمًا في جسده الصغير.

لكن هل هذا الطفل هو مفتاح اللعنة؟ أم أن الحقيقة المرة أكبر مما يبدو؟ هل يُحتمل أن الدكتوراة روان نفسها، بكل علمها الحديث وبكل أملها في أن تترك أثرًا في هذه القرية المعزولة، هي الضحية التالية في طقوس «البوابة المنسية»؟

القلق كان يعصف بروان، إذ بدأت تشعر بأن كل خطوة تخطوها في هذا المكان كانت تقودها إلى مصيرٍ مجهول. كل مريض تزوره، كل ليلة تمضيها في عيادتها، كانت تجعلها تقترب أكثر من هذا السر الغامض الذي يحيط بالقرية. وكلما تعمقت في البحث، كانت تجد أن الخيوط تتشابك أكثر، وأن كل شيء في هذه القرية كان مدفوعاً بقوة خفية، قوة تحرك الأحداث ببطء، لكنها لا تفوت شيئاً. كانت تشعر بأنها جزء من لعبة قديمة، وأن مصيرها قد كُتب منذ زمن طويل، وأنها لا تملك إلا أن تتابع الدور الذي فُرض عليها.

كانت الشكوك تتزايد، والقلق يزداد، وكلما فكرت في الطفل الوحيد الذي يشع منه ذلك الضوء الغريب، تذكرت تلك الكلمات التي قرأتها في مذكرات الطبيب السابق: «الموتى لا يرحلون... إنهم ينتظرون جسداً جديداً». وكانت تلك الكلمات بمثابة الحجر الذي ألقى في بحيرة هادئة، فاندفعت الأمواج لتأخذها في مجرى لا يمكن التنبؤ به.

هل هي فعلاً الضحية التالية؟ هل ستكون هذه النهاية؟ أم أن هناك شيئاً آخر سيحدث، شيئاً أكبر من كل ما تتخيله، سيغير مجرى الأحداث تماماً؟

تحت شمسٍ لا ترحم، في تلك القرية التي لا تعرف الرحمة، كان الغبار يلتصق بكل شيء. كان يسكن في الهواء، يغلف الوجوه الصغيرة للأطفال، يعكر صفاء السماء، ويتسلل إلى عيون الكبار ليغطي أحلامهم. في تلك القرية البعيدة، حيث لا يكاد يمر يوم دون أن يكون محملاً بنفحات من الحرارة الجافة، وقفت الدكتورة روان عند عتبة

العيادة الصغيرة. كان الجو خانقاً، والمكان يعج بصمتٍ عميق، رغم ضجيج الحياة حوله.

العيادة، هذا المبنى الذي بالكاد كان يحتوي على جدران متداعية وأثاث بسيط، كان أكثر من مجرد مكان لعلاج المرضى. كان بمثابة نقطة ضوء وسط الظلام الدامس الذي يلف القرية. هنا، كانت روان، بشهاداتها المتعددة وتدريبها المتقدم، تجد نفسها غريبة في عالم لا يشبهها. كانت تلوح بيدها لمروحة بالكاد تتحرك، محركه الهواء الساخن حولها ولكنها لا تسهم في تبريد حرارة اليوم التي كانت تكاد تكسر ظهر الصبر. كان الفضاء الذي يحيط بها ملبداً بالغبار، والوجوه التي تلتفت إليها تنتمي إلى عالم آخر، عالم لا يعترف بالعلم الحديث ولا بالمنهجيات الطبية المتقدمة.

كانت تعلم أن الرحلة التي خاضتها للوصول إلى هنا لم تكن مجرد مغامرة مهنية، بل كانت تحدياً كبيراً في ذاته. هذا المكان، الذي بالكاد يعرف التطورات العلمية، كان يفرض عليها تحديات أكبر من مجرد تقديم العلاج. كان عليها أن تقاوم أفكاراً قديمة متجذرة في الأرض، وأصواتاً لا يمكنها أن تصم الآذان وتحمل الرياح العاتية للشكوك التي تحيط بها.

وفيما كانت تقف على عتبة العيادة، كان فكرها شاردًا في ذكرياتها وأملها. لم تكن تلك المروحة التي تتأرجح بتلك البساطة، هي فقط ما كانت تعوّل عليه لتخفف عن نفسها تلك الحرارة الحارقة. كانت قد وضعت في ذهنها هدفاً واحداً: أن تُغيّر شيء ما هنا. ولكن هل ستمكن

من التغلب على كل تلك المعتقدات القديمة، على ذلك التراث الذي يحكمه الخوف من التغيير؟ هل ستمكن من استبدال تلك الممارسات البالية بعلاج يتناسب مع العصر؟

دعت إلى نفسها الشجاعة. أدركت أن هذه الأرض، التي يغلفها الغبار وتؤكد ألوانه على صعوبة الحياة فيها، تحتاج إلى أكثر من مجرد حلول سريعة. بل هي بحاجة إلى من يرى في داخله القدرة على إحداث تغيير حقيقي، بعيداً عن الأساطير، بعيداً عن النظريات التي تكاد تلهب الصدور. في ذلك المكان المظلم الذي لا يرحم، كانت تعرف أن كل خطوة قد تكون مغامرة، وكل قرار قد يؤدي إلى اكتشاف جديد لا يُحتمل.

والحياة هناك، كما كل شيء آخر في تلك القرية، كانت تُمتحن في حرارتها الشديدة.

الرفوف الخشبية التي كانت في الماضي تفيض بالأمل — بالمضادات الحيوية التي كانت تعد بالشفاء، بالأمل السائل في زجاجاتٍ صغيرة تُخفي بين جوانبها معجزاتٍ طبية — غدت الآن مجردة، خاوية، كأنها تنن بصمت مع أنين المرضى خلف الجدران. كانت تلك الرفوف، التي تحمّلت سنواتٍ من التراكم والتكدس، تمثل في يومٍ ما جزءاً من حياة القرية، مركزاً للراحة والأمان، صرحاً من الوعود التي كانت تبعث على الاطمئنان. أما الآن، فقد تحولت إلى أطلالٍ باردة، تجلس فيها زجاجات دواء فارغة، عيونها الساكنة تحكي قصصاً من الخيبة والهزيمة.

كان الصمت الذي يملأ المكان أقوى من أي كلمات. ذلك الصمت الذي لا يشبه صمت العيادات الأخرى، بل هو صمتٌ ثقيل، يحمل في طياته أسئلةً لا تُجيب عنها الأدوية ولا يُزيلها الزمن. بيد مهتزة، كانت الدكتورة روان تُعيد ترتيب تلك الزجاجات الفارغة، كما لو كانت تُحاول إخفاء عجزها عن ملء الفراغ الذي كان يتسع أمامها. كانت الرفوف تشعر كما لو كانت قيد التحقيق، وأعينها، المتوارية خلف غبار السنين، تراقب كل حركة وكل محاولة فاشلة لإحياء ما كان حيًّا في يوم من الأيام.

من خلف الجدران المتهالكة، كان يمكن سماع أنين المرضى. أصواتهم الممزوجة بالأم وأملٍ ضائع، تتسلل عبر فتحاتٍ ضيقة، لتضطدم بتلك الرفوف التي لم تعد قادرة على احتواء الحلم. كانت أصواتهم تتسلل إلى قلب روان، تلتف حولها كخيوطٍ مظلمة، تلاحقها في أحلامها وتذكّرها بأنها قد أصبحت جزءًا من هذه الدوامة، تلك الوعود المكسورة، والحقيقة التي تفرض نفسها ببطء، دون رحمة.

وها هي تقف الآن، أمام هذا المشهد المأساوي، تفكر في اللحظات التي سبقت وصولها إلى هنا. كم كانت تأمل أن تجد مكانًا آخر، عيادةً أكثر إشراقًا، حيث يمكنها أن تقدم لمرضاها شيئًا أكثر من مجرد تخفيف الآلام، حيث يمكنها أن تُعيد لهم الحياة التي سلبتها الأيام منهم. ولكن كل شيء هنا مُعلّق بين الحياة والموت، بين الرجاء واليأس، تمامًا كما هي الرفوف التي تقف أمامها الآن، خاوية، لا تعكس سوى ماضٍ ضائع.

هل يمكن للإنسان أن يعيد ملء تلك الرفوف التي نفذت من كل شيء؟ أم أن الأدوية، مثل الرفوف نفسها، قد نفذت منذ زمنٍ بعيد، ولم يبقَ إلا وهمٌ من الأمل المتداعي؟

وبين تنهيدة وتنهيدة، كانت الدكتورة روان تعرف أن الوقت لم يكن في صفها. كان يمر ببطءٍ ثقيل، كما لو كان كل دقيقة تمر كأعوامٍ من المعاناة والصمت. الأمل الذي حملته معها في حقيبتها الصغيرة بدأ يذبل، وأصبح أكثر هشاشة من أن يتحمل وطأة الواقع القاسي الذي تواجهه. كانت تمشي في تلك الساعات المظلمة، محاصرة بين العجز الذي يكبل يديها وصرخات المرضى التي لا تجد لها صدى في مكانٍ غريب، لا يتجاوب مع توسلاتها.

الإمدادات التي تحتاجها كانت في بلدة تبعد أكثر مما تحتمله أجساد المرضى. في مكانٍ آخر، كان العالم يواصل دوران عجالاته، لكن هنا، في قلب هذه الصحراء القاحلة، كان الزمن قد توقف. كان لا بد من عبور تلك المسافة المترامية، تلك السهول التي تشقق من العطش وتبتلع الغرباء دون أن تترك أثراً. لم يجزؤ أحد على العبور، ولم يكن في قلبها شيءٌ سوى هذه الهواجس التي تلاحقها. كانت تعرف أن الطريق المؤدي إلى تلك البلدة المفقودة يمر عبر مساراتٍ مغطاة بطبقاتٍ من الرمل التي تجرف كل من يخطو فيها إلى اللامكان.

كانت الأجساد العليلة هنا لا تتحمل هذا البعد، وهذا الفراغ الذي يبتلع الأمل ببطء. المرضى الذين يعانون من آلامٍ مزمنة، من جروحٍ غير قابلة للشفاء، لا يدركون أن حياتهم معلقة على شريطٍ رفيع بين

الإمدادات الطبية التي قد لا تصل أبدًا. كان الطريق إلى البلدة لا يُشبه أي طريقٍ آخر. بين الحين والآخر، كانت روان تلتقط أنفاسها متسائلة: هل من الممكن أن يتخطى البشر هذا الجحيم الصحراوي؟

كانت تسمع عن الغرباء الذين حاولوا عبور السهول، وكيف لم يعودوا أبدًا، كأن الأرض قد ابتلعهم في جوفها، ولم تترك وراءها سوى غبارًا عالقًا في الزمان. تلك الأراضي كانت لا ترحم، وكانت تقتنص المارة كما تقتنص الأفواه الجائعة أي ضحية. كانت هي الأخرى تقف على حافة تلك الحافة، تدرك أن كل لحظة تأخير قد تكون الكارثة. هل تملك الشجاعة للخروج في رحلةٍ محفوفة بالمخاطر؟ هل يمكنها أن تجد البقية التي تتطلبها معركة الحياة أو الموت؟

بدا أن أملها الوحيد كان يذوب مثل الثلج تحت شمسٍ ملتهبة. كانت تبحث عن أملٍ صغير وسط الظلام، عن أي بصيصٍ من الضوء يمكن أن يقودها إلى تلك البلدة المفقودة. ولكن، في تلك اللحظة، بين تنهيداتها، كان قد بدأ يشبُّ في قلبها شعورٌ غريب، شعور بأن المعركة قد تكون أكبر من أي دواء أو إمدادات طبية. المعركة كانت داخلها أولًا، وفي تلك اللحظات كانت تعلم أن الزمن الذي أمامها، مهما كان قصيرًا، قد يكون النهاية أو البداية.

سوى هو.

سالم بن راشد لم يكن مجرد رجلٍ عابر، بل كان حكاية تمشي على قدميها، أسطورة تُروى على كل لسان، على الرغم من أن قلائل فقط يعرفون تفاصيلها. لم يكن أحدٌ يستطيع أن يحدّ من تأثيره بمجرد

ملاحج وجهه أو خطواته الثقيلة التي تترك أثراً عميقاً في كل مكان يمر به. لم يتحدث كثيراً، لكنه إذا فعل، ارتجّ الجو حوله كما لو أن الكلمات التي يلفظها كانت تُحفر في الزمن، تشق طريقها إلى أعماق الجميع، تكشف عن أسرارٍ ما كان ينبغي لها أن تُكتشف. حديثه قليل، لكنه ثقیلٌ كالصمت الذي يملأ الفراغات.

كان يقف عند باب العيادة، لا يتحرك، كما لو أنه جزءٌ من المكان، يتنفس مع الجدران نفسها. كأنه وُلد من رحم الشمس، والحرارة التي تميز هذه الأرض تُشعّ في كل تفاصيله. كتفاه واسعتان كصحراء يعرفها أكثر مما يعرف نفسه، وقد امتلأت بالقصص والآلام التي لا تُعدّ ولا تُحصى. كان ظله يغطي المكان كله، مثل جبلٍ يحمي الوادي من الرياح القاسية. عيناها... آه، عيناها. لم تكونا مجرد عيونٍ عابرة تنظر، بل كانتا تحفران في الأرض والزمان، تشقّان طرقاً في داخل كل من يواجههما، كأنهما تسييران عميقاً في الروح، وتستحثان الأسئلة التي تخشى الإجابة عنها.

كان كل من يقف أمامه يشعر كأنه قد دخل عالماً آخر، عالماً مليئاً بالتحديات والظلال التي تراقب من بعيد. كان سالم لا يردّ بكلمة واحدة إلا حينما يُرغم على ذلك، لكن الردود كانت تأتي مثل فُجْرٍ مفاجئ، تتساقط كالمطر على أرضٍ جافة. صوته كان أقل من أن يُسمع، لكنه كان أكبر من أن يُنسى. تحركاته، حتى وإن كانت هادئة، كانت مفعمة بالقوة والهيبة.

وكانت السمعة تسبقه، كالرياح التي تسبق العاصفة، تسبق خطواته التي لا تُرى إلا في الأثر. كان اسمه يتردد في الأرجاء قبل أن يصل إلى مكانه، وكأن الرياح تحمل سيرته كما تحمل الغيوم العواصف القادمة. كانت العيون التي تراقب من خلف الأبواب والشرفات تعرف أن وجوده في القرية يعني أن شيئاً كبيراً قد يحدث. يمكن للمرء أن يشعر بوجوده حتى قبل أن يراه، كما يشعر الملاح في البحر بحركة الرياح قبل أن يرى السواحل.

وفي كل مرة كان يمر فيها عند باب العيادة، كانت الأقدار تنحني له، كان يتقاطع مع القصص القديمة التي ظن الجميع أنها انتهت، لكنه كان يرويها من جديد، بشغفٍ لا يطفئه الزمن، ولا تحده الأعمار.

قالوا إنه فقد أخاه في تجارة فاشلة، وأن قلبه صار قاسياً مثل الحجر، لا يثق بالبشر ولا يحمل في قلبه سوى ظلالٍ من الماضي. كانوا يهيمسون عن ماضيه المظلم، عن التاجر الذي كان يتسم بحذرٍ ويأخذ خطواته بحسابات لا تنتهي، حتى سقطت تجارته في هوةٍ عميقة، لا أمل فيها بالنجاة. قالوا إن كل جرحٍ في قلبه ترك أثراً أكبر من الذي قبله، وأن عيونه أصبحت مجرد انعكاسٍ لشخصٍ آخر، لشخصٍ فقد ذاته في بحر من الخيبات. كانوا يصفونه بالوحش، بالشخص الذي يحاول إخفاء عجزه خلف جدار من الصمت، وعيونٍ لا تكشف شيئاً.

لكن الدكتورة روان، رغم كل ما سمعته، لم تر فيه وحشاً. كانت ترى شيئاً أكثر تعقيداً، شيئاً يكمن وراء تلك الملامح الصارمة التي لا تكشف عن أي ضعف. كانت ترى رجلاً محاصراً، مختبئاً وراء جدرانٍ

من حزنٍ عميق، ربما رجلٌ لا يزال يحاول أن يجد الطريق ليشفي قلبه المكسور، ليعيد بناء نفسه بعد أن تهدم كل شيء كان يعتمد عليه. ربما كان يختبئ من ماضيه، ربما كان يقاتل كي يثبت لنفسه أولاً، قبل الجميع، أنه لا يزال قادراً على النجاة. ليس فقط من الماضي، بل من الشكوك التي تملأ قلبه، من الخوف الذي يطارد خطواته.

«أنت الوحيد المتبقي»، قالتها بصوتٍ منخفض، وكأن الكلمات تخرج منها بصعوبة. كانت تحمل صندوق الأدوية بين يديها، لكن أصابعها كانت ترتجف، تخشى أن تظهر ضعفها في لحظة كهذه. لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لها، كانت تعلم أنها على حافة قرارٍ مصيري، وأن كلمة واحدة قد تغير كل شيء. ولكنها قالتها، رغم كل شيء: «أنت الوحيد المتبقي».

هو لم يُجب في البداية. فقط ظل واقفاً هناك، ينظر إليها بعينه اللتين لم تكن تحويان سوى الظلال. ثم اقترب منها بخطوات موزونة، ثقيلة كأنها رياحٌ ثقيلة تمر عبر المسافات البعيدة. كان يقترب ببطء، كما لو أن الأرض تحت قدميه كانت قابلة للانحيار في أي لحظة، وكأن الوقت نفسه يتلاشى بين الخطوات التي يخطوها. لم يكن هناك شيء مُسجل في عينيه، لم يكن يجيب، لكن كان هناك شيء في طريقة نظرتِه جعل قلبها يتوقف للحظة، شيء كان أقوى من الكلمات، أقوى من كل شيء. كان شعوراً غريباً، كما لو أن هناك بركاناً كامناً تحت السطح، ينتظر اللحظة المناسبة للانفجار، بينما هو يحاول الحفاظ على هدوئه الخارجي. وبينما كانت نظراته تتلاشى في فراغ العيادة، أدركت الدكتورة

روان شيئاً: لا يمكن لأي شخص أن يهرب من ماضيه تمامًا، حتى لو اختار أن يضعه في صندوقٍ مغلق.

رائحة الشمس الحارقة، العرق الذي يتصبب من الجباه، والموت المؤجل الذي يختبئ بين جدران العيادة الصغيرة، كلها كانت تختلط وتتشابك في الجو الحار كخيوطٍ رقيقة من الهمسات الميتة. كان كل شيء يتنفس بصعوبة، حتى الهواء كان يثقل على رئتيها، وكأن الحياة نفسها تمسك نفسها على حافة الهاوية. كل تفصيلة في هذه القرية المغمورة كانت تحمل طابعًا من اللامبالاة، وكأن الزمن قد تجمد هنا، تمامًا مثل الجدران التي تحتفظ بأسرارها المظلمة.

قال بصوته الغليظ، الذي كان يتسلل عبر المسافة كعاصفة قادمة من بعيد: «الطريق موحش بعد المغيب.» لم تكن الكلمات مجرد نصيحة عابرة، بل كانت تهديدًا خفيًا، توجه إلى دواخلها مباشرة. كانت كلماته ثقيلة، كما لو كان يزاحم بينهما شيئًا غير مرئي، شيء ضائع في الفراغ، لكنه حاضر في كل ثانية من حديثه.

صوته كان خشنًا، مشبعًا بأشياء لم تُقل، كلمات معلقة بين شفثيه لم يجد الوقت بعد لتلفظ بها. كانت هذه الكلمات تحمل معها قصصًا مفقودة، شبحًا من ماضيٍ مُرَكَّب، ويومًا ما، ربما، كان كل شيء قد بدأ في هذا الطريق الموحش الذي كان يتحدث عنه.

تحدث عن قطاع الطرق، عن رجال يرتدون الأقنعة، لا يكثرثون لمن يمرون بجانبهم، عن نقاط التفتيش التي لا تلتفت إلى الأسباب، بل تلتقط الفرص. وأخبرها عن أولئك الرجال الذين لا يسألون ولا

يترددون قبل أن يطلقوا النار. كانت تلك الكلمات تشي بمشاهد
مأساوية كانت تراقبها في ذهنها، لكنها لم تتجرأ على البوح بها.

ثم، ببطءٍ، وكأنما يزن الكلمات بميزانٍ حساس، أخبرها بثمرته. لم
يكن المال هو المطلوب. كان هناك شيء آخر، شيء أكثر صمتًا وأبشع
من الذهب: «لا مال، فقط حصة من الأدوية.» كانت هذه العبارة، على
الرغم من بساطتها، كالسهم الذي اخترق قلبها مباشرة، شيء بارد
يزحف في عظامها. لم يكن مجرد تبادل تجاري، بل كان ثمنًا لمسألة
أكبر من ذلك بكثير.

الدكتورة روان لم تُجادل. لم يكن الوقت للجدال. كانت عيناها
تراقبان كل حركة منه، كأنها تدرس كل تلميح، كل غمضة عين. قلبها
كان ينبض أسرع من المعتاد، ولكن عقليها كانا صافيين، لا يقبلان
الارتباك.

كانت تعلم أنه لا مفر من هذا المأزق. في هذه الأرض التي لا تعترف
إلا بالقوة، حيث الحياة رخيصة والنوايا مظلمة، لا مكان للضعفاء.
وكان هذه العيادة، التي كانت في يوم من الأيام ملاذًا آمنًا، قد تحولت
إلى مكانٍ محكومٍ عليه بالمصير ذاته: الفوضى والدمار المستمر.

في عيون المرضى، كانت الدكتورة روان تلمح حياةً تنتظر هذه
الرحلة، رحلة قد تكون أملًا أخيرًا أو بداية لظلام لا ينتهي. كانت
عيونهم محملة بالتساؤلات، بالرهبة، وبالأمل الذي يصارع الخوف.
كانوا في محنةٍ لا يعرفون نهايتها، ينتظرون علاجًا، لم يكونوا على يقينٍ
تامٍّ من فعاليته، لكنهم كانوا متشبهين بأي شيء قد يقدم لهم مخرجًا.

كانت تبتسم لهم، رغم أن ابتسامتها كانت مختلطةً بالحزن. في داخلها كانت تشعر بحجم القلق الذي يحيط بهم، وكأن كل خطوة تخطوها تقربهم أكثر من نهاية الطريق الذي لا عودة منه.

لكن، في عيون سالم، كان الأمر مختلفاً. لم تكن متأكدة ممّا ترى، كان هناك شيء غامض، غريب، غير قابل للتفسير. كانت عيناه مثل مرآة عميقة، لا تظهر إلا ما يريد أن يظهر. ربما كان ذلك هو السر الذي اكتشفه طوال حياته: القدرة على إخفاء كل شيء. وكان هذا الشيء المظلم الذي يعيش في نظره يثير في قلبها شيئاً من الريبة. هل كان يراقبها، أم كانت هي من تراقب حذراً تلك الزوايا المظلمة من شخصيته التي لا تكشف عن نفسها بسهولة؟

بينما كانا يحملان الجيب معاً، تتسارع حركة قلبيهما بين الانتظار والترقب، كانت يدها تتلامس مع الأدوية بعناية، بينما عيونها لا تستطيع أن تبعد عن تلك اللمعة التي ظهرت فجأة عند خاصرته. كان السكين هناك، يلمع كما لو كان يذكّرها بشيء قد غاب عن ذاكرتها. لم يكن مجرد أداة دفاعية، بل كان تحذيراً بارداً، موجهاً إليها كأنما يحفر في أعماقها: تذكّري مع من تذهبين. كانت تلك اللحظة محورية، كما لو أن كل شيء في حياتها كان يتلخص في تلك اللمعة البسيطة، وفي ذلك السكين الذي كان يبدو أكثر من مجرد قطعة حديدية.

يد سالم توقفت على زجاجة المورفين لفترة طويلة، وكأن الزمن قد تجمد لحظة. كانت يده تتحسس الزجاجة برفق كما لو كانت شيئاً يخصه، شيء عتيق، يعود به إلى زمن آخر. زمن لا يتذكره ولا يريد

أن يتذكره، لكنه لا يستطيع الهروب منه. كانت حركة يده تترك أثرًا في الهواء، وشيء ما في تلك اللحظة جعل كل شيء يتوقف من حولها. لم يكن المورفين مجرد دواء، بل كان وعدًا، ربما وعدًا له بالهروب من شيء ما، أو ربما وعدًا له بالنجاة في عالم لا يتعاطى مع الحياة إلا من خلال الألم.

الدكتورة روان كانت تحاول أن تظل في مكانها، أن تبقى على رباطة جأشها، لكن في داخلها كانت هناك أمواج من التساؤلات تتصاعد، وكأنها تقف على حافة قرار كبير، قرار قد يغير مجرى حياتها. في تلك اللحظة، كانت تعرف أن هذا الرجل ليس مجرد شخص عابر، بل هو لغز، لغز يتطلب الكثير من الحذر، أو ربما التحدي. وربما، فقط ربما، كان يعلم شيئًا عنها، شيء عن ماضيها، عن تلك القرية التي دفنت فيها الكثير من الأوجاع.

ومع أول اهتزاز للمحرّك، أدركت أن الرحلة بدأت. كانت اللحظة حاسمة، وكأن الزمن نفسه قد قرر التوقف ليلقي نظرة على ما سيحدث. لكن رغم هذا الإحساس القوي بالانطلاق، لم تكن الدكتورة روان متأكدة تمامًا مما إذا كانت ستصل إلى حيث تأمل. كانت تسير في طريق غير معروف، طريقٌ يختبئ فيه الغموض ويتراءى فيه السراب أكثر من الحقيقة. الرحلة كانت أكثر من مجرد مسافة تُقطع بين مكانين، كانت معركة داخلية، بين ما ترغب في اكتشافه وما تخشى أن تكتشفه.

في داخلها، كانت هناك صحراء أخرى—أكثر قسوة، أكثر خفاء. ليست صحراء الرمال التي تتناثر على الزجاج، ولكن صحراء من

الأفكار والذكريات التي تلاحقها. كانت الدكتورة روان تعرف أن هذه الرحلة ستكون اختبارًا لها، اختبارًا ليس فقط لقوتها البدنية، بل لقوة إرادتها وعقلها. كان قلبها ينبض بسرعة، وكأن كل خفقة تحاول أن تتفادى إجابة عن الأسئلة التي بدأت تتراكم في عقلها. هل كانت مستعدة للمجهول؟ وهل كانت تعرف تمامًا ما الذي قد تكشفه الصحراء عنها وعن نفسها؟

بينما انجرفت السيارة في رمالٍ تتحرك كالأسرار، كانت تسير بصمت غريب، وكلما ابتعدت عن القرية، زاد الظلام وكأن المكان نفسه يرفض أن يكشف عن سره. الرمال لم تكن مجرد رمال، كانت تمثل كل شيء غامضًا، شيءٍ حاولت أن تفر منه طوال حياتها، لكن ها هي الآن تجد نفسها محاصرة داخل هذه السكون الذي يهدد بابتلاع كل شيء.

همس سالم، صوته منخفض ومليء بالغموض، وكأن الكلمات نفسها كانت تحمل عبئًا من التحذير: «تمسكي كويس، دكتورة... الصحراء ما تعفو عن حد.» كانت كلماته ثقيلة كأنها صخور في قلب الليل. لم يكن مجرد تحذير عابر، بل كان هناك شيء ما في نبرة صوته، شيء يجعلك تشعر بأنك تدخل عالمًا آخر. كان وكأن الصحراء نفسها تنفّس، تراقب، تلتهم كل من يجروء على دخولها دون استعداد.

نظرها التقت بعينيه في المرأة، وكأن اللحظة التي تسبق الفاجعة. كانت تلك العيون تحتوي على قصص لم تُرو بعد، على تجارب لم تكتمل بعد. كان سالم أكثر من مجرد شخص يُرافقها في هذه الرحلة. كان يشبه الرياح التي تهب في الصحراء، تعبر سريعًا وتترك وراءها

تدميرًا غير مرئي، أو ربما كان هو نفسه لغزًا عميقًا، شيء لا يمكن تفسيره سوى في تلك اللحظات عندما لا يمكن الرجوع.

وللحظة، لم تعد الدكتورة روان تعرف من تخشاه أكثر: المدى الشاسع أمامها، ذلك البحر اللامتناهي من الرمال والظلام الذي يمتد بلا نهاية، أم الرجل الذي يجلس بجانبها، والذي قد يكون نجاتها... أو نهايتها. كان ذلك التوتر يملأ الأجواء بينهما، كما لو أن الزمن نفسه قرر أن يتوقف في تلك اللحظة، ليجعلها تعيش في شق ضيق بين الاحتمالات. كل ما كان حولها كان هادئًا، لكن هذا الهدوء كان بمثابة غيمة مظلمة تهدد بالانفجار في أي لحظة.

كانت الرمال التي تتطاير خارج نافذة السيارة كالذكريات، لا تستطيع الإمساك بها أو تفسيرها، لكنها موجودة، دائمًا موجودة. وكانت تسير في طريق لا تعرف إلى أين يؤدي، لكن ما كانت متأكدة منه هو أن القرار كان قد اتخذ. تركت وراءها الأمان والراحة في المدينة، متوجهة إلى مكان لا يعرفه أحد، مليء بالتحديات التي قد تقضي على كل ما تبقى من يقين في قلبها.

لكن الرجل الذي بجانبها كان لغزًا في حد ذاته. كان سالم بن راشد أكثر من مجرد شخص يرافقها في هذه الرحلة. كانت عينيه تحملان سرًا قديمًا، سرًا لا يمكن أن يفضي به بسهولة. كلما نظرت إليه، زاد شكها: هل هو مجرد رجل يتبع المسار الذي قدر له؟ أم أن وراء كل خطوة يخطوها، كل كلمة ينطق بها، يوجد خيطٌ غير مرئي يقودها نحو مصيرها؟

في تلك اللحظات الصامتة بينهما، كانت الدكتوراة روان تعرف أن الأمور لم تكن كما بدت. كانت أصابعها تتحرك بتوتر على الحافة الباردة للمقعد، بينما كانت عيناها تراقب الطريق أمامها، لكن ذهنها كان يذهب بعيداً، إلى الاحتمالات التي لم تُذكر. كانت تنظر إلى سلوكه الغريب، إلى جمود ملامحه، إلى الكلمات القليلة التي نطق بها والتي كانت دائماً تحمل شيئاً أكثر من ظاهرها. هل هو فعلاً الشخص الذي سيحميها؟ أم أنه جزء من شيء أكبر، شيء مظلم لا مفر منه؟

فجأة، انكسر الصمت حين همس سالم بصوته الخشن: «نحن في قلب الصحراء الآن، دكتوراة. هنا، لا مفر من مواجهة الحقيقة.» كانت كلماته تحمل في طياتها تهديداً مبطناً، كان أكثر مما يتخيله اللسان. «الحقيقة هي أكثر من مجرد وجهة نظر، هي كائن حي في هذه الأرض، لا تعرف إن كان سيريدك أم لا.»

انفضت من مكانها وكأنما أصابها مكروه، لكن قلبها كان يصرخ بالحاجة لفهم ما وراء كلماته. هل كانت الرحلة حقاً حول إنقاذ الآخرين، أم أن هناك شيء ما ينتظرها في النهاية؟ شيئاً أكبر من الصحراء نفسها. شيئاً قد يكون ناتجاً عن تلك المفاوضات المظلمة بين حياتها وحياته.

كانت السيارة تهتز قليلاً على الطريق الوعر، وكأنها تحاول أن تقطع تلك الأفكار التي تتدفق في ذهنها. مع كل اهتزاز، كان قلبها يزداد تسارعاً.

تحت شمسٍ مشتعلة كأنها وُلدت من فم البركان، في أرضٍ تصمت فيها الحياة حين تتكلم الرمال، وقف الاثنان بين صمتٍ متوتر وقلوبٍ تعرف ما لا يُقال. كانت الأرض من حولهما تشعر وكأنها تخنق الأنفاس، وكأنها تتآمر مع الزمان والمكان لخلق هذا العزل العميق الذي لا يترك لهما مهربًا. الرمال التي كانت تراقص في الأفق، مثل أشباح تتلاشى وتظهر في آنٍ واحد، بدت وكأنها تُراهن على قدرتهما على البقاء.

كان الهواء الذي يهب حولهما ثقیلاً، وكأن كل ذرة فيه تحاول أن تلتهم الأمل، بينما كانت الشمس تُحرق الوجوه بلا رحمة، تُسلط شعاعها على كل شيء حي في هذا المشهد الموحش. رغم ذلك، لم يكن الصمت يخفف من وطأة الواقع، بل كان يضاعف التوتر، يزرع الأسئلة في عمق الأرواح التي تعلم أن الحقيقة لا تقال بسهولة.

الدكتورة روان، التي كانت تنظر إلى الأفق بصمت، كانت تعرف في أعماق قلبها أن اللحظة التي تمر بها ليست مجرد لحظة عابرة. كانت متأكدة من أن هناك شيئاً أكبر مما تراه العين، شيء مستتر بين الظلال، بين الكشبان التي تخفي أسراراً قديمة. كانت تشعر أن هذه الأرض، بكل قسوتها، تحمل معها شيئاً من الماضي الذي لم يعد يُذكر، شيئاً كان يسكن هنا منذ زمن طويل، لا يُستطاع فهمه ولا الهروب منه.

إلى جانبها، كان سالم يقف في نفس الموضع، وكأن الأرض نفسها قد ابتلعتة. لم يكن يتكلم، لكن جسده، وكل حركة منه، كانت تخبرها بما لا تُجدي معه الكلمات. كان يلتقط أنفاسه بصعوبة، وكأن الأرض قد بدأت تضغط على صدره، تنفس من خلاله. وعيناه، رغم

صمودهما، كانتا مليّتين بشيء غريب، كأنهما تحملان حكاية لا تعرفها سوى الرمال. كان يراقبها من حين إلى آخر، وتلك النظرة التي يُلقِيها لها لم تكن مجرد فضول، بل كانت شيئاً أعمق، شيئاً يغمرها ويخترقها، وكأن كل كلمة في عينيه كانت تحمل نبوءة.

كانت هي الأخرى تشعر بذلك، أن هناك شيئاً يلوح في الأفق، شيئاً من الماضي يتسلق أسوار الذاكرة، يتسلل بين مسامات الأرض، ليعيد تذكيرها بحقيقة مرعبة: لا شيء في هذا المكان بريء. حتى الصمت كان قاسياً، حتى الرمال كانت تخفي في طياتها سرّاً مظلماً لا يفر منه أحد.

تسألت: هل هذا هو الطريق الذي سيأخذها إلى ما تبحث عنه؟ هل هي حقاً قادرة على الخروج من هذه الدوامة المظلمة التي يختلط فيها الألم بالحقيقة؟ وكلما فكرت في ذلك، كانت الإجابة تأتي من بعيد، من داخل صمتها، أن لا أحد هنا يُجرؤ على العودة بمجرد أن تطأ قدماه أرض الصمت هذه.

سالم لم يُرد أن يُكمل المحادثة. كان يعلم أن الكلمات لا تُجدي نفعاً. لهذا، بقيا صامتين. ولكن هذا الصمت كان بمثابة العاصفة، كان يتراكم في الهواء، يملأ الجو بترقبٍ ثقيل. كان يعلم، كما كانت تعلم هي، أن هناك شيئاً ما في هذه الأرض يريد أن يُستفز، يريد أن يظهر. كلما زادت هذه اللحظة من تعقيدها، كلما ازدادت كل ذرة في جسديهما شعوراً بأنهما كانا يُسحبان إلى مكانٍ ما، إلى شيءٍ ما ينتظرهما، شيء أكبر من تهديد الصحراء نفسها.

لقد بدأوا الرحلة، لكن لا أحد منهما كان متأكدًا أين ستنتهي.

كان سالم بن راشد رجلاً لا يُروى، بل يُشعر. ملامحه منقوشة على جدران الطقس القاسي، وصمته لا يُحتمل، لا لأنه فارغ، بل لأنه ممتلئ بما يربك. كان جسده، بكل زاوية فيه، يعكس قصة حياة مسكونة بالأسرار، تحمل ندوب الماضي بقدر ما تحمل أحلام المستقبل المفقودة. كانت عيناه تُحفران فيك حتى آخر نقطة من الوجود، تُسلطان عليك ضوءًا لا يشع إلا ليكشف الأعماق في روحك، كما لو كان يقرأ كل تفصيلة فيك قبل أن تعرف أنت عنها شيئًا. ومن حوله، كانت الأرض نفسها تنحني له، كما لو أنها تنتظر لحظة من البوح الذي سيغسل عنها غبار السنين.

أما الدكتورة روان، فكانت الغريبة التي دخلت الحكاية دون أن تطلب الإذن. عيونها التي لم تكن تسعى إلى الإعجاب أو الشهرة، بل كانت تبحث عن إصلاح شيءٍ في قلب هذا المكان... أو ربما في قلبها. كانت وكأنها سقطت من زمنٍ آخر، زمانٍ لم يعد يتذكره أحد إلا أولئك الذين عايشوه في صمت. كانت تنظر إلى العالم من خلال عدسة منطقية، لكنها كانت تعرف أن هناك ما هو أبعد من المنطق في هذا المكان، وأنه لم يكن بوسع عقلها أن يفهمه بالكامل. في عينيها كان هناك سؤالٌ غير مرئي، سؤال يتوارى خلف كل حركة من يديها، كل خطوة تخطوها على هذه الأرض البور. السؤال الذي كان يرافقها منذ وصولها، كما لو أنه كان يزرع بذور شكٍ في قلبها: هل هي هنا لإنقاذهم، أم لإنقاذ نفسها؟

سالم كان يعرف هذه الأرض كما يعرف طعمة الهواء الذي يتنفسه، كما يعرف الوجوه التي مرت من أمامه، لكن في قلبه كان هناك نوع من الفراغ لا يملؤه إلا الشكوك. كان يعلم أن ما وراء هذه الوجوه لا يتوقف عند ما تراه العين. أما روان، فقد دخلت إلى هذه الأرض وفي قلبها شعور غريب: هل ستكون قادرة على التعامل مع ما هو مختبئ هنا؟ أم أن هذه الأرض ستبتلعها مثلما ابتلعت غيرها من الذين جاؤوا بحثًا عن إجابات، فوجدوا أنفسهم أسرى تساؤلاتهم؟

بينما كان سالم يتحدث بأقل من الكلمات، كانت روان تلتقط كل تفصيل في حركاته، في نبرات صوته، في الطريقة التي يتسم بها أو يصمت. كان هذا الصمت الذي يحيط به يُربكها. لم يكن صمتًا عاديًا، بل كان صمتًا يحكي حكاية مفقودة، كل كلمة كانت تحتاج أن تُستخرج من بين ثنايا هذا الصمت، تمامًا كما يُستخرج الذهب من الصخور الصلبة. لم تكن الدكتورة روان تعرف إذا كانت ستصبح جزءًا من هذه الحكاية، أو إذا كانت هي الحكاية نفسها. ربما كانت هناك قوة أكبر منها تحرك هذا اللقاء، تدفعها نحو هذا الطريق الذي لم تسر فيه من قبل. كانت تحاول فهمه، أن تجد تفسيرًا لعينيه المظلمتين اللتين احتجزتا فيها آلاف الأسرار، وتلك الندوب التي كانت تزين وجهه مثل خريطة لتاريخ لا يزال مجهولًا.

لكن سالم، بكل برودته، كان يعرف أن هذه اللحظة ليست إلا بداية لحكاية أكبر، حكاية لن يخرج منها أحد دون أن يكون قد غيّر شيء. كان يدرك، بل وكان يراهن على ذلك، أن كل من يدخل هذه الأرض

يتغير، إما بقوة قاسية، أو بهدوء يتسلل إلى أعماق الروح. ربما هو نفسه كان قد غيّر، وتحول إلى ما هو عليه، وهو يعرف في أعماق قلبه أن لا أحد في هذا المكان يظل على حاله.

في تلك اللحظة، حيث كان الغبار يرقص حولهما في ظل شمس حارقة، تبادل الاثنان نظرة واحدة، كانت تحمل أكثر مما يمكن لأي لغة أن تترجمه. كان ذلك التبادل الصامت بينهما أقوى من أي حديث، أعمق من أي فهم. فهل سيتقابلان معًا في نهاية هذا الطريق؟ أم سيظل كل واحد منهما يبحث عن شيء في الآخر لا يستطيع أن يمتلكه؟

سالم بن راشد لم يكن ليفهم بسهولة. كان مثل هذا المكان: قاسي، غامض، وفيه الكثير من الظلال التي تخفي خلفها أسرارًا. لكن روان، وبفضل سرها الذي حملته من زمن بعيد، كانت تعرف أن هذه الحكاية ستكتب بفصول من الألم والتضحية.

«هذه الأرض لا تعطي إلا إن نزلت لها»، قالها سالم ذات مساء، وصوته كان ينساب ببطء كالنهر الذي يخفي قسوة الصخور تحت سطحه. كانت نظراته تسافر بعيدًا، تتخطى الأفق كما لو كان يحدث ماضٍ غارقٍ في الظلال، ماضٍ لا يزال يحترق بنيرانٍ لا تهدأ، نيرانٍ لا تترك وراءها إلا رمادًا ثقيلًا، ونظراتٍ فارغة تحمل التاريخ في كل زاوية. كانت تلك الكلمات تخرج من فمه كأنها متممة روح تائهة، لكن في عمقها كان هناك أكثر من مجرد تحذير. كان فيها اعترافٌ صامت، وكأنما اعترافٌ لزمٍ لن يعود أبدًا، ودرجات من ألمٍ قديمة تحترق في ثناياه.

ورغم ثقل هذه الكلمات، لم ترتجف الدكتوراة روان. لم تخف من ظلاله، ولم تسرع لتبرير ما سمعته. كانت تعرف أن الجدران التي بنينا حول قلوبنا لا تهدم بالكلمات، مهما كانت قاسية، ولا بالذكريات المحترقة التي يسحبها معها الزمن. الجدران لا تهدم إلا بالثبات، بالقرار الثابت الذي ينبع من أعماقنا ويظل واقفاً أمام العواصف. كانت تدرك أن أرضاً مثل هذه لا تمنح شيئاً مجانياً؛ لا تهتمها الوعود، ولا تصدق في وجودها إلا الحقائق المرة التي تضطر لحفرها في عظامنا. وكان علمها العميق أن التغيير هنا لا يأتي بالتمني أو الشكوى، بل بالثبات في الوجه المُجابه.

كانت تراقب سالم عن كثب، تلك الشخصية التي بدت وكأنها تجسّد لهذا المكان ذاته. رجلٌ لا يعترف بالضعف، ولا يقيم أي حساب للأوقات التي سلبت منه كل شيء. كان يقف هناك، كما لو كان هو نفسه جداراً من حجارة قديمة، لا يستطيع الزمن أن يضعفها. كان في عينيه كل ذلك التاريخ المملوء بالدماء والرماد، وكل تلك القصص التي كان يرفضها حتى عن نفسه، لكنه لا يستطيع الهروب منها.

لكنها لم تفرغ. في الواقع، كانت ترى في كل كلمة قالها سالم، في كل لمحة من نظره، قوة غريبة، قوة تشدها أكثر نحو هذا المجهول الذي عرفت أنه لن يتركها دون أن يغيرها. كانت تعلم أن لكل مكان سحره الخاص، سحره الذي يستقطب كل من يقترب منه، وأن هذه الأرض لم تكن لتستقبل أحداً إلا إذا كان في قلبه شيئاً من النار، شيئاً

يمكنه أن يحرقه، ويحرقه جيداً. فهل كان هذا ما تريده؟ هل كانت هي أيضاً بحاجة إلى تلك النار التي قد تُطَهَّر ما في داخلها من رماد طويل؟ لقد عاشت حياتها على حافة القبول، على حافة الاعتراف بالألم الذي يخبو في الذاكرة. ولكن هذه المرة، كان الألم يبدو أكثر قرباً، وأكثر وضوحاً، وكان من الواضح أن الطريق الذي تسلكه لن يكون مجرد سير في رمال ناعمة. كانت تعرف الآن، أن طريقها هنا لا يتطلب شجاعة ميتة، بل شجاعة حيّة، شجاعة لا تأتي إلا من التضحية، من نزفٍ عميق قد يغسل روحها أو يغرقها في الطين.

بينما كان يظل واقفاً في مكانه، لا يلوح في عينيه سوى الحكايات التي لا تُقال، كانت روان تتساءل في سرّها: ماذا كان يحمل ذلك الرجل في قلبه؟ هل كان يحمل لغزاً؟ أم أن هذا المكان هو اللغز ذاته؟ والآن، وهي تقف على حافة هذه الحكاية، تدرك أن ليس هناك عودة. الطريق الذي اختارته لن يعود كما كان. وكل خطوة تخطوها ستكون خطوة في عالمٍ آخر، عالمٍ يَحْتَج فيها كل شيء. لكنها كانت مستعدة. لا، لم تكن مستعدة فحسب، بل كانت تجد في ذلك تحدياً يستهويها، كما لو كانت تراهن على شيءٍ أكبر من نفسها.

كانت شمس المساء تذوي في الأفق، ولكنها كانت تعلم أنه لا وقت للمراقبة الآن. هناك شيء أعمق، شيء لا يمكن تجاهله، يدعوها للمضي قدماً.

في اليوم التالي، دخلت حظيرته كما لو كانت تعرف الطريق منذ زمن بعيد. كانت خطواتها ثابتة، وكل حركة كانت تُخبر المكان بأنها هنا

لتبقى، وأنها تعلم جيداً ما الذي تفعله. لم تكن ترتدي درعاً من حديد، بل كانت تحمل فقط حقيبة من القماش على كتفها، وقلبٌ لا يعرف الاستسلام. كانت تعرف أن هذه الأرض لا تُعطي شيئاً بلا ثمن، وأن الصمت لا يكون أبداً حماية حقيقية. ولكن لا شيء في عينيها كان يظهر الخوف؛ بل كان هناك تحدٍ هادئ، عزمٌ لا يمكن تجاهله.

الحصان الذي كان ينزف، ساقاه المرتجفتان تكادان تلامسان الأرض، التفت إليها كما لو كان قد وجد ملاذاً بعد رحلة طويلة من الألم. كانت عيون هذا الكائن، العميقة والمثقلة بالمعاناة، تُخبرها بأشياء لم تُنطق بعد. وكأن هذا الحيوان، الذي كان يئن في صمت، يدرك أن اللحظة التي تجمعها بها ليست مجرد محاولة لإيقاف نزيفه، بل هي محاولة لإيقاف شيء أكبر من الجرح ذاته. كانت هي أيضاً جريحة، وإن لم يكن جرحها ظاهراً. وفي تلك اللحظة، كانت تُدرك شيئاً لا تستطيع التعبير عنه بالكلمات: هناك أشياء تُشفى باللمس، وبالحب الذي قد يظل ساكناً في القلب دون أن يُطلب منه التحدث.

أما سالم، فلم يُدلي بكلمة واحدة. كان يقف بعيداً، ينظر إليها بعينه اللتين لم تكشف شيئاً، ولكن كانت كل زاوية فيه تنطق بما لا يُقال. كان يراقبها بعناية، وكأنما يدرس حركات يديها وهي تخطي الجرح بعناية، كما لو كانت تُرمم شيئاً أعمق من اللحم. في تلك اللحظات، كانت يديها تعكسان شيئاً آخر، شيئاً أبعد من مجرد معالجة للحياة والدم. كانت تُعالج ذاكرة جرح قديم، جرح تركه الزمن في روحها، جرح كان قد بدأ يلتئم، لكن لا يزال بحاجة إلى من يعيده للحياة.

«العناد لا يُنقذ الأرواح»، قالها سالم أخيراً، صوته خافت، مليء بالحكمة التي اختبرها بنفسه على مر السنين. كان لحديثه وقع ثقيل، مثل عبءٍ لا يمكن التخلص منه، وكأن هذه الكلمات لم تأت من فم رجل فقط، بل من فم الزمن ذاته، الذي رأى كل الوجوه المكسورة، وكل الأحلام التي تلاشت في الصحراء.

لكنها لم تبتسم، ولم تُجب بنبرة غاضبة. فقط رفعت رأسها ببطء، وهي تُنهي آخر غرزة في الجرح. «ولا الصمت يحميك من نفسك»، ردت بصوتٍ خافت، ولكن حادّ كحد السكين، كأنها كانت تُقدم له حكمة ليست أقل شأنًا من كلماته. كانت عيناها تلتقيان بعينه، وكأنها تقول له: «أنا هنا، وأنا قادرة على التعامل مع ما لا تستطيع تحمله.»

وفي تلك اللحظة، لم تكن المسافة بينهما سوى المسافة التي تفصل بين الأمل واليأس، بين البداية والنهاية. كانت كلماتها أقوى من الصمت الذي حاولت أن تحتمي خلفه، وكانت أفعالها أعمق من كل شيء كان يمكن أن يقوله أو يفعله. كانت تعلم أن الطريق أمامها لم يكن مفروشاً بالورود، ولكنها كانت على استعداد تام لمواجهة كل شيء.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت لعبة الظلال، كما لو أن الحياة نفسها قد تحولت إلى رقعة شطرنج معتمة، حيث كل خطوة تُحسب بدقة، وكل تحرك قد يؤدي إلى فخ لا مفر منه. كان يرسل إليها المهام المستحيلة، تلك التي تحاكي المستحيل نفسه؛ تحديات تتطلب أكثر من مجرد الذكاء أو القوة، بل تتطلب شيئاً أعمق، شيئاً لا يرى ولكنه يُشعر به. كانت تعود بكل مهمة، لكن دون أن تُظهر ضعفاً أو تردداً. كانت

ابتسامتها هي سلاحها السري، ابتسامة تملك سحرًا غريبًا، تتسلل برقة عبر ثنايا المواقف، تزرع في قلبه شكوكًا لا تنتهي حول ما إذا كان قد وجد طريقًا غير مرئيًا لثنيها، أو أن اللعبة قد أخذت منعطفًا لا يمكنه معه حتى أن يتنبأ بما سيحدث.

بينهما كانت تحدث اشتباكات غير منطوقة، تلك التي تتجاوز الكلمات وتغرق في الصمت. كان كل حركة تقوم بها، وكل نظرة تمر بها عينها نحو عينه، تشعل معركة غير مرئية، وكأن التوتر بينهما هو ثقل الوجود نفسه. كل خطوة كانت كحرب نفسية لا ينطق فيها أحد بكلمة، ولكن يُترجم كل شيء عبر تعبيرات الوجه وحركات الجسد. كان الطريق بينهما مليئًا بالمفاجآت، والتقاطعات التي لا تترك مجالًا للراحة. لم تكن الحياة بينهما مجرد تفاعل عادي، بل كانت مثل قتال سري في ميدان لا نرى نهايته إلا عندما يصل أحدهما إلى حافة الهاوية. كانت الهزيمة بالنسبة له هي تورطه العاطفي، الخيط الذي يبدأ بالنشوء دون أن يستطيع فكّه. كان يعتقد، في البداية، أن القدرة على التحكم بالأحداث هي التي تمنحه القوة، ولكن كل مرة كان يُرسل فيها مهمة جديدة إليها، كان يجد نفسه في متاهة جديدة. كان يراها تتحرك بين الظلال، مرفقة بابتسامتها التي لا تكشف شيئًا، بينما هو يغرق في تساؤلاته حول حدود اللعبة.

أما هي، فقد كانت تعرف تمامًا ما يحدث، ولكنها لم تكن تبحث عن انتصار يعلو على قلبه. كانت تعرف أن الفوز ليس أن تتركه يسقط، بل أن تجعله يرقب تلك اللحظة التي تسبق الانهيار، ليجد نفسه غير

قادر على الهروب منها. كانت كل مهمة ترسلها إليه، وكل تحدٍ تتصدى له، بمثابة اختبار لصلابته، لا لصلابتها. كان يُرسل إليها الألغاز، ولكنها كانت دائماً تجد لها الحلول التي لا يمكن التنبؤ بها، كأن كل حل يخرج من فمها كان مسألة حياة أو موت بالنسبة له. ومع كل محاولة لكسر إرادتها، كانت هي تزداد صلابةً، مثل صخرة تتحدّى الزمن.

وكانت النظرات بينهما تُخبر بكل شيء: القسوة، الاندفاع، العاطفة التي تُخفي تحت جلدٍ صلب. كانت لعبة الظلال تلك أكثر من مجرد لعبة عقلية. كانت، في حقيقتها، معركة بين الرغبة في الانتصار، وبين الحاجة إلى أن يرى كل منهما الآخر يُسقط.

وفي ليالٍ كهذه، حين يشتد العواء ويملأ الفضاء صوت الرياح كأصوات أرواحٍ حائرة، وتضيق السماء حتى كأنها على وشك السقوط على رؤوسهم، وتتفخ العاصفة في صدرها قبل أن تنفجر وتغرق الأرض في هياجها، كان سالم يظهر عند عتبة العيادة. كان ظهوراً مفاجئاً، متسللاً كما لو كان جزءاً من الظلام نفسه، لا يعلن عن نفسه بكلمات. كان يظل هناك، صامتاً، كأنه جزء من الليل، ينتظر اللحظة التي تخرج فيها الحياة من بين الأنفاس.

لا يقول شيئاً، وكأن الكلمة ستكسر تلك الرهبة التي تلتف حولهما في هذه اللحظات الغامضة. كان يحمل بين يديه قارورة ماء باردة، يتركها على الطاولة كما لو كانت أملاً في هدوءٍ مؤقت، أو فنيجان قهوة دافئ يحمل معه رائحة الأرض المبللة بالأمطار القادمة، كأنما كان يرسل رسالة من عالم آخر. وأحياناً، كان يكتفي بأن يتركها مجرد نظرة...

تلك النظرة التي كانت أكثر من مجرد انتظار؛ كانت تجلب معها نوعاً من الأسئلة غير المنطوقة، أسئلة تحفر بعمق في أعماق النفس، ولكنها لا تطلب إجابة. كانت نظرة تعكس الكثير من الصمت المخبأ وراءها، وكأنها تقول: «أنا هنا، ولكنك لن تجدني إلا إذا أردت أن تجدني».

وفي تلك اللحظات المعلقة بين السكون والانفجار، كانت الدكتورة روان تشعر بأن الزمن يتوقف. كانت تلك النظرة تقفز إلى داخلها كما لو كانت قوة مغناطيسية، تمتص كل شيء حولها، وتترك فقط مساحة شاسعة من الشكوك والتساؤلات. كانت تراه يبتعد بهدوء، وكأن كل خطوة يخطوها هي تحضير لحدث أكبر سيأتي، لكن دون أن تترك له فرصة للحديث.

في كل مرة كان يظهر، كان وكأن الحياة ذاتها تأتي لتطرق على أبوابها، تملأ المكان بحضور لا يمكن إنكاره. كانت تحس بأن كل شيء يتغير من حولها، وأن تلك النظرة كانت جزءاً من شيء أعمق، سرّاً يراوده كل منهما ولكنهما لا يستطيعان إدراكه بالكامل. كانت الأرض تحت قدميها ترتجف، والهواء يتنفس معها بصعوبة، وكأنهما في معركة غير مرئية، تتنقل بينهما كالريح التي لا تعرف وجهتها.

«أنتِ لستِ من هنا»، قالها سالم وهو يرفع قطعة من الخشب المتهالك ويثبتها على السور الذي بدأ يظهر عليه الزمن، متهدماً تحت وطأة الطقس القاسي الذي لا يرحم. كانت يده مشغولة بالعمل، لكن نظرت له تترك مكانها. كانت ثابتة، عميقة، تغرق في أفق بعيد، كما لو كان يقرأ شيئاً في الهواء المحيط بها.

الدكتورة روان توقفت للحظة، فكرت في الجملة قبل أن ترد. كانت تعرف تمامًا ما يعنيه. هنا، في هذه القرية المنسية، حيث لا شيء ينمو بسهولة، كان غريبًا أن ترى أحدًا يأتي من مكان آخر. لكن هو قالها بطريقة لم تكن بحاجة إلى تفسير. كان يعلم، بطريقة غامضة، أنها ليست جزءًا من هذا المكان. وأن قلبها لا ينبض لذات الأرض التي يسكنها.

«ولا أنوي أن أكون عابرة»، أجابت بهدوء، ولم تخفض عينيها عنه. كانت الكلمات تتساقط منها كما لو أنها تحد. كما لو أنها تعلن عن رغبة دفينية في أن تكون هنا، أن تترك بصمتها في هذا المكان الذي لا يرحم.

وفي تلك اللحظة، دق قلبه فجأة، كطبلية تُعلن بداية موسم المطر. كان الصوت الذي انبعث من قلبه غريبًا، وكأنما هو صوت بداية شيء جديد. شيء كان يخبئه منذ وقت طويل، شيء كان يريد أن يعترف به، ولكنه لم يجد بعد الشجاعة لفعل ذلك. كما لو أن كلماتها فتحت بابًا قديمًا في صدره، بابًا لا يمكن إغلاقه بعد الآن.

سكت للحظة، ثم رفع رأسه إليها، وكانت عيناه تتوهجان كما لو أن الضوء قد عاد إليه فجأة، ضوء كان قد فقدته منذ زمن طويل. كان يعرف، رغم صمته، أن هذا ليس مجرد حديث عابر. لم يكن حديثًا عن مكان أو عن زمن، بل عن شيء أعمق. شيء يتعلق بالهوية، بالانتماء، بالمكان الذي لا نعرف كيف يمكن أن نجد فيه أنفسنا، ولكننا نعرف أننا نبحث عنه.

كان هناك شيء بينهما، شيء يتجاوز الكلمات. كان هذا الحوار ليس مجرد كلمات تُقال، بل كان محملًا بشحنات من الأسئلة التي

لا يستطيع أي منهما الهروب منها. الأسئلة التي كانت تتعلق بالأماكن التي يهرب إليها البشر، والتي يتجنبونها لأنهم يعرفون أنها ستجعلهم يواجهون أنفسهم.

كانت هي تتساءل إذا كان هذا هو المكان الذي ستجد فيه ما تبحث عنه. وهو كان يعرف، في أعماقه، أن لا شيء في هذا المكان سيتركه كما كان.

وفي الليلة التي كانت فيها السماء تمزق نفسها فوقهم، وكان البرق يخترق الظلام كأيدٍ غاضبة، كانت الرياح تعصف بالأرض وكأنها تعلن عن تمردٍ غير مرئي. كان الصوت الوحيد الذي يكسر صمت الليل هو صرخة امرأة، تتلاشى كما لو أنها صرخة فزع في الفضاء الرحب، تبتلعها الريح دون أن تترك أثرًا. لكن، في تلك اللحظة، بين صمت السماء وهدير الرياح، كان هناك شيء آخر... شيء أكثر دقة وأشد قسوة.

تحوّلت الكرامة بينهما إلى جبل مشدود، قابل للانقطاع في أي لحظة. لم يكن حبلاً ماديًا، بل كان رابطًا غير مرئي، يتشبث به كل منهما كما لو كانت حياتهما معلقة عليه. كان هذا الجبل يمثل كل ما بنياه من توازن هش، كل ما تركوه خلفهم من كلمات لم تُقل، من أفعال لم تُنجز، ومن شرفٍ تآكل ببطء.

لم تكن الرياح وحدها هي التي كانت تقصفهما. كان الجبل نفسه يضغط عليهما، يختبر قوة عزيمتهما، يذكرهما بكل اللحظات التي تشابك فيها مصيرهما، وبكل اللحظات التي قررا فيها المضي قدمًا رغم تآكل ذلك المصير. كان الجبل، كما الكرامة، مشدودًا إلى حدٍ

يخشى معه كل طرف أن يلامس الطرف الآخر، لكنه كان لا يستطيع أن يتعد. كانا يدركان، بحسّ غريزي، أنه إذا انفصلت أطراف هذا الجبل، فسوف ينقض عليهما كل شيء، حتى الفكرة نفسها عن من هما، وما كان بينهما.

وفي تلك اللحظة التي كان فيها الوقت يتساقط مثل مطرٍ غزير، لا يسمح لأي من البطاقات الخفية بالظهور، توقفا كلاهما. كل واحد منهما كان يشعر بذلك الجبل الذي يربطهما، لكن لا يستطيع أن يراه. كان شيء لا يلمس إلا بالروح، شيء لا يرحم إذا تهاوى. لكنهما لم يجرؤا على التراجع.

بينما كانت السماء تنفجر فوقهما، كان الجو بينهما يصبح أكثر كثافة، كأن كل نفس يخرج من بين شفّتيهما هو تهديد لهذا الجبل. كلاهما كان يعرف أن التراجع يعني النهاية. النهاية لأي شيء قد يبقى من شرف، من كرامة، أو من إنسانية.

«إنها لن تنجو»، همس سالم بصوتٍ خافت، كأن الكلمات نفسها تحمل على أجنحتها ثقل اليأس، بينما كان يراقب احتضار الحياة في عيني المريضة. كانت عيناها تلمعان كالنجوم المطفأة، تتخبطان في الظلام، وكأنها تود أن تكتب آخر قصتها على جدار الزمن. كانت أنفاسها تتساقط كأوراقٍ يابسة تتناثر في الرياح، وحركة جسدها البطيئة تؤكد على أن كل لحظة كانت تحسب على أصابع الزمن القليل المتبقي. لكن عيون سالم لم تُظهر أي شكوك، فقط تراقب بحذرٍ قاتل، كأنها تعرف الحقيقة، لكنها لا تريد أن تُصدّقها.

لكن ردّها كان مفاجئًا. «هي ستنجو لأنني قررت»، قالتها بحزم، وكأنها تتحصن خلف جدران من صلب. لم يكن في صوتها صدًى للضعف، ولا لأي تردد. كانت كلماتها تحمل حدةً غير متوقعة، كأنها مسنّة بحواف من نار. عيناها، اللتان أضاءتهما النار الداخلية، لم تتردّا في النظر مباشرة في عينيه. كان هناك شيء آخر في ملامحها، شيء يقترب من الجنون، أو ربما هو قرار الجازمة الذي تضعه في حيز التنفيذ حتى وإن كانت العواقب غير مفهومة بعد.

لم يكن يعقل أن هذا الإنسان العجيب، الذي كان يراقب الموت كما لو كان ضيفًا عابرًا، يمكن أن تُنقذه إرادة امرأة واحدة. لكنه كان يدرك تمامًا أن في تلك العيون شيء لا يفهمه، شيء لم يُكتشف بعد. كانت تلك الإرادة هي التي تحدد المسار، وليس الحالة التي تعيشها المريضة الآن. كانت روحها، ذلك الصمود المخبأ في تلك العيون، هو العنصر الذي ربما كان سيتحدّى قوانين الحياة والموت نفسها.

وبينما كانت الأوقات تتناثر كساعاتٍ تفرّ من بين أصابع الرمل، شعرت بأن الرياح التي كانت تعصف بالمكان تحمل رسائل مشفرة، لا يفهمها إلا أولئك الذين اختبروا الحدود. كانت تلك الرياح تقصفها من كل جانب، وthemس في أذنها بأن «القرار» قد بدأ يُكتب بالفعل.

لكن، ما الذي يعنيه أن تقرر؟ في عالمٍ حيث لا تملك سوى اللحظات المنهارة، كيف يمكن للإرادة أن تكون أكثر من مجرد لحظة حلم قد يُفقد منك؟ ومع ذلك، في تلك الغرفة التي كانت تشعر بالهواء الثقيل بين جدرانها، كانت روان مستعدة لمواجهة ما كان يبدو مستحيلًا.

وبعد ساعات من الصمت المضمخ بالدماء، خرجت الدكتورة روان من الغرفة، وكأنها تغلبت على معركةٍ لم تنتهِ، ولكنها نجت منها على الرغم من كل شيء. كانت عيناها مرهقتين، تتألقان بلمعة غريبة، غارقتين في دوامة من الألم والشكوك التي لا تنتهي، ولكن مع ذلك، كان هناك شيء ثابتٌ فيهما، شيء لا يستطيع الزمن أو الألم محوه. خطواتها كانت بطيئة، وكأن كل خطوة تترك أثراً على الأرض التي تحت قدميها، يثقلها التاريخ الحي الذي لا يرحم.

وعندما دخلت إلى الصالة الصغيرة التي كانت بمثابة ملاذٍ مؤقت، توقفت أمام الطاولة. كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل، والجو داخل العيادة لا يزال مشبعًا بالهواء الحار الذي يصعب هزيمته. وعلى الطاولة الصغيرة التي كانت تفتقر إلى التفاصيل، كان هناك فنجان قهوة، قد تركته كما هو، عيونها تتوقف عليه لحظة طويلة، كأنها تستعيد فيها لحظة توازنٍ بعد صراعٍ داخلي لم يُعلن.

فنجان القهوة، الذي كان لا يزال يبعث بهدوءٍ عطرًا قاسيًا يشبه الاعترافات التي لم تخرج بعد، كان يحمل شيئًا أكثر من مجرد رائحة. كان يحمل ذكرى، كان يحمل وعدًا، أو ربما كان يعكس شيئًا لم يتم قوله قط، لكن طعمه، رغم كل شيء، كان صادقًا بما يكفي ليرك في فمها مذاقًا مرًا من الحقيقة. لم يكن مجرد مشروب؛ بل كان هو الرابط بين عالمين: عالمها المهني المليء بالمعركة والألم، وعالمها الشخصي الذي كانت تحاول أن تفهمه، أن تحياه وتقبله بكل تعقيداته.

بالقرب من ذلك الفنجان، كان ضوء المصباح الخافت يرقص على الحواف، يخلق ظلالاً غريبة على الجدران البيضاء، كأن كل زاوية في الغرفة تُخبئ سرّاً من أسرارها، تنتظر لحظة لتنفجر. ومع ذلك، لم يكن هناك صوت في الغرفة سوى تردد قطرات القهوة التي تتساقط في الفنجان بشكل منتظم، كأنها تذكرها بشيء مهم، شيء كان عليها أن تراه، أن تفهمه. لكن ماذا عن تلك اللحظات التي يظل فيها الصمت هو الجواب الأصدق؟ هل هي على استعداد لمواجهة ما لم يكن يعترف به أحد؟ أم أن الطريق التي اختارتها قد تركت آثارها على قلبها، وها هي الآن تدفع الثمن؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ولكن تلك الابتسامة كانت تعني الكثير، أكثر مما قد تراه العيون. كانت تحاول أن تجد السكون في عالم لا يرحم، أن تجد توازنها في خضم العواصف التي كانت تعصف بكل شيء حولها. لكن فنجان القهوة كان يعرف الحقيقة، والساعة التي مرت كانت تعني شيئاً أكبر مما تتخيله، كانت بداية شيء آخر... شيئاً ربما كان قد بدأت تعيشه منذ زمن، دون أن تدرك بعد مدى عمقه.

ومنذ تلك الليلة، أصبح صمت سالم له نعمة، وكأن الكلمات كانت تتناثر في الفراغ حوله دون جدوى، بينما صمته يروي قصصاً لا تُحكى. كان يهمس بالأشياء التي لم يقلها أحد من قبل، ليس بصوت مسموع، بل بحركاته، بنظراته التي تخترق الجدران وتذهب أبعد من العينين. كان صمته أعمق من البحر وأشد فتكاً من العواصف التي تعصف بالصحراء، وبينما كان يقف هناك، ثابتاً كجبل في وجه الرياح، كانت

عيناه تراقبان كل شيء، وكأن كل لحظة كانت لها ثقلها الخاص، وكل حركة كانت تختبئ وراءها أسرار لا تُقاس بالوقت.

أما ضحكة روان، فقد أصبح لها وزن. لم تكن مجرد صوت عابر يتناثر في الهواء، بل كانت تعبيراً عن سنوات من الألم، من الأمل المنكسر، من لحظات تظن فيها أنك على شفا الهاوية ولكنك لا تقع أبداً. ضحكتها كانت تحمل معها عبئاً من الهدوء الذي يأتي بعد العاصفة، وكأنها تعلن أن الحياة قد انتصرت على الموت في مكان ما داخلها. لكن هذه الضحكة، على الرغم من نغمتها الخفيفة، كانت تزن أكثر من الجبال التي تسندها، وكانت تنبعث من قلبٍ يعرف ما هو الفقد، وما هو الألم، وما هو النصر.

القرية شعرت بذلك. الأرض نفسها شعرت بذلك. لقد كانت الأرض مثل كائن حي، يتنفس ويتألم، يتغير بتغير من يسرون عليها. كل خطوة، كل لحظة صمت، كل همسة كانت تترك أثراً لا يمحي على وجهها. كانت الرياح تعبر بين المنازل، تهمس بأسرار لم يسمعها أحد من قبل، بينما كانت الرمال تتحرك بأيدٍ خفية، كما لو كانت تدير مؤامرة ضد من يظن أنه يفهمها. الأرض كانت تراقب، تنتظر، وكأنها تعرف أن شيئاً أكبر من مجرد صراع على الحياة كان يحدث هناك، شيئاً يعبر بين العيون والأرواح، يعيد تشكيل العلاقات ويخلق جسوراً بين البشر لا تُرى، ولكنها تُحس.

وكانت القلوب، تلك القلوب التي تعرف أن المعارك الحقيقية لا تُخاض بالسيوف، بل بالثقة، تبدأ في التغير. كل قلب في تلك القرية، من

أصغر طفل إلى أكبر شيخ، أصبح يعي أن القوة ليست في العضلات ولا في الأسلحة، بل في تلك اللحظات الصامتة التي يتبادل فيها شخصان شيئاً لا يمكن قياسه بالكلمات: الثقة. لقد أصبحت الثقة هي السيف الذي يقطع الظلام، هي الدرع الذي يقي من الخيانة. وفي تلك الليلة، عندما تداخلت أرواحهم بطريقة لم يفهمها أحد، أدرك الجميع أن المعركة قد بدأت بالفعل، ولكن لم يكن أحد يعرف كيف ستنتهي. كانت الرحلة قد بدأت، ولكن الطريق لم يكن واضحاً بعد، كان هناك دائماً ما يخفيه الضباب، وما لا يمكن رؤيته إلا عندما تقرر أن تسير في الظلام.

في تلك اللحظة، كان الصمت الذي بينهما يتحدث أكثر من أي كلام، وكان كل فعل، حتى أصغر اللمسات، يروي قصة أكبر من كلماتهم.

وهكذا، في قرية يأكلها الزمن ببطء، حيث تتراكم الذكريات على الجدران كالغبار الذي لا يزول، وقف رجل لا يعرف كيف يُحب، وامرأة لا تعرف كيف تتراجع. بينهما، كانت الأرض تتنفس ببطء، وكأنها على موعد مع فصل جديد من قصة لا يريد أحد أن يتذكرها. كانت السماء فوقهما ثقيلة، محملة بالغيوم التي لم تعد تمطر إلا خيبات، وريح الشمال كانت تعصف بالعقل، تُشتت الأفكار وتنسف الأحلام. في ذلك الوقت، كان كل شيء مستقرًا في مكانه، لكن شيئاً ما كان يترامى في الهواء، كالتيار الكهربائي الذي يسبق العاصفة.

الرجل، سالم بن راشد، كان يقف هناك كما لو كان جزءاً من تلك الأرض نفسها. عيناه تحلمان بقايا حكايا قديمة، وكل خطوة له كانت

تتردد في الصمت الذي يعم القرية. لا أحد يعرف كيف وصل إلى هنا، ولا أحد كان يجرؤ على طرح هذا السؤال. كان قلبه محاطًا بجدرانٍ عالية، مرتفعة جدًا حتى أن الرياح كانت تتوقف أمامها. لم يعرف كيف يُحب، لأنه منذ زمن بعيد كان قد قرر أن يُبقي هذا الشعور بعيدًا، كي لا يجرح نفسه كما جرحته الحياة. لم يكن يعرف إلا البقاء، لا التراجع ولا التقدم، فقط الصمت، الصمت الذي كان يحيط به كما لو كان درعه الوحيد ضد ما كان يمكن أن يؤلمه.

أما هي، الدكتورة روان، فقد كانت امرأة لا تعرف كيف تتراجع. عيناها كانتا تلمعان كما لو كانتا تتحديان العالم بأسره، وقلبها كان ينبض بتلك الإصرار الذي لا يعرفه غير من تعيش على حافة الهاوية. منذ وصولها إلى هذه القرية، لم يكن هناك شيء سوى تحدٍ مستمر أمامها. كل خطوة كانت تثبت أنها هنا، ليس لإصلاح ما كان فاسدًا فحسب، بل لتغييره، لتفجير كل القيود التي تكبل الناس داخل أنفسهم. كانت تعرف أنها لا تملك الرفاهية للتراجع، وأن العودة ليست خيارًا بالنسبة لها. كانت تدرك أن لكل خطوة تتحركها ثمنًا، وأن هذا المكان سيكون لها أو عليها، لا مكان آخر للهرب.

رقصتهما بدأت... لا كحكاية حب، بل كتحالفٍ هشٍّ بين نارين، لا يمكن لأحد أن يتوقع إلى أي اتجاه سيأخذه. كان كل منهما يشعر بالآخر، لكن كل واحد منهما كان يحمل داخل قلبه نارًا مختلفة. كانت النار التي في قلبه، هي نار الحذر والشك، بينما كانت النار التي في قلبها هي نار العناد والتمرد. كانا يقتربان من بعضهما البعض، لكن في كل مرة

كان المسافة تتسع أكثر. كانت خطواتهما تتداخل، لكن كل خطوة كانت كأنها تقترب من حافة الهاوية، وكل كلمة كانت تترك وراءها أثراً عميقاً، كأنها تمزق طبقات الزمن التي تحيط بهما.

بينما كانت تنظر في عينيه، شعرت بشيء غريب؛ لم يكن الحب، ولا كان الخوف، لكنه كان شيئاً أعمق من كل هذا. كانت هناك لحظات في الصمت بينهما، لحظات كان فيها الزمن يتوقف، وحينها، أدركت أن كل ما كان يحاول إخفائه كان يظهر في كل نظرة، في كل حركة، في كل إحساس لا يمكن تفسيره بالكلمات. كان سالم يراقبها بصمت، لكن هذا الصمت كان أكثر من مجرد غياب للكلمات؛ كان يحمل في طياته معركة من نوع آخر، معركة تدور داخل القلب، داخل العقل، حيث الأجوبة لا تأتي إلا بعد أن تتبعثر الأسئلة.

وكلما اقتربت خطواتهما، كانت النار تزداد اشتعاً بينهما، وكان التوتر يتصاعد، كما لو كانا يسيران على خيط رفيع، قد يقطع بأي لحظة. هل سيكون تحالفاً بين نيران متضادة؟ أم سيكون سقوطاً متوقعاً؟ كان كل منهما يسير في هذا الدرب الضبابي، حيث الأمل والحذر متشابكان، لا يمكن الفصل بينهما. وفي النهاية، أدركا أن هذه الرقصة لم تكن عن الحب فحسب، بل عن كل شيء آخر: عن البقاء، عن القوة، عن الإيمان بأنهما، رغم كل ما بينهما من اختلافات، لا بد وأن يلتقيا في نقطة ما.

وفي مكان كهذا، تحت سماء لا تُسامح، حيث الأفق يتنفس ببطء كما لو أن الهواء نفسه كان يفتقد الأمل، يصبح كل شيء محاطاً بظلال كثيفة من الصمت. الأرض هنا لا تعرف الرحمة، ولا تترك للمارة مجالاً

لتردد. كل خطوة يُخطوها الإنسان على هذا التراب العتيق تحمل في طياتها وزن تاريخٍ ثقيل، والتحدي لا يكمن في تجاوز الصعاب فقط، بل في البقاء على قيد الحياة دون أن تنهار الروح تحت وطأة ما لا يمكن تحمله. الأعين التي تطل من وراء الأفق ليست مجرد نقاط في مشهد بعيد؛ هي عيون الحذر، الشك، والخوف من المجهول.

هنا، تحت هذه السماء العاتية، حيث الرياح تشد الأوتار حتى تتشقق، يكون الحب أكثر المعارك خطورة. ليس لأن القلوب تكون مكشوفة، ولكن لأن العواطف تصبح ساحة للقتال، حيث لا يوجد درع يحميها سوى الإرادة. في هذه الأرض، حيث لا مكان للضعف ولا مجال للهروب، يتحول الحب إلى سلاح ذو حدين. فإما أن يُصقل في نار التجربة، ليصبح أقوى وأكثر صلابة، وإما أن ينكسر في اللحظة التي لا يتوقعها أحد، ليُصبح رمادًا يتناثر مع الرياح.

الحب هنا ليس قصة هادئة تُروى تحت ضوء القمر؛ إنه تمرد ضد القوانين التي فرضتها الحياة. إنه تجرؤ على ما يبدو مستحيلًا، تحدٍّ للمستقبل الغامض والماضي المؤلم. وكأن كل خطوة في هذه المعركة لا تكون إلا على حافة الهاوية، حيث السراب يتنكر على هيئة حقيقة، والفرح يُخفي خلفه جرحًا عميقًا قد يظل نزيه مفتوحًا للأبد. في مكان كهذا، تحت سماء لا ترحم، يُصبح الحب أكثر من مجرد شعور؛ إنه صراع مستمر بين ما يريد القلب أن يكونه، وما تُمليه الظروف على الواقع.

وفي وسط هذا العراك، لا مفر من التساؤل: هل من الممكن أن نجد في هذه الأرض القاسية مكانًا للسلام؟ وهل يمكن لحبٍ، مهما كان عميقًا، أن يُخفف من وطأة المعركة التي تخوضها الأرواح هنا؟ هذه الأسئلة لا تجد إجابة واضحة، كما أن الإجابة الوحيدة المتاحة هي الاستمرار. الاستمرار في السعي نحو الأفق المجهول، في مواجهة معركة ليست حتمية فقط، بل هي في الأساس، ما يجعلنا نعيش.

في ظهيرة تلتهمها الشمس، حيث يتلأل الهواء بحرارة لا تُطاق وتذوب فيها الحدود بين السماء والأرض، كان كل شيء يبدو وكأنه يذوب في السكون. العرق يتبخر قبل أن يبلل الجلد، كما لو أن حتى جسد الإنسان لا يستطيع الصمود أمام قسوة هذا المكان. كان الزمن يتوقف في تلك اللحظات، لكن قلب الدكتور روان كان يضخ نبضات متسارعة، غير قادرة على الهروب من هذا الثقل الذي حلّ في الأجواء. الشمس، التي كانت تراقبها من الأعلى، كانت تحرق كل ما في طريقها، ولا تترك للظل مكانًا سوى التراجع.

ثم، في ذلك الصمت الذي قطعتة فقط زفرات الرياح الساخنة، وقفت الدكتور روان تحدّق في الأفق. كان أمامها مشهدًا غريبًا، مغلفًا بتوتر غير مرئي، ولكنه حقيقي بما فيه الكفاية. ظلّه كان طويلًا، ثابتًا، يرفع الخيمة التي نصبها وسط الصحراء كما لو كانت مصنوعة من خيوط ريح متشابكة، مهيبة، لا تُترك مكانًا للشك. كان الظل يرقص مع الأرض وكأن له حياة خاصة به، وكأن الفضاء نفسه كان يتجاوب مع حركة جسده التي كانت هي الأخرى غير مرئية تمامًا.

لم يكن وجهه واضحًا، ولكن حضوره كان أكثر وضوحًا من النور. كان كما لو أن الكون نفسه يفسح له المجال ليكون جزءًا من مشهده، كالذي يجد نفسه في قلب عاصفةٍ من الرمال، لا تستطيع أن تعرف اتجاهها أو قوتها، لكنك تشعر بوجودها بوضوحٍ في كل خلية من جسدك. كان هناك شيء في طريقة وقوفه، في الكيفية التي ظل فيها جامدًا أمام محيطه القاسي، يشي بشيء أكبر من مجرد شخصٍ عابر. كان كالظل نفسه، دائمًا موجود، دائمًا غامض، دائمًا متحرك في الفضاء الذي يصعب تحديده. كأنما كل جرح في الأرض، كل تجاعيد في الرمال، كانت تروي له قصة، وكل نظرة إلى السماء كانت تخبره بسرًا لا يفهمه سواه.

والدكتورة روان، التي اعتادت أن تكون أكثر استعدادًا لما هو واضح، لم تستطع أن تلتقط خيطًا واحدًا من هذا الغموض. كان هناك في عينيه شيء ما، يحمل أفقًا من الغموض لا يمكن تجاوزه، وكأن الطريق الذي يقوده بعيدًا عن أي محاولة للتفسير. فقط كانت تراقب، تحاول أن تجد في حركة يديه، في جسده المتصل بالأرض، شيئًا من الإجابة التي لا تأتي.

وفي تلك اللحظة، شعرت وكأن كل شيء قد توقف من حولها. الشمس، التي كانت تبتلع كل شيء، أصبحت بعيدة. الرياح، التي كانت تمزق الصمت، أصبحت غير مرئية. حتى الزمن نفسه بدا وكأنه يتنفس مع هذا الظل. وكان كل ما حولها يعيد تشكيل نفسه على وقع ذلك الرجل الغامض.

اعتادت الدكتوراة روان على رجال المدن، بكل ما يحملونه من أناقة لامعة، وروتين يومي لا يتغير، وعطور نفّاذة تملأ المكان ثم تختفي كما لو أنها لم تترك أثراً. كانوا كما قوارير زجاجية شفافة، لا يحملون من داخلهم إلا ما تراه العين، ما يقدمه المظهر، وما يشيه السطح. لم يكن أحدهم يعيننا حقاً، بل كانوا مجرد مشهد يتكرر في خلفية الحياة اليومية. لكن سالم؟ سالم كان شيئاً آخر. كان أثراً في حد ذاته، حكاية تمشي على قدميه. لم يكن مجرد رجل، بل كان مرور الزمان نفسه في شكل إنسان. جسده كان مسرحاً لآلام وتاريخٍ مضى، وقد كتبت الشمس بلهيبها وعنفوانها، حتى أضحي جلده كالخراط القديمة، مليئاً بالتجاعيد التي تنبئ عن مساراتٍ طويت منذ زمن بعيد. أما ندوبه، فليست جراحاً عابرة، بل توقعاتٍ على جسمه من زمن آخر، كل واحدة منها تحمل قصة من معركة خاضها، أو خطأ ارتكبه، أو درس تعلمه على طريقته الخاصة.

في حضوره، كان كل شيء يصبح أكثر وضوحاً، لكن أيضاً أكثر غموضاً. كان كالظل الذي يطال المكان، لكنه لا يسمح لك أبداً برؤيته بوضوح. كانت عيناه مليئتين بأسرارٍ لا تُقال، وكان كل شيء فيه يروي عن رحلةٍ طويلة، مليئةً بالانكسارات والتحديات التي تجاوزها بصمتٍ قد يعجز العالم عن فهمه.

وعندما نظر إليها ذات يوم، بنظرة ثابتة، مباشرة، ترك في القلب وقعاً غريباً، كأنما يعيد ترتيب كل المفاهيم التي كانت تعرفها، سألها بصوته الخشن:

«هل تبحثين عن شيء، دكتورة؟»

سؤال بسيط، لكنه كان محملاً بكل ما هو غير معلن. وكأن كل حرف في السؤال كان يحمل خلفه مجلدات من القصص المخبأة، تلك القصص التي لم يكن من السهل اختراقها. وكان صوته، هذا الصوت الذي كان خشناً من كثرة ما مرّ عليه، يخلق في الأجواء نوعاً من التوتر الهادئ، حيث يتوقف الزمن لوهلة، كأن الإجابة على سؤاله قد تغير مجرى كل شيء.

نظرته كانت تقطع المسافة بينهما، كأنها تطلب منها شيئاً أكثر من مجرد جواب. كانت تبحث عن شيء، لكنها لم تكن متأكدة مما تبحث عنه بالضبط. هل كانت تبحث عن الأمان في هذا الرجل، أو عن تفسير لتلك الحكاية التي حملها جسده؟ أم أنها كانت تبحث عن نفسها في مرآة نظرت، التي كانت تعكس أشياء غير واضحة؟

وسط هذا الصمت، كان الأمر أكثر من مجرد سؤال. كان دعوة لرحلة لم تكن قد قررت بعد ما إذا كانت ستخوضها أم لا. رحلة إلى أعماق لا تعرف كيف تبدأ ولا كيف تنتهي.

صوته انطلق من خلفها، عميقاً، كمن يعرف تماماً أنه لا يحتاج إلى أن يصرخ ليُسمع. كان كالرعد الذي يطرق أفق الصمت، يعلن وجوده في كل زاوية دون أن يثير الفوضى. كانت الكلمات التي خرجت منه وكأنها قد تشكلت في مكانٍ آخر، بعيداً عن هذه اللحظة، ربما في بُعد زمني لا يمكن تصوره. لم تكن مجرد كلمات؛ كانت قوة خامدة، تتسلل إلى الأذن كما لو أنها جزء من شيء أكبر، شيء لا يمكن الهروب

منه. كان صوته يملك ثقة كأنما تم تشكيلها عبر الزمن، ليس من خلال الضجيج بل من خلال الصمت العميق الذي لا يتخلى عن مكانه أبداً. الدكتوراة روان شعرت بالاهتزاز في الهواء حولها. لم يرفع صوته، لكنه كان يُشعرُها بوجوده أكثر من أي وقت مضى، وكأنما الجدران نفسها قد بدأت تتنفس معه، تتجاوب مع وقع كلماته الثقيلة. كان صوته شيئاً غير مرئي، يتسلل عبر المسافة التي تفصل بينهما، يختطفها برفق، لكنه لا يترك لها مجاًلاً للهروب.

أحست بشيء غريب في صدرها، وكأن أنفاسها قد توقفت للحظة، كما لو أن الكلمات التي نطق بها ليست مجرد كلام، بل تردد في قلبها بترنيمه قديمة، بعيدة، لكنها مألوفة، أكانت تحاول الهروب منها أم السعي خلفها؟ لم تكن تدري. كان هناك شيء محير في تلك اللحظة، شيء دفعها لتدرك أن هذا الصوت يحمل أكثر من مجرد معلومة، بل يحمل إحساساً، سكينه مخفية وراء غموضه.

التفتت إليه، لكن عينيه كانت في مكان آخر، بعيداً، غير مهتمة بما يحدث حوله، كما لو أنه لا يبحث عن اهتمامها، بل عن شيء أكثر عمقاً داخل نفسه، قد لا يكتشفه أبداً. لكن كلماته كانت قد اخترقت الحاجز بينهما، وزرعت في قلبها سؤالاً لا يمكن تجاهله.

«أنت لست كما تظنين»، قالها وكأنما هو وحده من يملك مفاتيح الحقيقة، وكأنما الزمن قد حلّ ضيفاً ثقيلاً على كلماته، يحمل في طياته أكثر من مجرد حروف عابرة.

نظرت إليه، للحظة قصيرة لكنها عميقة، كأنما الزمن نفسه توقف ليتفرّج على تلك النظرة. في تلك اللحظة، حسبت أن عينيه قد اكتشفتا شيئاً داخلها، شيئاً لم تفهمه هي بعد، ربما شيئاً كان مدفوناً في أعماقها لسنوات. كأنهما قرأتا تفاصيل روحها في لحظة واحدة، تفاصيل لم تجرؤ على مواجهتها. لكنه لم يتكلم. فقط كان هناك، ثابتاً، وقوياً، كصخرة تواجه الرياح. قلبها، الذي اعتاد أن يكون محصناً ضد كل شيء، بدأ ينبض بشكل مختلف، بشيء يشبه الخوف... لكنه كان خَوْفاً يبعث على الارتياح في الوقت ذاته.

ولكن، مع سرعة اندفاع أفكارها، كما يحدث دائماً عندما تلتقي العيون وتتشابك الأرواح، عادت سريعاً إلى نفسها. مجرد مزارع مغرور، تساءلت في نفسها. لا شيء يميز هذا الرجل عن غيره. كان يتبع خطواته بجرأة كما لو أن الأرض كانت ملكاً له، كما لو أن السماء كانت قد قررت أن تراقب فقط حين يسير. وما حاجتها لهذا الرجل؟ لكنها شعرت بشيء غريب في صدرها، شيء لم تكن لتستطيع تفسيره بكلمات. كان مجرد إحساس غير مألوف، رغم أن كل شيء كان يبدو طبيعياً.

ثم، مع أول نسمة هواء مرّت بالقرب منها، التقطت رائحة الزعر البري. كانت رائحته تُشعل في ذاكرتها ذكريات بعيدة، ذكريات عن الأرض التي نشأت فيها، عن رائحة الأعشاب البرية التي كانت تملأ الهواء في أيام الصيف الحارة. لكن هذه الرائحة كانت مختلفة الآن. كانت تلتصق بأنفها كلما مرّ بجانبها، كما لو أن الرياح نفسها كانت

تهمس لها بأن شيئاً ما قد تغير. كانت تلك الرائحة تلاحقها بطريقة غريبة، وكأنها تهرب منها فقط لتعود إليها أقوى، أكثر إلحاحاً.

لماذا؟ لماذا كانت تلك الرائحة لا تفارقها؟ ماذا كان في هذا الرجل الذي جعل الزعر البري يتناثر حوله كلما اقترب؟ لم تكن تدري، لكنها شعرت بأن هناك شيئاً في هذه الأرض، في هذا المكان، في هذا الرجل، يربطها بشيء أكبر مما يمكن أن تفهمه. ربما كان هذا هو ما يجعلها تشعر بأنها محاصرة، أو ربما كان ما يثير فيها الرغبة في الاستكشاف.

في تلك الليلة الصامتة، حيث كان كل شيء يتنفس ببطء وكأن الزمن نفسه قد توقف ليشاهد تفاصيله الصغيرة، تسلل الناي. كان الصوت خفيفاً، حزيناً، ينزل في الفضاء كما لو أنه همس من زمن بعيد، يروي حكاية لم تُروَ كاملة، حكاية مُعتمة، مُخبأة بين طيات الليل. كان مثل طيف غامض يعبر المكان دون أن يترك أي أثر سوى تلك النغمات الرقيقة التي تلامس الوجدان.

تبعته بعينين نصف مغلقتين، تلك التي اعتادت أن تكون يقظة دائماً، لكنها الآن خدعت بهذا الصوت، بهدوئه الذي حمل معه شيئاً من الندم، شيء من الحنين إلى زمنٍ كان بعيداً بما يكفي لي يجعلها تشفق له دون أن تعرفه. كانت الخطوات خفيفة، كالظل الذي يرافق القمر، وهي تقترب أكثر من مصدر الصوت. وأخيراً، عندما وصلت إلى المكان، رآته هناك، تحت نخلة يابسة، يضع جسده على الأرض وكأنما يذوب في الرمال.

كان سالم.

عيناه مغلقتان وكأنهما في سباتٍ عميق، يدها ملتصقتان بالأرض، أصابعه ممدودة كما لو كان يحاول أن يلمس قلبها هي، أو ربما كان يحاول أن يستمع إلى دقات قلب الرمال تحت أصابعه. كان يبدو وكأنه يركّز على شيء أبعد من الحواس، يحاول أن يفهم ما لا يُقال، ما لا يُحس. كان في صمته، في تلك اللحظة، أكثر من مجرد رجل ضائع في عالمه الخاص؛ كان كائنًا قد نَفَذَ من الزمن نفسه، يحاول أن يلتقط خيوطًا مفقودة من الماضي الذي لا يريد أن يمضي.

«ما الذي تفعله هنا؟» همست، وكأن الصوت ذاته كان يخشى أن يزعج تلك اللحظة الثمينة التي كانت تطفو في الهواء.

فتح عينيه ببطء، كما لو أن لحظة الحقيقة قد جاءت أخيرًا. كانت عيونه مليئة بالأسئلة التي لم تُطرح، بأسرارٍ لا يبدو أنه يملك القدرة على كشفها. كان كل شيء في هذا المكان، في هذه اللحظة، غريبًا. الصمت كان يحيط بهما، ينساب في بينهما كما لو كان مرشحًا بالزمن. «أحاول أن أسمع دقات قلب الرمال» قال أخيرًا، صوته عميق مثل الوادي، ممتلئًا بشيء من الغموض. «كل شيء هنا يملك قصة، حتى الرمل... حتى هذا الناي.»

كلماته كانت خافتة، لكنها تغلغلت في قلبها. كان هناك شيء في صوته، في كلماته، جعل كل شيء من حولهما يبدو صغيرًا، غير مهم. حتى النخلة اليابسة بدت أكثر حزنًا الآن. هو، هو وحده كان يحمل قصة من بين أنفاسه، وقد بدأ الآن يتحدث عنها، دون أن يدري أنها كانت أيضًا تسعى لتكشف عن قصتها الخاصة.

بينما كان الناي يواصل عزفه في مكانٍ بعيد، كانت هذه اللحظة تتكشف في مكانٍ ما بين الماضي والمستقبل، حيث الوقت لم يعد يعني شيئاً، والقلوب بدأت في الانصهار مع رمالٍ لن تظل ثابتة طويلاً.

في تلك اللحظة، لم يكن سالم «الرجل القوي». لم تكن هناك أي هيبة تملأ الغرفة أو تلك العزيمة التي كانت تغلف خطواته كما لو أنه يركض وراء شيء مستحيل. لم يكن، في تلك اللحظة، صوت القوة التي اعتاد أن يسمعها الجميع، بل كان شيئاً مختلفاً تماماً. كان مجرد ذكرى... خيطاً هشاً من ماضٍ بعيد، مهدم، معلق بين أيدي الزمن، يطير بعيداً كفكرة متلاشية.

كان أقرب إلى ظلٍ حاكمٍ منسي، يلوح في الأفق على أنقاض مملكته التي انهارت تحت وطأة الزمن، كما لو أنه عالق في تلك اللحظة التي شهدت سقوطه. كان ذلك الحاكم الذي كان يوماً ما يتربع على عرشٍ من الحزم، ويدير الأمور بقبضةٍ حديدية، ولكن الآن، أصبح مجرد صورة باهتة في مرآة التاريخ. لم يعد سالم هو الذي يحمل أوزار المملكات أو يعزف نغمات الحياة على أوتارها. بل كان يقف هناك، على أنقاض مملكته، يسترجع تلك اللحظات التي كانت مليئة بالزخم والاحتدام، وهو يحاول أن يفهم كيف سقطت كل تلك الجدران التي بناها، وكيف لم يبقَ شيء غير الفراغ الذي يحيط به الآن.

عينيه، التي كانت تلمع بالثقة والتحدي، أصبحت الآن أكثر عمقاً، معبأة بتجاعيد الحروب الداخلية التي خاضها. كان ينظر إلى الأرض، وكأنما يقرأ في كل حبة رمل قصة سقوطه. كان يتذكر، أو ربما يحاول

أن ينسى، المدى الذي كان يذهب إليه حتى يجد نفسه في هذا المسار المحطم. صوته الذي كان يتسم بالقوة والعنفوان، أصبح الآن غارقاً في صمتٍ ثقيل، وكأن السنين قد أخذت منه أكثر مما كان يتصور.

كانت تلك اللحظة كما لو أن التاريخ نفسه قد اجتمع في مكانٍ واحد، متمركزاً حوله. كان سالم يتساءل في قلبه، هل كان حقاً مجرد رجل قوي؟ أم كان في الحقيقة مجرد رجل يحاول أن يعثر على جزءٍ من نفسه بين الحطام؟ هل كان ينقض على المستقبل بعنف لدرجة أنه نسي أن ينظر إلى الماضي؟ ربما كانت الإجابة تختبئ بين رمال الصحراء التي تمسح قدميه الآن، في تلك اللحظة التي شعر فيها أن كل شيء حوله يتلاشى، ومعه تلاشى أثر الرجل الذي كان.

«يسموني ابن الرمال... لأنني آخر من يسمعها تتكلم.»

قالها، وصمت.

كلماته كانت بسيطة، غير معقدة، لكن وقعها كان كالمطر الذي يهبط فجأة على أرض جافة. كان هناك شيء في نبرته، في طريقة سرده، جعلها تشعر بشيء ثقيل يضغط على صدرها. لم يكن مجرد كلام، كانت تلك الكلمات تقفز من فم الرجل وكأنها تحمل معها عبئاً من الزمن، عبئاً من تاريخٍ مرّ دون أن يُسمح له بالزوال.

كان المكان يلفّه صمتٌ غريب، كأن الطبيعة نفسها كانت تنتظر إجابة، وكأن الجدران نفسها كانت تتنفس بصوتٍ خافت، تتناغم مع الكلمات التي بقيت معلقة في الهواء. كان الحديث عن الرمال أكثر من

مجرد ذكر لأرضٍ جافة، كان حديثاً عن الزمن نفسه، عن شيء لا يمكن للآخرين فهمه، عن علاقة أبدية بينه وبين هذا المكان الذي يُسكنه.

كانت قد تعودت على حياة المدن، على ضجيجها، على أناسها الذين يتحدثون بسرعة وكأنهم يهربون من شيءٍ ما. لكن هنا، حيث يقف سالم، لا يوجد أي شيء يهرول. كان المكان يستشق الوقت ببطء، وكل خطوة على الرمال كانت تشعر وكأنها جزء من لغزٍ غير مكتمل. عينا سالم كانت تتأمل الأفق، وفي عينيه كانت تختبئ أسرار لا يمكن تفسيرها.

«ابن الرمال» - كان الصوت يرن في ذهنها مثل صفير الرياح في العراء. تلك اللقب الذي منحه له الناس لم يكن مجرد تسمية، كان اعترافاً بشيء عميق في روحه. كان يعترف بماضيه الذي لا يتكلم عنه، بحياة لم تكن فقط شظايا من الحكايات التي تتناثر بين أيدي غريبة. كان يعرف شيئاً عميقاً، شيئاً غامضاً، كانت تحاول أن تلمحه، لكنها كانت تدرك أنها لم تملك الأداة لفهمه.

وفي تلك اللحظة، مع نبرة صوته التي حملت شيئاً من الحزن، شيء ما بداخلها انفجر. كانت تلك الكلمات كسرت شيئاً بداخلها، شيء كان لا يزال مغلقاً بإحكام، شيء لم تسمح لنفسها بمواجهته. شعرت بأنها تتنفس بطريقة مختلفة، وكأن الهواء حولها أصبح أكثر كثافة. كانت قادرة على سماع الرمال تتكلم الآن، كأن كل حبة رمل تحمل قصتها الخاصة، تحمل التاريخ الذي تم نسيانه.

وفي صمتها، أدركت أن حديثه لم يكن عن نفسه فقط. كان يتحدث عن كل شيء فقدناه. كان يتحدث عن المكان الذي رحلنا عنه، عن الجذور التي قطعناها، عن الحياة التي أصبحت معقدة جدًا لدرجة أننا نسينا كيف نستمع إلى الأشياء البسيطة.

في اليوم التالي، تحدّث شيخ القبيلة، وهو الرجل الذي لم يكن يعرف سوى سلطة التاريخ والحكمة المتوارثة، الذي أصرّ على أن الخرافة والسحر هما ما يسيطر على أرواح الناس هنا. كان الطفل أمامها يئن في سريره، جفونه مغمضة وعيناه تحاولان الالتقاط ما تبقى من الحياة. بينما كان يروي ما لا يستطيع فهمه عن السحر الذي سيقوده إلى الموت، كانت الدكتورة روان تقف صامدة، متحملة أعباء المهنة التي تفرض عليها الصراع مع المعتقدات الجوفاء. كان كل شيء في هذا المكان يسير بالعكس، وكان هو الوحيد الذي يفرض نفسه كمركز للقرار.

بينما كانت تهتمّ بالحديث، بأن السحر لا يشفي الأجساد المريضة، وأن العلاج الحقيقي يكمن في العلوم، وقفت كأنما تحارب معركة على جبهة مفتوحة، كان باب العيادة يفتح فجأة، ليطل عليهما سالم. كان يقف هناك، جسده طويل وأشعة الشمس المشتعلة خلفه تجعله يبدو كظلاله يتراقص على الجدران. في يده، كان يحمل سيفًا قديمًا، سيف يبدو وكأنه قد رافق الأرض طوال عمرها. كانت شفرة السيف تحت الضوء قاتمة، والسطوع عليها يوحي بعمرٍ طويلٍ من الحروب التي لم تنسَ.

لكن في عينيه، كانت العاصفة. كانت عيون سالم تقف شامخة كالجبال الموشحة بالغبار والرماد، عيون لا تكذب، تخفي وراءها طاقة تكاد تشعل كل شيء أمامها. كان صمته كالأبراج المتوجة بالظلام، ولكن كلماته كانت حادة، تسكن الفضاء بين الجمل:

«هي منّا الآن... وكلامها ككلامي.»

كانت الكلمات تتساقط من فمه ببرودةٍ تكاد تصهر قلب روان. أكان يرسل رسالة تهديد؟ أم كان يلفظ جملة استسلامٍ؟ لم تكن تعرف. لكنها كانت تشعر بشيء في الهواء، شيء يتغير. كانت تلك الجملة أكثر من مجرد تأكيد، كانت تحدّيًا في حد ذاته. لم يكن هناك وقت لانتظار ردّ، لم تكن عيون سالم بحاجة إلى تعبيرات إضافية لتكون كافية لملء الغرفة.

ابتسامةٌ ضعيفة تظهر على شفثيه. تلك الابتسامة التي لم تكن أبدًا مليئة بالرحمة، بل كانت تلميحًا قويًا لشيء آخر قد يبدأ الآن، شيء لا يستطيع أحد أن يتوقعه. كان كل شيء يشير إلى بداية جديدة، مرحلة تتجاوز حدود النعمة والسلطة. وعيناه لم تفارقا الدكتوراة روان، كانت كلماتها على وشك التبدل في عيون الجميع.

في تلك اللحظة، وقفت روان أمام شيخ القبيلة، وبينهما سيف لا هوادة فيه، وقلبٌ يتحدى المنطق والقدرة على الفهم.

وصمت الرجال، وكأن التاريخ نفسه قد نطق، فتوقف الزمن لوهلة. كانت العيون تتبادل النظرات في صمتٍ مشحون بالكثير من الأسئلة،

والكثير من الغموض. كان الغبار يرقص في الهواء، وكأن الأرض نفسها كانت تحتفظ بذكريات قديمة، تنفسها مع كل نسمة. ثم، فجأة، جاءت البئر. كانت مجرد بئر، شيء طبيعي في هذه الأرض، لكنها كانت أكثر من ذلك بكثير. كانت تمثل سرًا قديمًا دفنته الأجيال في أعماق أعماقها، وكان ظهورها الآن يعني أن شيئًا ما قد اقترب من النهاية، أو ربما من البداية.

كل شيء تغير في لحظة واحدة. كانت الدكتورة روان، التي اعتادت على الأدوات الطبية، التي كانت تفكر دائمًا بالأدوات الحديثة والآليات المعقدة، تنظر الآن إلى البئر المظلمة بعيونٍ تبحث عن إجابات. أرادت أن تنفذها، أن تُخرج هذه الروح المحتجزة داخل هذا السجن القديم، باستخدام الحبال والأنابيب التي تعلمت استخدامها في كل مكان. ولكن حين مدت يدها، شعرت بشيء ثقيل يثقل قلبها، شيء لا يمكنها تجاهله.

ثم جاء الصوت. لم يكن عاليًا، لكنه كان عميقًا، قادمًا من مكانٍ لا يمكن تحديده. كان سالم يقف هناك، عينيه مشدودتين إلى البئر، لكن يده كانت ممتدة نحوها، ممسكة بها بقوة. «الرمل لا يحب الأقفاص. تعالي.»

كان صوته يشبه الهمسات التي لا تخرج إلا من بين جدران قديمة، تُسمع فقط لمن يعقلها. كان يتحرك بشكل بطيء، لكنه حازم. لم يكن يتحدث عن البئر فقط، كان يتحدث عن الأرض نفسها، عن هذه الصحراء التي كانت تبطنها أسرارٌ لا تُقال، ولا يُمكن فهمها. كانت

كلماته أشبه بحكم قديم، عميق كجذور الشجرة التي لا تراه ولكنها تمتد في عمق الأرض.

«تعالى.» كان يقولها وكأن الأرض تتكلم من خلاله. لم تكن مجرد دعوة، بل كان أمرًا يُحسّ بشدة، وكأن هذا المكان هو الذي يوجه الأمور، وليس الناس.

قادها إلى قلب الأرض، إلى مكان لا تجرؤ الكثير من الأرواح على دخوله. كان الضوء خافتًا، والمكان ضيقًا، لكنه كان حيًا. مغارة من جذورٍ متشابكة، حية، تنبض بالحياة وتصرخ في وجه كل من يقترب منها. كانت جدرانها مليئة بالكلمات التي لا تستطيع الترجمة، ومملوءة بأصداء من ماضٍ بعيد، صوته يضيع في الأرجاء.

«هذا... قلب القرية. من يمسكه... يمسك بالمصير.»

كانت كلماته تتناثر في الأرجاء، لكن لم تكن هي من سمعتها أولاً. كل حجر، كل عرق في الجذور كان يردّد كلماته بصوتٍ أعلى. كانت الأرض نفسها تتنفس هذه الكلمات، وكان الصوت ينمو في فمها قبل أن تلتقطه. كان الصمت الذي يخيم على المكان، ممتلئًا بالمزيد من المعاني.

«من يمسكه... يمسك بالمصير.» كانت تردد الكلمات في ذهنها، تحاول أن تفهم. هل كان يقول أن هذا المكان يمتلك القدرة على تغيير كل شيء؟ هل كانت هذه المغارة مفتاحًا لفهم الماضي؟ أم كانت هذه البئر، التي تعتبر بداية النهاية، بداية لشيء أعظم؟

في تلك اللحظة، أدركت الدكتورة روان أنها لم تكن في مكانٍ عادي. هذا لم يكن مجرد صراع من أجل النجاة. كانت هناك لعبة أكبر تلعب في هذه الأرض، لعبة لا يمكنها أن تُفهم إلا من خلال الانصات إلى ما تحت الأرض، ما بين الجذور، ما في الهواء.

وفي تلك الليلة، وبينما كانت الرياح تعوي كأنها تهمس بأسرار قديمة، فتحت الدكتورة روان صندوقًا قديمًا كان مغطى بطبقة من الغبار. لم تكن تعلم ماذا يمكن أن تجد فيه، لكنها شعرت بأن لحظة اكتشافه قد حانت. بيدن مرتجفتين، رفعت الغطاء، وكان الصوت الذي أحدثه الصندوق كدويّ الرعد في صمت الليل.

وجدت الحقيقة هناك، مختبئة بين صفحاته البالية. وثائق مهترئة بأختام قديمة وأسماء تعود إلى أزمان سابقة، لكنها كانت أسماؤها وكأنها قد خرجت من غياهب التاريخ، تتنفس الحياة من جديد. ومع كل صفحة قلبتها، كانت الدكتورة روان تشعر بشيء غريب يتسرب إلى روحها، شيئًا لا يمكنها تفسيره. ثم، وبينما كانت تغمرها تلك الأوراق، تلمح شيئًا آخر تحتها.

صورة قديمة، مُصفرة من الزمن، وكانت امرأة تنظر إليها بنظرة عميقة كأنها تنبض بالحياة. كانت تشبهها تمامًا. وكلما نظرت إليها، كلما زاد الألم في قلبها، كما لو أن شيئًا قد تمزق بداخلها. كانت المرأة في الصورة تتبسم ابتسامة غامضة، وكأنها تحمل سرًا لا يُقال.

«أميرة الرمال... التي رحلت مع ماء الحياة.» همس الصوت خلفها، مدويًا في تلك اللحظة.

ارتجفت، وحاولت أن تلتفت، لكن قبل أن تتمكن، تابع الصوت:
«تظنين أن قدومك كان صدفة؟»

كان خلفها. كان يراقبها طوال الوقت.

التفتت إليه، وعيناه تتوهجان كالجمرة في الظلام. كان وجهه غارقاً في الظلال، لكن نظرتة كانت أشد من أي ضوء، تمزق كل شيء حولها. لم يكن بحاجة للكلام، لكن كلمات تعمق الجروح في قلبها.

«الرمال تنادي من كان له دين... والتاريخ، يا دكتورة، لم ينسَ بعد.»
كلماته كانت ثقيلة، ثقيلة كالصخور التي تن تحت ثقل الزمن. كانت تحمل في طياتها وعداً وتهديداً، كل شيء كان مشدوداً إلى تلك اللحظة التي تعيد تشكيل كل ما كانت تعرفه.

منذ تلك الليلة، لم تعد الدكتورة روان كما كانت. كان هنالك شيء قد انكسر في أعماقها، شيء لم تستطع تحليله أو فهمه. كانت تشعر كأنها أصبحت جزءاً من هذه الأرض التي طالما كانت تبتعد عنها. كأن التاريخ قد استفاق ليعيد رسم ملامحها، ليذكرها بماضيها الذي كانت تظن أنه قد انتهى. أصبح لديها شعور غريب أنها كانت مجرد حلقة في سلسلة طويلة من الأحداث التي لا تهدأ، وأن كل خطوة تخطوها قد سُطرت قبل أن تولد.

لم تكن قادرة على الهروب. لم تعد تستطيع مقاومة نداء الرمال، الذي كان أقوى من كل رغبة في العودة إلى حياة كانت تعرفها.

ولم يعد ظلّها يمشي وحده. في البداية، كانت تظن أن هذا مجرد أثر من أثر الأيام المتلاحقة، أو ربما كان خيالها يراوغها بعد أن تعودت

على الوحدة. لكن مع مرور الوقت، بدأت تلاحظ التغيرات. كلما مرّا بجانب النخلة الضخمة في ساحة العيادة، كان ظلّاهما يتشابكان معاً، كرقصة قديمة بين عاشقين أو ربما بين عدوين، لا تستطيع التفرقة بينهما. كان ذلك الظلّ يلتف حولها بشكل غامض، كما لو كان يحدّ من حريتها ويدفعها نحو مصير لا مفر منه. وبينما كانت تحاول تفسير هذه الظاهرة، كان قلبها يخفق، وكأن شيئاً ما قد بدأ يتشكل في أعماقها، شيء مظلم وغير واضح، لكنه لا يزال يسحبها بلا رحمة.

في ليلة العاصفة الكبرى، حيث كان الهواء يعصف بكل شيء حولها، وكان الرعد يزمرجر في السماء كوحشٍ غاضب، جلست الدكتوراة روان في مكتبها، توقّع أوراق العيادة. كانت يدها تتحرك بتلقائية، توقّع على الأوراق التي كانت تتراكم أمامها، لكن عقلها كان بعيداً. كانت العاصفة في الخارج تملأ المكان بصوتها المدوّي، ولكنها كانت تشعر بشيء آخر، شيء يتسرب إلى المكان كما يتسرب الماء في الشقوق. شعرت بشيء غريب في جوفها، كما لو كانت قوة غير مرئية تراقبها.

ثم، وبينما كانت ترفع رأسها لتلتقط نفساً عميقاً، وقع بصرها على شيء غريب على الطاولة. كانت ورقة صغيرة، مطوية بعناية، وكأنها كانت تنتظر أن تجدها. حركت يديها المرتجفتين نحو الورقة، وسحبتهما برفق، كأنما كانت تلمس شيئاً مقدساً. فتحتها بحذر، وأخذت تنظر إلى الكلمات المكتوبة عليها.

كانت الرسالة بسيطة، لكنها كانت تحمل في طياتها قسوة الزمن نفسه. كانت كلماتها تقطر من الظلال التي كانت ترافقها في كل خطوة، وكأنها تعيد إليها شيئاً مفقوداً من ماضيها. قالت الرسالة:

«الظلّ لم يكن يمشي وحده، أتعرفين؟»

أحست ببرودة تجتاحها، كما لو أن الرياح نفسها قد دخلت إلى قلبها. كان ما قرأته يثير في أعماقها قلقًا متصاعدًا، وكأنها قد دخلت في عالم آخر، حيث لا يمكن العودة إلى ما كانت تعرفه من قبل. كانت تحاول أن تتنفس، لكن الهواء أصبح ثقيلًا. كانت الرسالة تُخبئ أكثر مما تقدّم، والشكوك كانت تتجمع حولها كغيمات داكنة.

ثم، وسط العاصفة، شعرت أن اللحظة التي كانت تهرب منها قد وصلت أخيرًا.

دُمّ جاف، خطّ مرتجف، لا يكاد يُقرأ إلا لمن كانت عينا قلبه مفتوحتين على الهاوية.

«حين يُشرق القمر الأحمر... سيُغلق القفص.»

كانت الكلمات محفورة كوشم على جسد الورقة، أكثر منها مكتوبة. تحت السطر المهدد، كان الختم واضحًا: صقر ينقّص على أفعى، يلتهمها في قبضة لا تعرف الرحمة. لم يكن الختم مزخرفًا كأختام الملوك، بل كان بدائيًا، صادقًا كطعنة.

لم يكن بحاجة إلى اسم. توقعه كان سكينًا مألوفًا في ليل القبيلة... كابوسًا قديمًا لم يجرؤ أحد على النطق به.

الدكتورة روان وقفت تتأمل الورقة، والعاصفة في الخارج تزداد جنونًا. أصابعها لامست الدم اليباس على الحروف كمن يتحسس ندبة قديمة على جسده. شيء ما في صدرها، كان ينفجر ببطء. خوف؟ ربما. شوق؟ أكثر مما أرادت أن تعترف.

ابتسمت. ابتسامة خفيفة، شاردة، كمن يسمع فجأة نعمة يعرف أنها ستقوده إلى نهاية لم يعد يريد الهرب منها.

لقد بدأت اللعبة...

لكن هذه المرة، لم تكن لعبة تحايل على القرية، ولا صراعاً مع الخرافات.

كانت هذه... اللعبة الحقيقية.

حيث لا يقف في منتصف الرقعة إلا من كانت روحه مستعدة لأن تُبتلع كاملة، ثم تولد من جديد.

وحين يُشرق القمر الأحمر... ستعرف روان كم من الأبواب خلعت، وكم من الأقنعة سقطت، وكم من الأقفاص أُغلقت دون أن يشعر أحد إلا بعد فوات الأوان.

كانت الليلة تعدّ أنفاسها الأخيرة، وكانت الرمال، هناك، بعيداً خلف الجبال، تبدأ بالتحرك.

كأن الأرض كلها تتحفّز لصيحةٍ لم تُطلق بعد... لكنها آتية، آتية كقدر لا يعرف الرحمة.

وابتسمت روان ثانية... بعينين أصبحتا جزءاً من الظلام.

في ليلةٍ بدت فيها السماء وكأنها تُخفي دموعها خلف الغيوم، تعانقت أصوات الذئاب مع صراخ أم فهدي، كأن الصحراء نفسها تنزف وجعاً لا يُقال. كانت الريح تعصف كجنّاح مكسور، تدفع برائحة الدم والخوف

إلى أقصى أطراف القرية، حيث حتى الرمال بدت وكأنها تتحسّس وقع المصيبة.

في غرفةٍ صغيرة تخنقها الجدران الطينية، غرفة بالكاد يتسع فيها الهواء إلا للرجاء، وقفت الدكتورة روان.

ثوبها الأبيض الذي حملته معها من مدينةٍ بعيدة صار الآن ملطخاً بدم الحياة، بقع داكنة تذكّرها أن بين يديها لم يعد الأمر نظرياً، بل كان الحرب نفسها.

يديها المرتجفتان لم تتركا الملقط الجراحي، كأن بين أصابعها خيطاً رقيقاً من القدر، إن تركته انفلت كل شيء إلى هاوية لا قاع لها. أما قلبها... كان يطرق باب معجزة، طرّقاً متسارعاً، خائفاً، كمن ينتظر رداً من سماء لم تعد تعد بشيء.

لم تكن هذه مجرد ولادة.

كانت نزالاً صامتاً.

معركة غير متكافئة بين معرفةٍ جاءت من مختبرات المدينة، وبين معتقداتٍ وُلدت من رحم الأرض، أرضٍ تحفظ أسرارها في الرمال ولا تسلمها إلا بثمان باهظ.

خارج الغرفة، كان شيخ القبيلة يتمتم بأدعية قديمة، وعجائز يضغطن خرز المسابح بأصابع خائفة.

البعض كان يؤمن أن ما يحدث من صنع الجن، والآخر يظن أن الدكتورة نفسها قد جلبت «لعنة المدن».

لكن روان لم يكن لها رفاهية التصديق أو التكذيب.
كان أمامها جسدان صغيران، يتصارعان مع الحياة، وأم تنزف العمر
بين صرخة وأخرى.

لحظة، فقط لحظة، شعرت وكأن الأرض تميل تحت قدميها.
ثم... فجأة، صرخ المولود.
صرخة هزّت سكّون الليل كما لم تفعل كل صيحات الذئاب.
تجمد الزمن.

حدقت روان في الطفل الملفوف بدم الطين والمطر.
ثم، كما لو أن السماء وافقت أخيراً على الصلح، انشقت الغيوم،
وانهمر مطر خفيف كدمعة متأخرة.

غسلت قطراته دماء الأرض، وجرفت معها الخوف.
شهقت أم فهد، دموعها تختلط بالعرق والدم، وعيناها تبحثان عن
المعجزة التي لا تصدقها بعد.

روان، بيدين مرتجفتين ولكن منتصرتين، رفعت المولود إلى النور
والخافت.

صوت أنفاسه الصغيرة، رقيقاً ولكنه حاضر، دقّ كجرس نصرٍ عتيق.
وفي الخارج، سُمع أول زغرودة، شقت الليل مثل برقٍ بلا عاصفة.
لكن روان، رغم كل شيء، لم تبسم.
كانت تعرف أن النصر الأول لا يعني نهاية الحرب.

بل ربما، كان مجرد بداية للعبة أكبر...

لعبة قُدِّر لها أن تخوضها، في أرضٍ تتحدث بالرمْل والصمت والدم.
العجائز تحلّقن حول الباب الطيني، وجوههن المتغضنة متشابكة
بين الظل واللهب، تمتنّ أدعيةً قديمة، همسات متقطعة حملتها الريح
كما لو كانت أناشيد موتى ضلوا الطريق.

بعضهن بكى بحرقةٍ خرساء، دموعهن تسيل على وجوههن كأخاديد
حفرها الزمن.

وبعضهن لعن، كلماتهن تتطاير كشررٍ عاجز أمام عاصفة لا تراها
العيون.

«اخرجي الشيطان منها!»

صرخت إحداهن، صوتها مجروح بالخوف أكثر مما هو مشبع
بالغضب.

ارتجفت الغرفة مع الصرخة، كأن الجدران نفسها تشهق، تتردد بين
الحكايات التي حُفرت فيها وبين حقيقةٍ تولد على يدي امرأة جاءت
من خلف الأفق.

لكن الدكتورة روان لم تردّ.

ظلت صامتة، مثل صخرة تتحدى المدّ.

كانت يداها تتحركان بثبات فوق الجسد الصغير، تحارب الموت
بالعلم والإيمان معاً، بينما عيناها—تلك العينان المشتعلتان بنورٍ

داخلي لا يخبرو—تحدثان، تقولان بلا صوت ما لم تجرؤ الكلمات
على حمله:

«هذا ليس شيطاناً... هذا حق في الحياة. هذا نورٌ يُبعث في العتمة.»
وفي اللحظة التي بدا فيها أن الريح ستبتلع كل شيء، علا صوت بكاء
الطفل.

لم يكن مجرد بكاء.
كان كصرخة نسر يشق سماءً كسيرة.
كان وعدًا.
وعدًا ولد من بين شقوق الألم والتقاليد والعناد... وعدًا بدأ للتو.
ساد صمت ثقيل.

حتى أنفاس العجائز انحبست، كأن الصحراء نفسها تنتظر لتقرر:
هل ستمنح هذا القادم الجديد فرصة؟

ثم ببطء، بدأت الهمسات تتحول إلى نظرات، والنظرات إلى دموع،
لا أحد يجرؤ على لمس الطفل، ولا أحد يجرؤ على إنكار المعجزة
التي تجلّت أمامهم.

روان، بثوبها الملطخ، بشعرها المبلل بالعرق، كانت واقفة وسطهم،
امرأة لم تعد فقط طبيبة.

كانت شاهداً على معجزة.

وكانت، دون أن تدري، قد فتحت باباً سيقودها إلى أعماق تاريخٍ
كان نائماً... بانتظارها.

ومنذ تلك الليلة التي تلوّن فيها هواء القرية برائحة الدم والحياة، لم تعد أم فهد مجرد امرأة عادية.

صارت شيئاً أكبر.

«والدة النمر»... هكذا سموها.

اسمٌ حمل في طياته شيئاً من الهيبة، شيئاً من الأسطورة.

لم تكن فقط أمّاً لذلك الطفل الذي بكى وعدّاء، بل غدت رفيقة الطريق الخفي الذي اختارته الدكتورة روان دون أن تدري.

كانت الحصن الصامت وقت العاصفة، والسيف المختبئ في غمده، ينتظر اللحظة التي يجب أن يُشهر فيها.

لم تبسم كثيراً، ولم تتحدث كثيراً، لكن عينيها كانتا تتكلمان بلغةٍ لا يخطئها من يعرف لغة الألم والانبعاث.

أما القرية...

القرية التي عاشت طويلاً خلف جدرانٍ من خوف وعادات متحجرة، لم ترَ في بكاء الطفل معجزةً.

لم تسمعه نبض حياة جديدة.

بل رأوه شرخاً خطيراً في الجدار الذي ظنوه أبدياً، جدارٌ صلبٌ من المعتقدات والخرافات التي صاغوها حول أنفسهم كما تصاغ الحصون حول مدينة خائفة.

داخل الأزقة الضيقة، خلف الأبواب المتهالكة والنوافذ التي لا تفتح إلا للتجسس، كان الخوف يتخمر.

خوفٌ ليس من الدكتوراة روان وحدها... بل مما تمثله: التغيير.

ولأن التغيير كان مرعباً أكثر من الموت ذاته، تكوّنوا في صمتهم، كأنهم يعرفون أن العاصفة قد بدأت بالفعل، وأنهم مجرد أوراقٍ تنتظر أن تقتلعها ريحٌ لم تأت بعد.

وفي ساحة القرية الصغيرة، حيث كان الوقت يتكشف كالطين، جلس حارس الذاكرة.

كان يُقلّب مسبحته ببطءٍ، خرزةً بعد خرزة، كأن كل خرزة تستدعي شيطاناً من ماضي القرية الدفين.

صوته خرج خافتاً، ثقيلاً كقطعة حجر، وهو ينظر إلى الرجال المتحلقين حوله:

«هي لا تُداوي...»

توقف قليلاً، ابتلع صمته كما يبتلع المرء نذير شؤم.

ثم أكمل، عابساً:

«...بل تُحرّض.»

وبينما كان الجميع يصغي لصوته الذي تسلسل إلى عظامهم، كانت الرمال في الخارج تتململ...

كأن القرية كلها تستعد لليلة لا يشبه فيها شيء الأمس.

في ظهيرةٍ ثقيلة، حين التصق الغبار بالجلد وصار الهواء كالسكاكين، حدث التصادم الأول.

كانت ساحة القرية مكتظة، كخلية نحل ضربها الخوف.

رجالٌ وقفوا على استقامة عسكرية، ونساءٌ تحتمين بعباءاتهن،
وأطفالٌ يلتقطون القلق من عيون الكبار كما يلتقطون الحصى عن
الأرض.

في وسط الساحة، وقفت الدكتورة روان بثوبها الأبيض الذي لوّثته
الرمال، لكنه ظلّ، رغم كل شيء، علمًا مرفوعًا بوجه العاصفة.
بجانبيها أم فهد، عيناها تقدحان صمتًا قاتلًا.

ثم تقدم حارس الذاكرة.
عباءته السوداء تجرّ ظلًا طويلاً خلفه، كجنازةٍ تمشي على قدمين.
وقف أمامها، عيناها ضيقتان كفكين يريدان أن يلتهمانها.
«يكفي.»

قالها وكأنها حكم إعدام.
الرجال تمتموا خلفه، والهواء صار ثقيلًا لدرجة أن الصمت نفسه
انكسر.

«العلاج...» صوت حارس الذاكرة كان يقطر احتقارًا، «...لا يخرج
من يد غريبة. العلاج من يد رب الأرض، لا من طبية دخيلة.»
ابتسمت روان بهدوء، لكنها كانت ابتسامة تحمل وعدًا بالتمرد.
خطت خطوة للأمام حتى صار بينهما أقل من ذراع.
«ومن علّم رب الأرض الطب؟»
سؤالها جاء كصفعةٍ، قاسية وصامتة.

شهقت بعض النساء، تحرك الرجال كأنهم على وشك الاندفاع،
لكن يد حارس الذاكرة رفعتهم دون كلمة، كأنها شفرة لا ترى.

«أنتِ خطر.» همس، كمن يلعن أكثر مما يتهم.

فردت ظهرها أكثر، ورفعت صوتها حتى ارتجت الجدران:

«الخطر... هو أن نعيش أسرى الموت ونعبد الجهل!»

في لحظة، انقسمت الساحة إلى نصفين:

نصفٌ خائفٌ ينظر إلى الأرض، ونصفٌ تتلأأ في عيونه شرارة لم
يرها منذ أجيال.

ومع أول نسمةٍ مرت عبر الساحة، كان واضحاً أن المعركة الحقيقية
قد بدأت...

معركة لم تكن فيها السيوف هي السلاح، بل الكلمات، والإيمان،
والخوف الذي يتصارع مع الرجاء في قلوب الجميع.

وقبل أن يردّ حارس الذاكرة، قاطعهم صوتٌ مذعور جاء من طرف
الساحة:

«النخلة العتيقة... تحترق!»

صرخةٌ شقت الهواء مثل نصلٍ أعمى، فأدار الجميع رؤوسهم في
وقتٍ واحد.

من خلف الجدران الطينية، كان الدخان يتلوّى، أسود وثقيلًا،
كأفعى استيقظت بعد ألف عام.

ارتفعت أصوات الصياح، واندفع الرجال والنساء كجداولٍ جامحة
نحو مصدر الحريق.

أما الدكتورة روان، فلم تتحرك.

ظلت واقفة هناك، وسط الساحة الخالية تقريباً، تراقب الدخان وهو
يتلوى فوق القرية...

شعرت أن الأرض تحت قدميها تتنفس بطريقة غريبة، وكأن الرمال
نفسها تحكي قصة أقدم من الزمن.

اقترب منها سالم، لم تسمع خطواته، لكنها شعرت به، كما يشعر
العطشان بقرب الماء.

«بدأت النار...» همس بصوتٍ خافت لا يسمعه إلا من ماتت نصف
روحه.

«أي نار؟» سألت، وعيناها تحدقان في الدخان المتصاعد.

لم يجب.

مدّ يده نحوها، راحةٌ خشنة، لكنها ثابتة، تطلب الثقة أكثر مما تطلب
الطاعة.

«حين تحترق النخلة، يبدأ اختيار الأرض لأسيادها.»

قالها كمن ينطق نبوءة لا رجعة عنها.

شعرت بقشعريرة باردة تزحف على عمودها الفقري.

ليس الخوف مما رأت... بل من الذي لم تره بعد.

وسمعت في قلبها، لا في أذنها، همساً آخر:

«كل شيء كان ينتظرك... وأنت الآن في قلب الإعصار.»

لكن التهديد لم يكشف عن نفسه بوجه مكشوف، بل تسلل خبيثاً،
مموهاً خلف قناع من الورق المهترئ.

مذكرة خافتة اللون، كُتبت بحبر جاف وخط مرتجف، خط يد تعرف
جيداً مسالك الكراهية وممرات الانتقام.

ندى، الطفلة الصغيرة التي انتزعتها الدكتوراة روان من بين أنياب
الموت قبل أشهر، هي من عثرت على الرسالة.

كانت الورقة منزوية تحت باب العيادة، كأنها شبح يتوسل الدخول
أو لعنة تنتظر ضحيتها.

رفعتها ندى بأصابع مرتجفة، وركضت بها إلى روان، التي أحسّت
منذ الوهلة الأولى أن شيئاً مظلماً قد عبر عتبة المكان.

بخط مائل، حاد كالسكاكين، قرأت روان الكلمات القليلة التي
زرعت الرعب في قلبها:

«عودي... قبل أن نجتمعك شظايا.»

كان في بساطة الكلمات قسوة لا تحتمل، تهديد يقطر سمّاً، وكأن
أحدهم قرر أن يعيد فتح الجراح القديمة، لا ليلا مسها بل لينكأها حتى
الموت.

في تلك اللحظة، لم يكن المكان مجرد عيادة، بل صار مسرحاً صامتاً
لخطر يقترب، خيطاً رفيعاً من الرعب يمتد بين الماضي والحاضر، بين
قرار اتّخذ ذات زمن، وندم يتربص عند الباب.

روان، التي أنقذت حياة، تجد نفسها الآن مهددة بفقدان حياتها...
قطعةً قطعة.

حدقت روان في الكلمات طويلاً، حتى شعرت أن الحروف تنبض
على الورقة ككائن حي.

ندى كانت واقفة بجوارها، تنظر إليها بعينين واسعتين مملوءتين
بالذعر، وكأنها تنتظر أن تشرح لها كيف يمكن للشر أن يتسلل إلى
الأماكن الآمنة.

روان تنهدت ببطء، وأطبقت يدها على المذكرة، كمن يحاول أن
يخنق الخوف نفسه.

لم يكن التهديد غريباً عنها؛ لقد عرفت منذ اللحظة التي قررت فيها
أن تتدخل أن هناك ثمناً ستدفعه.

لكنها لم تتخيل أن الثمن سيأتي بهذا الشكل: رسالة تحمل بين طياتها
رائحة الخطر، وطفلة بريئة ترتجف من حولها.

في تلك اللحظة، لم يكن في العيادة سوى صوت عقارب الساعة،
وهي تطرق الزمن طرْقاً مريباً.

مدّت روان يدها إلى الهاتف، ثم توقفت. من تتصل به؟ الشرطة؟
وهل تكفي شرطة العالم لحمايتها من أشباح تعرفها جيداً، أشباح
الماضي التي لا تقيدها قوانين ولا تردعها أبواب موصدة؟
خفضت رأسها نحو ندى وربت على شعرها.

ابتسمت للطفلة ابتسامة مرتبكة، محاولة أن تخفي الزلزال الذي
كان يهز قلبها.

«لا تخافي يا ندى»، همست، بصوت بدا غريباً حتى على مسامعها.
«كل شيء سيكون بخير.»

لكنها عرفت أن هذه الجملة لم تكن سوى محاولة يائسة ل تهدئة
الطفلة... ول تهدئة نفسها أيضاً.

كانت تعلم أن عليهم المغادرة الليلة.
أن هناك من يراقب... ينتظر اللحظة المناسبة ليحول التهديد إلى
واقع.

رفعت عينيها نحو النافذة...
الليل كان يهبط على المدينة كوشاح أسود ثقيل، وكأن العالم كله
يتآمر كي يخفي وراءه ما هو آتٍ.

في صدرها، كانت ثمة يقظة جديدة تولد... يقظة امرأة تعرف أن
الهروب لم يعد خياراً.

هذه المرة... عليها أن تواجه.
كانت زهرة الياسمين، مذبوحة على جانب الطريق، تلك هي
الإشارة.

ليس مجرد زهرة ذبلت أو ساقطة على الأرض، بل كانت كما لو أنها
جزء من رسالة قد تكون قاتلة في بساطتها، لكنها كانت تحمل في طياتها
رمزية غامضة، رمزية خيانة لا يمكن إخفاؤها.

قطعوا ساقها وألقوها بلا رحمة، وكأنهم أرادوا أن يقتلعوا من قلب الأرض أملًا نبت فيها يومًا ما.

الياسمين، الذي كان يومًا رمزًا للجمال البسيط والنقاء، أصبح اليوم شاهداً على الخيانة والظلام الذي بدأ ينمو بين الحلم والواقع.

وبينما كانت الرياح تحرك بثقل أوراقها المتناثرة، كان المشهد يوحي بأن شيء عميقاً قد تغير.

لم يكن الأمر مجرد زهرة ذبلت، بل كان استئصالاً لروح، لبراءة، لما كان يومًا يملأ الهواء بعطر الأمل.

أما من نظروا إليها، أولئك الذين يسكنهم الخوف من التغيير، فقد فهموا الرسالة تمامًا.

لقد كانت علامة على الخيانة، تلك الخيانة التي يعاني منها كل من يرفض الحياة الجديدة، تلك الحياة التي تحمل وعدًا بالتحول لكن بثمر باهظ.

في أعينهم، كانت الزهرة مذبوحة كما لو أنها استعارة لحلم محطم، لثورة لم تكتمل، لقرار قد اتخذ وارتكبت على إثره جريمة غير قابلة للغفران.

بينما كانت الشمس تنحدر في السماء، تحول الغروب إلى مشهد غريب، قاتم.

كان العالم كله يراقب، وكان قلبها ينبض ببطء تحت ضغوط تلك الرمزية، وكأن الزهرة مذبوحة ليست فقط جسداً ميتاً، بل بداية النهاية لحلم كان يُراد له أن يولد في مكانٍ آخر.

لكن هل يمكن للخيانة أن تُذبح في وضح النهار، وتظل بلا عقاب؟
هل يمكن للأمل أن يموت بهدوء، دون أن يترك وراءه آثارًا من
الدموع أو الألم؟

أم أن الدموع القادمة ستكون مملوءة بالثأر، أولئك الذين يرون في
الزهرة المذبوحة بداية لحرب جديدة، لحياة جديدة، تتجاوز جراح
الماضي؟

ورغم أن عطر الياسمين لم يعد يغمر المكان، كانت الرغبة في
التغيير، تلك الرغبة التي لطالما كانت حلمًا في القلب، ما زالت تشتعل
في الظلام، تحت رماد الخيانة.

كانت الأرض، التي رَسَمَت عليها الزهرة المذبوحة، الآن خالية من
أي أثر لحياة جديدة.

لكن بينما كان الموت يطغى على المكان، كان ثمة ظل يراوغ. ظلٌّ
يشق الطريق بهدوء، منقُصًا على كل ما كان يعوق تطور هذا العالم الذي
يحاول أن يُبنى. كانت هذه اللحظة فارقة، حيث تحول هذا المشهد من
مجرد رمز للخيانة إلى مقدمة لثورة غير مرئية، ثورة لا تعرف الرحمة،
ولكنها حتمًا تحمل وعدًا بالجديد.

ريم، التي كانت تراقب من بعيد، لم تكن مجرد شهود على الحدث؛
كانت جزءًا من هذا الحلم الذي يوشك على الموت.

رغم أنها كانت تشعر بأن كل شيء ينهار حولها، كان هناك شيء
في داخلها يرفض الاستسلام. كانت تذكر نفسها كل يوم أن الزهور لا
تموت في الهواء الطلق، بل تموت في القلوب الخائفة.

ها هي تقف الآن على حافة الواقع، حيث المذبوحة الياسمينية قد أصبحت مرآة لما قد تصبح عليه حياتها إذا استسلمت.

مرت سنوات من الصراع الداخلي، سنوات من محاولات البحث عن مكان في هذا العالم المتغير، ولم يكن أحد من حولها يدرك حجم التضحيات التي تحملها.

حتى الآن، لم تكن قد قررت بعد ما إذا كانت ستغادر أو تظل، لكن شيئاً في تلك الزهرة المذبوحة جعلها تدرك شيئاً عميقاً: لا يمكن للإنسان أن يبقى في الظلام ويأمل أن يأتي النور. كان عليها أن تختار.

في تلك اللحظة، اقترب منها سامي، وهو الشخص الذي لطالما حمل لها علامات الغموض والقلق. كان رجلاً يرى العالم من زاوية أخرى، زاوية تعتقد أن الحقيقة لا تكمن في الزهور أو في الجمال، بل في الدموع والألم.

«لماذا تفكرين في كل هذا؟» سألتها بنبرة غامضة وهو يراقب الزهرة الميتة.

«ألا ترين أن العالم يحتاج لهذا؟ يحتاج لدماء جديدة، لتضحيات جديدة، كي يولد من جديد؟»

كان حديثه مليئاً بالقوة، لكنه في الوقت ذاته كان يحمل في طياته سؤالاً صعباً: هل يمكن أن تكون الخيانة هي الثمن الذي يجب دفعه كي يكون هناك تغيير حقيقي؟

سامي كان لا يزال في قلب الصراع الذي يعيشه الجميع، صراع لا يعرف الرحمة ولا الغفران. وكان يعتقد أن الحياة لا تملك قيمة إلا إذا تم سكب الدماء في أرضها.

لكن ريم كانت ترى الأمر بطريقة أخرى.

«الخيانة ليست ثمنًا»، قالت بصوت مملوء بالحيرة.

«إنها مجرد زهور ذابلة... قد تحاول أن تثبت مجددًا، ولكن لا شيء يعود كما كان.»

ورغم كلماتها التي كانت تحمل ترددًا، كان بداخلها يقينٌ بأن التغيير، إن كان حقيقيًا، يجب أن يكون خاليًا من العنف، خاليًا من الخيانة.

وفي تلك اللحظة، أدرك سامي أن ريم قد لا تكون جاهزة لمواجهة العالم كما هو، وأنها ستظل دومًا تراهن على الأمل في عالم تخلت عنه الزهور. لكنه في أعماقه كان يعلم أن هذا الصراع سيبقى بينهما، إلى أن ينضج كل منهما بما فيه الكفاية لمواجهة الحقيقة.

المجموعة التي تحيط بهما، كانت ترى في كل يوم أن الصراع بين الماضي والمستقبل لا ينتهي، وأن الغد سيحمل آلامًا جديدة، قد تكون أقسى من آلام اليوم. لكن ما كان يثير التساؤل، هو: هل يمكن للحياة أن تعيد نفسها بعد الخيانة؟ هل يمكن أن تعيش زهرة ياسمين مجددًا في عالم يأبى أن يعترف بها؟

مرت أيام قليلة على تلك اللحظة التي رأوا فيها الزهرة المذبوحة، ولكن الزمن كان يمر ببطء غير معتاد.

أيام ثقيلة، كأنما هي محاولة لإعادة تشكيل العالم نفسه، وتحميل كل شخص مسؤولية اختياراته.

ريم، التي قررت أخيرًا أن تمضي قدمًا، كانت تعرف أن الطريق لن يكون سهلاً. كان هناك شيء في نفسها، شيء لم تستطع أن تحدده تمامًا، لكن قلبها كان ينبض بشدة كلما تذكرت تلك الزهرة.

في تلك الأيام، بدأ الصراع يشتد داخلها. كانت تتذكر كلمات سامي عن الدماء الجديدة، وعن الثمن الذي يجب دفعه كي يحدث التغيير، لكنها كانت تشعر أن هناك شيئًا خطأ في هذا المنطق. هل تغيير العالم يتطلب هذا الكم من الفوضى؟

لم تكن قادرة على التخلص من تلك المشاعر الملتبسة. فالحياة الجديدة التي يسعون إليها، أينما كانوا، كانت لا تزال تحمل في طياتها جروحًا عميقة.

ثم جاء إياد، ذلك الرجل الذي ظل بعيدًا عن الأنظار لفترة طويلة. كان يبدو وكأنه خرج من ظلال الماضي، إلى أن وجد نفسه فجأة أمام ريم، كما لو أن القدر قد دفعه للظهور في هذه اللحظة الحساسة.

إياد كان رجلاً مغامرًا، لا يخشى تغيير العالم، بل كان يعتبره التحدي الأكبر. «نحن لا نصنع التغيير بأن ننتظر حدوثه»، قال لها بنبرة حازمة. «نصنعه عندما نقرر أن نكون جزءًا منه، رغم كل شيء.»

كان يبدو على إياد أنه لا يؤمن بالمصادفة، بل بكل لحظة مؤلمة يمكن أن تُحول إلى فرصة.

لكن ريم كانت تشعر بشيء غريب تجاهه، شعور مقلق، كأنما هو جزء من ماضيها الذي تحاول أن تهرب منه، أو ربما هو تذكير بخيارات لم تتخذها بعد.

كان سامي يراقب من بعيد، مشاعر التوتر تتسارع داخل صدره. كان يرى أن إياد قد يكون الشخص الذي يمكنه أن يقلب المعادلة لصالحه، وربما يعيد تأكيداً على تلك الفكرة القديمة التي كانت تراوده: لا يمكن أن يكون التغيير حقيقياً إذا لم تتساقط الأرواح في الطريق إليه.

ومع الأيام، بدأ كل شيء يتشابك. إياد، الذي كان يسعى وراء فكرة التغيير الجذري، كان يجبر ريم إلى مفترق طرق خطير، حيث تصبح الخيارات أكثر تعقيداً. كان يُعدها للقرار الحاسم، القرار الذي ربما سيقودهم جميعاً إلى تحول لا عودة عنه.

«أنتِ لا تدريين»، قال لها في إحدى الليالي، «ما الذي يخبئه هذا الطريق، ولكنني أعدك أن أي خيار آخر هو مجرد الهروب من الحقيقة.» لكن ريم كانت ترى أن الهروب ربما يكون هو الخيار الوحيد، في عالم يكاد أن يغرق في ظلال العنف والخيانة.

كلما اقتربت أكثر من إياد، كانت تشعر أن هناك شيء مفقوداً. كانت الكلمات التي قالها «لا شيء يعود كما كان» تتردد في ذهنها، وكأنها تنبئ بشيء أكبر: هل كان تغيير العالم سيعني أن تخسر نفسها في النهاية؟

سامي، الذي كان يعايش الصراع على مدار اللحظات، بدأ يلاحظ أن ريم قد تغيرت، وأن رحلتها مع إياد قد تكون بداية لفصل جديد في

حياتها. كانت المسافة بينها وبين الجميع تزداد، كما لو أنها تنبأت بما سيحدث إذا استمرت في هذا الطريق.

ومع مرور الوقت، بدأت الرياح تحرك الشجيرات من حولهم، وكأنها تحاول أن تحمل معهم الأمل في التغيير، ولكن الأمل كان دائماً محاطاً بسحابات من الشك.

كان كل من في تلك الزمان والمكان يحاول أن يعثر على حقيقته وسط هذه الفوضى. هل التغيير هو مجرد هدم لكل شيء، أم أنه يمكن أن يُبنى من الركام؟

كانت الرياح تعصف بالمكان، وكأنما كانت تحمل معها عاصفة من المشاعر المكبوتة التي لم تُقال بعد. ريم، التي كانت تسير في هذا الطريق المتشابك بين الماضي والمستقبل، شعرت بأنها على وشك الانفجار. كل خطوة كانت كأنها حافة هاوية، وكل لحظة جديدة كانت تحمل معها أسئلة لم تجد لها إجابة.

بينما كانت تفكر في كلمات إياد عن التغيير، شعرت بشيء ثقيل في قلبها. كان حديثه مثيراً، ولكنه كان محفوفاً بالمخاطر. «نحن نصنع التاريخ»، قال لها، لكن ما الذي تعنيه كلمة «نحن» بالنسبة له؟ هل كان يعني تغيير كل شيء بثمان باهظ، بثمان الأرواح والأحلام المكسورة؟ كان إياد لا يتراجع أبداً، عينه دائماً على الأفق، يبحث عن تلك اللحظة الحاسمة، حيث يصبح كل شيء إما أبيض أو أسود. لم يكن يعترف بالمنطقة الرمادية. «التغيير لا يأتي دون تضحية، ريم»، قالها بحزم، لكنه لم يدرك أن تضحيته قد تكون أخطر مما يظن.

وفي الوقت ذاته، كانت سامي يراقبها عن كثب، كلما ازداد اقترابها من إياد، كلما شعر بأن شيئاً في قلبه ينهار. كان يعرف أن ريم لا تنتمي إلى هذا النوع من المغامرات المظلمة، وأنه لا يمكنها أن تتحمل عبء العنف الذي يسعى إياد لتنفيذه.

لكنه لم يستطع أن يوقفها. كان يدرك أن هناك قوة خفية تجذبها إلى هذا الطريق، قوة كانت دائماً موجودة في أعماقها، لكنها لم تدركها بعد. كانت الخيانة التي شاهدتها في الزهرة المذبوحة هي الحافز الذي دفعها للبحث عن إجابة. لكنها لم تكن تعرف أن الإجابة قد تعني تدمير كل شيء حولها.

«أنتِ لا تفهمين!» انفجر سامي في أحد الأيام، بينما كانت ريم تحاول إقناعه بالانضمام إلى خطة إياد. «التغيير لا يأتي بهذه الطريقة، ريم! إياد يحاول أن يقنعك أن تدمري نفسك لكي يحقق حلمًا غريبًا!» ردت عليه بنظرة ثابتة، «ولكن ماذا لو كان الحلم هو ما نحتاجه؟ ماذا لو كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لنعيش بحرية؟»

إياد، الذي كان يراقب هذا التبادل الحاد، شعر بأن كل شيء بدأ ينفلت من بين يديه. لم يكن يرضى بأن يخسر ريم، خاصةً بعد كل ما مر بهما معاً. لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن كل خطوة نحو المستقبل كانت تتطلب توضيحات، وأن الشخص الذي لم يكن مستعداً لدفع الثمن، عليه أن يتعد.

لكن لم يكن يعرف بعد ما إذا كانت ريم ستنجح في هذه المعركة

الداخلية، أم أنها ستنقض على الفكرة وتعود إلى الظلام الذي كانت تسعى للهروب منه.

وفي لحظة متوترة، تحولت كلمات ريم إلى عاصفة في داخلها. «هل التغيير يستحق أن نفقد فيه كل شيء؟» كانت تسأل نفسها، لكن الإجابة كانت دائماً تتلاشى في الهواء. كانت تسير بين فكي كماشة: من جهة، كان هناك إياد الذي عرض عليها أن تكون جزءاً من شيء أكبر، ومن جهة أخرى، كان هناك سامي الذي يمثل الماضي، ذلك المكان الآمن الذي كانت تعرفه. لكن هذا الأمان كان يتلاشى بمرور الوقت، وأصبح شيئاً عتيقاً، غارقاً في الخوف من المجهول.

في تلك اللحظة، قررت ريم اتخاذ قرار مصيري. كانت ستقف في مفترق الطرق هذا، ولن تكون كما كانت. كان عليها أن تختار. لكن ما كانت لا تعرفه هو أن القرار الذي ستتخذه قد يؤدي إلى تمزيق كل شيء. سامي كان يعرف أن تلك اللحظة قادمة، وكان يعلم أن خسارته قد تكون أكبر من أي شيء يمكن أن يتصوره. أما إياد، فكان مستعداً لأن يلعب بأرواحهم جميعاً لتحقيق ما يعتقد أنه «الحق».

«أنا ذاهبة إلى حيث لا يعود الزمن» قالتها ريم أخيراً، وكأنما هي تعلن بداية النهاية.

لكن لم يكن أي من الرجال مستعداً لما كان سيحدث بعدها، حيث أصبح كل شيء غامضاً، فوضوياً، بلا معنى. كانت ريم قد تجاوزت الحد، ولم يعد بالإمكان الرجوع.

ريم كانت تقف على الحافة، جسدها يتأرجح بين الانهيار والتجدد، بين الماضي الذي كانت تحاول الهروب منه والمستقبل الذي كانت تجهله. كانت كل خطوة تأخذها نحو إياد كأنها تسير عبر حقل ألغام، وكل كلمة خرجت من شفيتها كانت بمثابة رصاصة في رأسها، تقتل ما تبقى في قلبها من أمل.

«أنتِ فعلاً ذاهبة إلى هناك؟» قال سامي، وصوته يفيض بالغضب، خائفاً عليها من السقوط في هوة لا عودة منها.

«أمامي خياران: إما أن أعيش حياة مليئة بالندم، أو أموت وأنا أحاول أن أكون شيئاً آخر.» قالت ريم، والنيران تتصاعد في عينيها.

كان إياد يقف خلفها، يشعّ بثقة لا تقبل التراجع، وكأن كل شيء في هذا العالم كان تحت سيطرته. «سامي لا يفهم، ريم. هو فقط يخشى أن يرى النهاية. أما أنا، فأنظر إلى البدايات. كل شيء ممكن إذا أردت أن تخلقيه.»

لكن سامي كان يعلم أن النهاية قادمة، وأن إياد لم يكن سوى أداة في لعبة أكبر من الجميع، لعبة لا مفر من نتائجها الدموية. كان يراهن على شيء واحد: على أن ريم، في أعماقها، لا تستطيع أن تقتل ما تبقى من إنسانيتها. لكنها كانت على وشك أن تثبت له عكس ذلك.

في تلك اللحظة، كأنما الزمن توقف. ريم كانت تتنفس بصعوبة، وكانت كل فكرة تدور في رأسها كأنها شظايا تتناثر في الريح. لم تعد تعرف ماذا تريد؛ هل هي تبحث عن الحرية أم عن الموت؟ هل ما تعيشه هو تحرر أم هروب؟

لكن ما حدث بعد ذلك كان صدمة للجميع.

في اللحظة التي همت فيها ريم بأن تأخذ خطوة حاسمة نحو إياد، شعر سامي بشيء غريب، كأنما شيئاً ما في داخله قد انكسر. لم يعد قلقاً على ريم فقط، بل شعر أن هذا الصراع قد حطم كل شيء حوله. لكن بدلاً من أن يتركها تذهب، اتخذ قراره الأخير.

«لا»، همس، وكان صوته قوياً وعميقاً. «لن أترك تدمين نفسك. إذا كنت ستذهبين، فأنا سأذهب معك.»

وكانما كانت تلك الكلمات السحرية، حيث وقفت ريم فجأة، فجأة كأنما توقفت الحرب في قلبها. نظرت إلى سامي، ثم إلى إياد. كان الصراع بينهما أكثر من مجرد معركة على التغيير، كان معركة على روحها.

إياد كان يراقب، عينيه لا تخلو من التحدي، لكنه كان يعلم أن شيئاً قد تغير. لم يعد بإمكانه فرض سيطرته على ريم كما كان في البداية. كانت هناك قوة جديدة في عينيها، قوة قد تكون أخطر من أي انقلاب قد يحدث.

«أنت لم تعدي كما كنت» قال إياد، موجهًا إليها نظرة متوترة. «أنت الآن جزء من هذه المعركة، وأنت لا تستطيعين الانسحاب.»

لكن ريم، بابتسامة باردة، ردت: «أنا لست جزءاً من أي معركة. أنا جزء من نفسي فقط.»

ثم، وفي تلك اللحظة الحاسمة، تراجعت. لم تذهب مع إياد، ولم تظل مع سامي. بل ابتعدت عنهما، تجاه طريق مظلم لم يكن أحد يراه.

لم يكن طريقاً قد اختارته من قبل، بل كان طريقاً جديداً كُتب لها أن تسلكه. كانت تعلم أن ما حدث لن يُنسى أبداً. ولا هي، ولا هم.

سامي و إياد نظرا لبعضهما البعض في صمت طويل، كانا يعرفان أن الأيام القادمة ستجلب لهما الكثير من الألم، وأنهما في النهاية مجرد قطع شطرنج في لعبة أكبر منهم جميعاً.

ريم، رغم ابتعادها، لم تكن تهرب. كانت فقط تُعيد بناء نفسها، تبحث عن معنى في هذا الوجود الذي أصبح مليئاً بالتحديات، الفوضى، والألغاز. لم تعد تعنيها الخيانة أو التضحية، بل أصبح ما يعينها هو الاختيار الذي صنعت، وهو أن تكون على الأقل قادرة على العيش في هذا العالم الذي لا يعترف إلا بالقوي.

وكانت الرياح، التي استمرت في هبوبها حولهم، تدفع الجميع إلى الأمام، نحو أفق غير معروف، حيث لا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث بعد ذلك.

والليل... كان أكثر قسوة من الرسائل التي سبقت قدومه. كل زاوية في القرية كانت تسكنها ظلال غير مرئية، وكل حجر على الطريق كان يحمل عبء التاريخ العتيق. لكن هناك، في أعماق الليل، كان شيء آخر ينتظر. شيء لم يكن بإمكان أحد أن يتوقعه.

من بئر القرية، حيث كانت المياه تتسرب بشكل بطيء إلى الأعماق المظلمة، بدأت الروائح تتصاعد، لكن لم تكن روائح عادية. كانت تصيح في الهواء، تعلن عن شيء خفي. شيء لا يحتاج لترجمة، لكنه

كان يحمل في طياته تحذيراً... تهديداً. كانت الروائح تشبه الطيف الذي يعبر بين الحقول، تملأ الفضاء بطاقة غير مرئية، شيء ينبىء بقدوم شيء كبير... لا، شيء ضخم. مثل طنين بعيدا في الأفق، يتسارع ويزداد كثافة كلما اقتربت اللحظة.

العَرَّاف منصور، ذلك الرجل الذي لم يُخطئ في تنبؤاته يوماً، استفاق من نومه في منتصف الليل، جالساً على طرف سريره، وجهه شاحباً ومغبراً. كانت عينيه تلمعان بشيء من الهلع، كما لو أنه اكتشف شيئاً كان قد حُجب عنه لسنوات. فكر في حلمه، أو بالأحرى، ما كان أكثر من حلم. كان العَرَّاف منصور قد رأى في منامه شيئاً غريباً: الدكتورة روان، تلك التي كانت من أهل القرية، هي «المرأة الحمراء» التي طالما تحدث عنها الجد الأكبر، ذلك الذي كان يتمتع بقدرة خارقة على قراءة المستقبل، لكن هذه المرأة كانت تمثل أكثر من مجرد اسم.

المرأة الحمراء لم تكن مجرد أسطورة أو خرافة. كانت تمثل الخراب الذي يلتهم العروش الهشة، وتهدد أساسات كل شيء ثابت. كما قال الجد الأكبر: «هي تأتي حينما يهتز العرش، حينما تظهر الحقيقة وتستدعي التغيير، وهي ليست امرأة عادية. هي رمزية لكارثة آتية، والذين سيقفون في طريقها سيجدون أنفسهم ساقطين في هوة لا قاع لها.»

الرؤية كانت واضحة: كانت الدكتورة روان، تلك الطيبة التي أنقذت حياة العديد من أهل القرية وأصبحت منذ فترة أيقونة للسلام والشفاء، هي نفسها المرأة الحمراء، ووجودها هنا لم يكن صدفة.

كانت تحمل في قلبها مصيرًا أكبر من قرية صغيرة وأكبر من حياتها الشخصية. كان حلم العراف منصور يشير إلى بداية شيء لا يمكن وقفه. شيء كان يخطو خطوة تلو الأخرى نحوهم، وكان له وقع الثقيل على قلبه: «المرأة الحمراء تأتي لتَهزّ العروش الهشة، لتُغيّر كل شيء.»

أخذت الأنفاس تتسارع في قرية غارقة في هدوئها الزائف. كانت الدكتورة روان تسير بين أزقة القرية، تتنقل بين المرضى، تحمل في عيونها شيئًا غريبًا، شيئًا كأنما كان يتحرك خلف جفניה. عيونها التي كانت يومًا مليئة بالطمأنينة، بدأت تعكس شيئًا مظلماً، وكأنما كانت تشعر بأن التغيير آتٍ... آتٍ لا محالة.

كان الليل شديد السواد، يلف القرية في هدوء قاتل، لكن هذا الهدوء كان مجرد غطاء لما كان على وشك الحدوث. وكانت الروائح التي انبعثت من البئر تُسافر عبر الرياح مثل تعويذة قديمة، وكأنها تحمل في طياتها دعوة للانتفاضة، للثورة التي كانت تنمو في الظلال. وحين بدأت الدكتورة روان تدرك قوة ما حدث، بدأ الخوف يختبئ في قلبها، لكن الأدهى أن هذا الخوف كان في مكان آخر، بعيدًا عنها، في مكان أعمق مما توقعت.

هل كانت المرأة الحمراء مجرد أسطورة؟ أم كانت هي نفسها السبب في الانفجارات التي ستفجر الجدران الهشة التي بنيت على أكاذيب، في محاولة لوضع حد لتاريخ طويل من الظلم والخداع؟

منصور، الذي كان يرى كل شيء بعين العراف، شعر في تلك اللحظة بأن الجميع كان في طريقه للاقتراب من النهاية. وكانت الرسائل التي

حملتها الرياح تشير إلى شيء أكبر من مجرد الخطر الذي كان يهددهم. كانت تشير إلى انهيار حتمي، إلى زمن جديد قد يتشكل على أنقاض القديم.

وفجأة، كما لو أن القدر كان يراقب الجميع عن كثب، جاء الانفجار. الانفجار كان مجرد بداية لما سيحدث. لم يكن الصوت مجرد صوت قبلة أو صراع. كان الصوت الذي غير وجه الزمن. في لحظة، توقفت حركة الرياح، وتوقفت العصفير عن التغريد، وكأن الطبيعة نفسها توقفت لتحصي الأنفاس. كانت هناك لحظة صمت عميقة، صمت ثقيل، قبل أن يليه ارتجاج قوي يهز الأرض، يهز جدران البيوت، وتزداد الروائح المتسربة من البئر كثافة، وكأنها تتسرب إلى الأعماق المظلمة لتصل إلى جميع الأرجاء.

الدكتورة روان، التي كانت تمشي ببطء داخل عيادتها تلك الليلة، توقفت فجأة، شعرت بالقوة التي اندلعت من تحت قدميها وكأنها كانت تصدح في كل مكان. نظرت حولها بعينين مقلقتين، وجدت أن شيئاً ما كان يتغير في أجواء القرية، في طبيعة الناس من حولها. سامي، الذي كان يرافقها عادةً في تلك الساعات المتأخرة من الليل، بدأ يهرع نحوها قائلاً: «الناس في الخارج، الدكتورة... شيء غير طبيعي يحدث.»

لكنها كانت تعرف أن ذلك لم يكن مجرد حدث عابر. كان بداية مرحلة جديدة، بداية النهاية كما رآها العراف. «كل شيء قد ينفجر الآن، سامي. لا يوجد شيء ثابت بعد الآن.» كان صوتها هادئاً، لكن في أعماقها كانت تشتعل.

العَرَّاف منصور، الذي كان قد اعتزل الناس منذ سنوات، عاد فجأة إلى القرية. وكان كل شيء قد تغير. أعمق من أي رؤية، شعر بالدم الذي يغلي في شرايينه. كان يعلم أن المرأة الحمراء لن تتركهم حتى تعري كل شيء، حتى تنقض على الخرافات التي استمرت طويلاً. كان يراها الآن أمامه، ولكن لا في شكل جسد بشري، بل في شكل طيف يحيط بكل شيء، يقتحم بيوتهم وقلوبهم، يزرع فيهما الخوف والتردد.

«أنا لم أعد أهتم بما سيحدث بعد الآن»، قال منصور لنفسه وهو يتخذ خطوة إلى الأمام، عينه تتأمل الظلال الملتوية التي كانت تملأ الأفق.

وبينما كانت الدكتوراة روان في العيادة تستقبل المرضى على الرغم من المخاوف، كانت تشعر بشيء غريب يزداد وضوحاً. لم تكن قادرة على تحديد مصدره تماماً، ولكن كل شيء حولها كان يتجه نحو نقطة تفجير، نقطة قد تنقض على الجميع وتغير كل شيء. وبدخلها، كان هناك صراع مرير: هل هي المرأة الحمراء التي تنبأ بها الجد الأكبر؟ أم هي مجرد شخص تحاول أن تظل وفية لمبادئها وسط عالم يتفكك حولها؟

وفي تلك اللحظة الحرجة، اقترب منها سامي قائلاً، «إذا كانت هذه هي النهاية، فإننا لن نواجهها فقط... سنواجهها معاً.» كانت كلمات سامي تنطوي على تحدي، لكنه كان يعلم أن أي تحرك خاطئ قد يكون هو الفاصل. لكن هل كانوا مستعدين حقاً لما سيحدث بعد ذلك؟ هل كانت قدراتهم تتناسب مع ما يواجهونه؟

المرأة الحمراء، كما تنبأ الجد الأكبر، كانت أكثر من مجرد شخصية أو رمز. كانت الحقيقة التي تخشى القرية مواجهتها، القوة التي لم يستطيعوا إيقافها. وكانت الدكتورة روان الآن تتفهم شيئاً عميقاً. لم يكن الصراع على البقاء فقط؛ بل كان صراعاً على الشجاعة لمواجهة الحقيقة حتى لو كانت مؤلمة.

في تلك اللحظة، شعرت بأن كل شيء سيغرق في الفوضى. الجميع حولها كان يركض، يحاول الهروب، لكن كان هناك شيء عميق في قلبها يأمرها بأن تظل ثابتة. «لن أكون ضحية للخوف بعد الآن،» همست لنفسها وهي ترفع رأسها إلى السماء التي كانت تتبدل، ثم تقدمت إلى الأمام دون أن تعود.

وفي الوقت نفسه، بدأت الأضواء في كل منزل تتضاءل، وفي الأفق، كانت السحب تتجمع في سماء مظلمة تنذر بعاصفة ستأتي قريباً. العراف منصور، الذي كان يتنبأ بما سيحدث منذ بداية الحكاية، شعر بأنه قد حان الوقت لأن يدفع ثمن المعركة التي بدأت في الظل. «لا شيء يبقى في مكانه حينما يمر الريح. والريح الآن على وشك أن تعصف بكل شيء.»

ولكن هل كان الجميع مستعدين لما سيأتي؟ هل كانت الحقيقة التي اختبأوا منها لسنوات ستظل مجرد خرافة، أم أن الحقيقة ستقلب كل شيء رأساً على عقب؟

وفي لحظة غريبة، بينما كانت الدكتورة روان تركز على علاج جرح ذلك الراعي الخجول، الذي وقف أمامها بكل تواضع، ووجهه محمّل

بتعب الزمان، حدث شيء غير متوقع. كان جرحه بسيطاً، سوى أنه يصرخ في صمتٍ من التعب. لم يكن ذلك ما لفت انتباهها، بل كان شيء آخر، شيء أعمق من الظاهر.

أثناء قيامها بتنظيف الجرح برفق، لاحظت شيئاً غريباً تحت الجلد. رمز محفور بخطوط دقيقة، كما لو أن أحدهم قد نقشه عن قصد، ربما باستخدام أداة حادة أو سكين قديمة. كانت عين غريبة، تكاد تُشبه رمز ختم سالم—ذلك الرمز الذي لطالما حامت حوله الأقاويل في القرية، والذي كان يُعتقد أنه يحمل معنى أعمق من أي علامة أخرى. لكن هذه العين لم تكن مجرد رسم عابر أو وشم كما قد يظن البعض. كانت علامة، نقشت على الجسد بكل دقة وحذر، كما لو كانت رسالة موجهة خصيصاً لها.

الدكتورة روان توقفت لحظة، شعراً غريب اجتاح جسدها، وشعور بأنها وجدت شيئاً لم يكن يجب أن تجده. كانت عين الرمز تبدو وكأنها تراقبها، على الرغم من أنها كانت مجرد نقش على جسد ذلك الراعي. ماذا يعني هذا؟ تساءلت في نفسها، ولم تستطع أن تُجيب على السؤال الذي بدأ يشق طريقه داخل ذهنها بقوة. لم يكن الرمز مجرد علامة عابرة، بل كان سرّاً، شيء قد يحمل في طياته تهديداً أو تحذيراً، أو ربما كانت بداية تحالف لم يولد بعد.

رفعت عينها إلى الراعي، الذي بدا وكأنه يعاني من شيء أكثر من مجرد الجرح. كانت نظراته غامضة، مليئة بالخطر والريبة، كما لو كان يترقب شيئاً ما في الهواء. تجنب عينيها، كأنه يخشى من أن تحمل

الرسالة التي وضعها على جسده إلى آذان غير موثوقة. كان يعرف، كما تعرف هي، أن هذا الرمز ليس مجرد شكل عابر. كان له تاريخٌ طويل في القرية، مرتبطٌ بأيامٍ مظلمة من الماضي، حيث كانت هناك أسرار مدفونة لم تُكتشف بعد.

«هل هذا...» همست روان بصوتٍ خافت، ولكن الراعي قطع كلماتها قبل أن تتمكن من الاستمرار. «لن تسأليني عن هذا، أليس كذلك؟» قالها بنبرةٍ متوترة، كانت عيناه تلمعان مثل شفرة خفية.

«لم أكن سأسأل عن شيء لم تود ذكره» أجابت روان، لكن في قلبها كان هناك شعورٌ غير مريح. كانت تعي تمامًا أنه لم يكن ذلك الراعي مجرد شخص عادي. لم يكن مجرد قرويٍّ عابر. كان يحمل قصة، أو ربما كان جزءًا من قصة أكبر بكثير. ربما كان هو نفسه أحد اللاعبين في مسرحية قديمة، مسرحية بدأ الجمهور ينسى مشاهدتها، ولكنها لم تنتهِ بعد.

الرمز الذي كانت تراه أمامها كان يربطها بشيء أعمق، بشيء أكبر من مجرد الجرح الذي كانت تعالجه. ربما كان علامة على انتماء سريٍّ إلى شيء كانت تجهله، أو ربما كان رسالة عن قوة خفية لا يمكن تجاهلها. ومع كل خطوة كانت تأخذها إلى الأمام، كان ذلك الرمز يُذكرها بشيء مؤلم، كأنما كان يُلقي في وجهها حقيقة مظلمة لا يمكن تجاهلها. هل هو تحالف قادم؟ أم مجرد تهديد ينتظر اللحظة المناسبة للظهور؟ راحت اليد التي كانت تعالج بها الجرح ترتجف، لم تكن تلك الحركة المتأصلة في ذاكرتها المهنية، بل كانت مُشوبة بشيء آخر، شيئًا

لم تكن مستعدة له بعد. هل تكون تلك العلامة هي المفتاح؟ فكرت لوهلة. هل كان الراعي هو الشخص الذي سيقودها إلى الحقيقة؟ إلى الجواب الذي تبحث عنه لسنوات؟

فجأة، كما لو كان يقرأ أفكارها، عاد الراعي ليتحدث، ولكن هذه المرة بصوت أكثر انخفاضاً، كأنما يخشى من أن يسمعه أحدهم. «هذه العلامة ليست لك وحدك، دكتورة. هي للذين يعرفون كيف يقرأون ما وراء الأفق.»

وها هي الآن أمام خيارها... هل ستتابع المجهول وتغرق في هذه الغرابة، أم ستترك الرمز مختبئاً، ليظل سرّاً داخل ذلك الجرح الذي بدأ يندمل ببطء؟

أغمضت عينيها للحظة، شعرت بترقب العالم الذي كان يتلاشى حولها، وداخلها صوت يصرخ: إنه الوقت.

كل شيء بلغ ذروته في مهرجان القمر. كانت القرية، بعد سنوات من السكون والاحتقان، ترتدي ثوب الفرح، تتراقص على أنغام الرياح الموسمية التي كانت تعصف بالأشجار، وكأنها تحاول نفث الغبار الثقيل الذي تراكم على قلوبهم. أضواء الفوانيس الملونة كانت تشر شعاعها على الوجوه التي اكتست بألوان التفاؤل، والجميع كان في حالة نشوة جماعية. كان المهرجان بمثابة تهوية جديدة للقرية، كأنها تخرج من الظلام إلى النور، من الذكريات المظلمة إلى الأحلام التي طالما كابروها.

لكن وسط الضحك والأنغام، كان هناك شيء آخر يلوح في الأفق. صوت حارس الذاكرة، الذي لا يُخطئه أحد، شقَّ الجلبة والضحكات كالسيف في الهواء، كأنما كان يرسل تحذيرًا قبل أن تتحطم الأرض تحت قدميهم جميعًا. «احذروا من تلك التي تُخدِّر العقول باسم الشفاء!»، هكذا قال بصوتٍ مرتفع، كان هناك ارتجاف في نبرته، كأنما كان يحمل أوزار السنوات التي مضت، أو ربما كان يراهن على المجهول الذي بدأ يظهر في الأفق.

كانت الكلمة كالرصاصة الذي اخترق قلب الاحتفال. الجميع صمت. صمت طويل غريب. الفوانيس التي كانت تضيء الوجوه بدأت تُفقد لونها تدريجيًا، وكأن الضوء نفسه قد بدأ يخاف من العتمة التي كانت تقترب. كان شيخ القرية، ذو اللحي البيضاء وعيناه اللتين تبدوان وكأنهما شاهدتا ما لا يُحكى، قد أعلن عن خطر كان يراه بعين النبوة، وكان الجميع يعقل ذلك جيدًا.

«تلك التي تخدِّر العقول...» تردد الصوت في الهواء، كأن الكلمات نفسها لا تريد الرحيل. لكن من كانت تلك التي يُحذر منها؟ كانت هناك إشاعات منذ فترة عن المرأة الغريبة التي جاءت إلى القرية مع بداية فصل الربيع. كانت تحمل في يدها حقيبة مليئة بالأعشاب والعطور التي كانت تشبه الزهور العطرية، تروج لنفسها على أنها «معالجة»، لكن لم يكن أحد يعرف عنها سوى القليل. ومع ذلك، بدأت الشائعات تدور حول تأثيراتها السحرية، وكأنها تمتلك مفتاحًا لشفاء الأجساد والعقول.

كان حارس الذاكرة يعرف أكثر مما يراه الناس، ولعله كان يذكر شيئاً من التاريخ الذي اختفت تفاصيله خلف خيوط الزمن. لكن حديثه كان يأتي في لحظة غير مناسبة، في قلب الفرح الجماعي، حيث كان الجميع قد ألقى همومه على أعتاب المهرجان وقرر أن يعيش لحظة من النشوة البسيطة. كانت كلمات الشيخ مثل ضربة موجعة على وجه السماء.

«الشفاء؟ أم الخداع؟» تساءل الناس في همسات متقطعة، بينما كانت العيون تتجه نحو تلك المرأة التي كانت في زوايا الحفل، تراقب الجميع بابتسامة غامضة على وجهها. كانت عيونها تمتلئ بشيء من الغموض، وكأنها ترى ما لا يراه الآخرون، وكأنها تقرأ في الأرواح وتعرف ما في أعماق الناس دون أن تفتح أفواههم.

وفي قلب المهرجان، بدأ يلوح شعورٌ غريب في الهواء. كان ذلك الصوت الذي دمر اللحظة السعيدة يبعث القشعريرة في أجساد الجميع. تلك اللحظة التي كانت الأرض ترتجف فيها، والعقول تتساءل، بدأت تتضح. هل كان تحذير حارس الذاكرة مجرد خوف من شيء جديد، أم أن هناك شيء حقيقي خلف تلك المرأة؟

«إذا كان الشفاء هو السم، فماذا عن الأعراض؟» همس أحدهم، وهو يقف بالقرب من الشيخ، ليضيف شبهة جديدة إلى الجدل الذي كان يتشكل على الفور.

مرت اللحظات الثقيلة، وكأن كل شيء يتوقف. كانت الرقصة قد توقفت، والأنغام التي كانت تملأ الهواء أصبحت كأنها مجرد أصوات

بعيدة، وكأن الزمن نفسه قد قرر أن يلتقط أنفاسه، يراقب ما سيحدث بعد هذه الكلمة التي قُذفت في وجه الليل.

وكانت المرأة، التي كانت حتى الآن مجرد حضور غامض، قد بدأت تقترب. كانت خطواتها هادئة، ولكن نظراتها كانت حادة، كما لو أنها تعرف أنها تقف على حافة مفترق الطرق. هل كانت هي فعلاً تلك التي تخدّر العقول؟ وهل كانت هي من ستحطم هذه القرية بسحرها الغامض؟

كل شيء كان يتجمع الآن، والسماء فوقهم، التي كانت تضيء في البداية بأضواء المهرجان، بدأت تعود إلى الظلام تدريجياً. كان هناك شعور بالضغط في الهواء، وكأن جميع القلوب قد تجمدت في انتظار الإجابة على السؤال الذي لم يكن أحد مستعداً لسماعه.

«احذروا...» استمر الصوت يردد في أذهانهم، وكان أكثر من مجرد تحذير؛ كان وعداً بتغيير لم يكن أحد يتوقعه.

ثم... جاءت الرصاصة. الصوت الذي اخترق الليل كالصاعقة، كان مدوّياً بشكل غريب. وكأن القدر نفسه قد قرر أن يُنهي كل شيء في تلك اللحظة. كانت الرصاصة مشهداً مفاجئاً، متسارعاً، ومدمراً. مثل النبض الأخير الذي يُسكت الحياة في لحظة واحدة، حيث انتهى كل شيء في جزء من الثانية.

لكن وسط هذا الدمار، كان سالم موجوداً. دائماً في لحظة الحسم. لم يكن غريباً عليه أن يظهر في اللحظة الأكثر حرجاً، كما لو كان جزءاً

من النسيج الذي يخطط اللحظات الحاسمة بين الحياة والموت. كان جسده حائطاً يحمي، لا يترزعزع، لا يتراجع. نظرته كانت حادة كالسيف، ويده، رغم قوتهما، كانتا تحملان شيئاً من الحذر، وكأنهما تعرفان جيداً ما سيحدث إذا تراجعتا ولو خطوة واحدة.

«أنتِ لستِ عدوهم...» همس بصوتٍ منخفض، كأن الكلمات نفسها تخشى أن تكسر صمت اللحظة. كانت يده دافئة، ولكن هناك شيئاً غريباً في لمستها؛ كأنها تحمل في طياتها عبئاً ثقيلاً من الوعود والأسرار التي تم احتجازها لسنوات. تلك اليد التي كانت الآن تضم يدها المرتجفة، محاولةً أن تنقل إليها الثبات، كما لو كان يزرع في قلبها شيئاً لا يستطيع الموت أن يقتلع منه.

لم تكن تلك اللحظة مجرد لحظة خوف، بل كانت لحظة وعاء ممتلئ بالأسئلة التي طالما تجنبتها. لماذا الآن؟ تساءلت في ذهنها، بينما كانت الأنفاس تتسارع، والعقل يعجز عن إيجاد إجابة واحدة للماجرى. هل كانت قد أيقظت أشباحهم، كما قال؟ هل كان الأمر كله مجرد خطأ، أم أن هناك يدًا خفية تحرك خيوط هذا المصير المظلم؟

وعينيه، اللتين كنتا تحملان في طياتهما شيئاً من الحزن الغامض، ألجمتا كل كلماتها. كان الصوت الذي همس به وكأنما قد نقشه على جدران الروح، لا يمكن مسحه أو نسيانه أبداً: «أنتِ المرأة التي أيقظت أشباحهم.»

أشباحهم؟ كانت تلك الكلمة الثقيلة التي تكررت في ذهنها، تنفجر في عقلها مثل نيران لا يمكن إخمادها. من هم هؤلاء؟ كانت الأسئلة

تتسارع، لكن الصوت الذي جاء من وراء الظلال كان لا يزال يتردد في أذنها. كان هناك شيء ما في تلك الكلمة، شيء يحمل قوة غير مرئية، يتسلل إلى أعماقها، يدفعها لتساؤل أكبر عن حقيقة ما حدث، وماذا يعني أن تكون «المرأة التي أيقظت أشباحهم».

شعرت بشيء غريب يعصف في صدرها، كان يديها لا تزالان ترتجفان، ولكن الآن كان ذلك الارتجاف ليس من الخوف، بل من الرهبة. كانت قد دخلت إلى لعبة أكبر من أي شيء كانت تتخيله، اللعبة التي كانت حتى الآن مجرد شبح يلوح في الأفق. أشباحهم، كما قال، هل هي مجرد كوايس قديمة؟ أم أن الأمر كان أكثر تعقيداً من ذلك؟ هل كانت قد فتحت باباً لن يعود إلى الورااء؟

بقيت هكذا لفترة، ساكنة، لا تجرؤ على تحريك عينيها من سالم، الذي كان يقف أمامها كالسور الحديدي، لكنه يحمل على عاتقه شيئاً أعظم من الحماية. كان يحاول أن يمنحها القوة، لكن قوته كانت مرهونة بأسرار قديمة، أسرار قد تكون قديمة بما يكفي لتدمير كل شيء كان يجمعهما في تلك اللحظة.

ثم... جاءت الصرخات. صرخات بعيدة، متداخلة مع صوت الرياح التي كانت تحمل في طياتها أصداء الماضي. كانت الرجفة في يديها تزداد، لكن عيناه، رغم كل الظلام الذي كان يحيط بهما، بقيتا ثابتتين، كأنهما تراهنان على الحقيقة القادمة. لا يزال سالم هناك، ووجوده، كالحائط الصلب، يثبت أن الصراع لم ينتهِ بعد. لكن هل كانت هي مستعدة لما سيحدث؟

«لا تظني أنك هُنا وحدك»، قالها سالم وهو يربت على يدها بحزم، كأنما كان يريد أن ينقل إليها شيئاً غير الكلمات. كأنما كان يرغب في تحضيرها لشيء أكبر بكثير من الرصاصة التي مرت في الهواء. شيئاً لا يتعلق بالظروف، بل بشيء أبعد، شيء كان يخبئه كل هذا الوقت وراء رماد الزمن.

وبينما كانت النيران تشتعل في العيون، كان القمر في السماء يرتفع بهدوء، وكأن الكون نفسه يراقب هذا المشهد الختامي الذي ستقرره اللحظة القادمة.

وفي صباح اليوم التالي، عندما دخلت الدكتورة روان إلى العيادة، كانت أول ما لاحظته السكوت المريب. كان الجو هادئاً للغاية، وكأن العالم قد توقف لحظة واحدة فقط، بينما كان الوقت نفسه يراوغها، كأنها تبحث عن شيء لا تستطيع تحديده.

ومع ذلك، لم يكن السكوت هو ما أثار انتباهها. بل كانت تلك النباتات التي لطالما كانت تزين العيادة، تذبل فجأة. أوراقها التي كانت في السابق تنبض بالحياة، أصبحت الآن جافة ومتقشرة. وكأنها فقدت روحها بين عشية وضحاها. كان الهواء يمر من خلالها كما لو كانت أجساماً هامدة، تستنكر الحياة في مكان كانت تُعتبر فيه علامة على الصحة والعافية.

اقتربت روان، ففوجئت برائحة غريبة بدأت تتسلل في الجو، رائحة حادة، لم تكن تعرفها من قبل. شيء بين العفن والمعدن. ولكن هذه الرائحة لم تكن هي السبب الوحيد في ارتباكها.

«كيف؟» تمتمت لنفسها، وهي تمد يدها برفق نحو أحد النباتات، لمست ورقة ذابلة. كان هناك شيء غير طبيعي في هذه اللفحة التي كانت تُحيط بها. كانت الأرض ذاتها وكأنها تتردد في احتضان النبات، كما لو كانت هناك قوة خفية ترفض أن تستمر في العناية بما كانت تقدمه سابقاً. كانت تلك اللحظة، في عمقها، تحمل رائحة الخيانة أو ربما التهديد. عينيها اتسعتا في دهشة عندما رأت أنها لم تكن مجرد نباتات ذابلة. كانت هناك علامات غريبة على السطح الترابي للمزهرية، شخص ما قد مرّ هنا، وترك أثره. خطوط ضئيلة، محفورة بدقة متناهية، كما لو كانت تُكتب رسالة على الأرض نفسها، حرفاً بحرف. كان هناك شيء مخيف في تلك النقوش؛ شيء كان ينتمي إلى عالم آخر. عالم مظلم لا يريد أن يُكشف عنه.

هل هي مصادفة؟ تساءلت في نفسها، لكن سرعان ما طردت الفكرة من ذهنها. كل شيء هنا كان يدفعها للشك. لماذا، وسط هذا الصباح الجميل، يبدأ كل شيء في الذبول فجأة؟ لماذا كانت الأرض نفسها تتراجع عن تقديم دعمها؟ أهو تحذير؟ أم أن شيء ما بدأ يتحرك في الظلال؟

شعرت بأن قشعريرة قد اجتاحت جسدها كله، رغم أن الغرفة كانت دافئة، ولكن هذا الشعور كان شيئاً غريباً، غير قابل للشرح. شيء يتعلق بشيء أكبر. شيء كان يحاول التسلل إلى قلبها، وتحت جلديها.

في تلك اللحظة، عندما كان ذهنها يقفز بين احتمالات عديدة، سقطت ورقة أخرى من النبات، سابحة في الهواء مثل شبح يتنظر أن

ينقُص. لكن قبل أن تستوعب الأمر تمامًا، سمعت الصوت: صوت خفيف، قادم من الزاوية البعيدة للعيادة.

«دكتورة روان...» جاء الصوت بصوت خافت، بدا وكأنه همسة أكثر من كلام. «أنتِ لا تدركين بعد... ماذا ينتظرك.»

توقف الوقت في تلك اللحظة. كان الصوت غامضًا جدًا، لكنه في ذات الوقت كان يعرف كل شيء عنها. كان يعرف كل شيء عن حياتها. وما إن همس الصوت في أذنيها، حتى فاض الشعور بالخطر في صدرها، غمرها بسرعة، وسقطت في دوامة من الأسئلة. هل كانت هذه بداية شيء أكبر؟ هل كانت النباتات دليلاً على ما سيحدث؟ هل كان هذا كله مجرد تحذير صامت مما كان سيأتي؟

أغمضت عينيها للحظة، محاولةً استيعاب ما كان يجري. كان لا بد من شيء كبير قد تغير. كان هناك شيء يتأمر في الزوايا التي لا ترى. شيئاً يتدحرج عبر الزمن، ويبنى خطة خطيرة بعيداً عن الأنظار. وبينما كانت تنظر إلى النباتات التي بدأت تذبل أكثر، لم تستطع التخلص من هذا الإحساس القاتل بأن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة، وأنها كانت قد دخلت إلى عالم أكبر منها، لا يمكنها الهروب منه.

لكنها لم تتراجع.

ورغم أن قلبها كان يتأرجح بين الشك و الخوف، ورغم أن كل خلية في جسدها كانت تصرخ بأن هذا الطريق قد يُفضي إلى الهاوية، إلا أن شيئاً ما كان يدفعها للأمام. كان ذلك الشيء أعمق من مجرد إرادة؛

كان قوة غير مرئية تتسرب إلى عروقها، تحمل في طياتها ثقل الماضي،
آلامه، وحروبه. شيء كان يعرفه جيداً كل من يعبر هذا الطريق، وهم
الذين اختاروا الانقضا على قيودهم، على صمتهم... على خوفهم.
في تلك الظهيرة، حيث كانت الشمس ترسل خيوطها الحارقة بين
جدران العيادة الضيقة، دخلت عشر نساء. كانت خطواتهن هادئة، لكن
لا يمكن إنكار السمة القوية التي حملوها في جسد كل واحدة منهن.
كان لكل واحدة منهن حكاية، وكل حكاية كانت تحمل جرحاً، لكن
تلك الجروح قد بدأت تتغذى على النور الذي ينبثق من أعماقهن.

قلوبهنّ تحمل ضوءاً خافتاً... لكن ذلك الضوء كان كافياً ليدد ظلاماً
طالما حاول أن يبتلع كل ما في طريقه. كنّ مشتعلة بأمل حذر، ولكن لا
يخفى على عين الدكتور روان أن وراء ذلك النور، هناك جراح قديمة
كانت تشتعل في أعماقهن، وتصرخ في صمت.

هنّ لم يأتين للشفاء فقط، لم يأتين للبحث عن حلول بسيطة أو
معجزات سريعة. لقد أتين ليحملن عبءاً ثقيلاً من الآلام المستمرة،
من الهزائم المنسية، ومن الحروب التي لا تُعلن. لكنهن، رغم كل
ذلك، أتين بأيديهن مفتوحة، وجعلت العيون التي تلمع من خلف تلك
الوجوه التي حملت سني الألم، تتحدث أكثر من الكلمات.

واحدة تلو الأخرى، عبرت وجوههنّ تلك العتبة، وكانت وكأنهن
يدلفن إلى عالم جديد تماماً، عالم لا يتسع فيه للخوف، ولا للشك،
ولا للظلمات.

وعندما قالت واحدة منهن بصوتٍ يردد صدىً غريباً في أرجاء
الغرفة:

«علمينا... كما علمتِ ندى.»

كانت الكلمات كالرصاص، كأنها إعلان عن بداية نهاية شيء قديم.
لكن في عمق تلك الكلمات، كانت هناك معركة قد بدأت تتشكل،
حرب لا تنتهي بمجرد الحصول على العلاج، بل تبدأ في مكان آخر؛
في أعماق أرواحهن.

وفي عيونهن... كانت المعركة قد بدأت.

كانت عيونهنّ تومض بما يكشف عن عوالم مظلمة لا تُعرف إلا
لمن مروا بجنابات الجحيم. كانت آلامهنّ عميقة لدرجة أنها كانت تكاد
تشق الأرض تحتهن. وكأن وراء كل بُعد في عيونهنّ كانت معركة شرسة
تدور، حيث يواجهن الأشباح التي ظنوا أنهم تخلصوا منها، يواجهون
أنفسهم، يواجهون العالم الذي لم يكن ليعترف بوجودهم.

الرغبة التي سيطرت على قلب الدكتورة روان لم تكن بسبب غموض
عيونهن فقط، بل كانت أيضاً بسبب شيء كان ينساب عبر كلماتهن كما
لو كان تعويذة. كأنهن جئن ليطلبن أكثر من العلاج الجسدي، جئن
ليطلبن الحرية من قيود داخلية تحكمهنّ، وتدفعهن إلى التصالح مع
الماضي الذي لم يُغفر.

ومع ذلك، لم تتراجع، لأنها علمت أن هذا هو المعترك الذي لا مفر
منه. أنها كانت أكثر من مجرد طبيبة، كانت شاهدة على تحول العالم

من حولها، وكان من المؤكد أن تلك الظهيرة، كانت لحظة غير قابلة للنسيان.

كانت البداية، نهاية لماضيٍ مريّر، وبداية لثورة لا تعرف حدودًا، ثورة لن تكتمل إلا بدماء التحول داخل كل واحدة منهم، في داخلها هي أيضًا.

الدكتورة روان لم تكن طبيبة فقط.

لم تكن مجرد امرأة تحمل أدوات للشفاء، ولا شخصًا يواجه الوجود بجسدها وعقلها، بل كانت بذرة تغيير نمت في قلب أرضٍ يرفضها الجميع، في أرضٍ جافة لا تحتمل التغيير ولا ترحب به. كانت الكلمة الأولى التي تهتز لها الجبال، الصوت الذي يخرق السكون. كانت الوميض الذي يظهر في لحظة الليل المظلم، ليعلم أن الأفق يمكن أن يتبدل، وأن المستقبل قد يكون في يد من لا يملكون سوى أحلامهم.

لكن في تلك الأرض التي تخشى المطر، كان كل قطرة من الماء تشبه حربًا. الحرب كانت ليست مجرد معركة خارجية، بل كانت صراعًا داخليًا عميقًا، مع الزمن، مع التاريخ، مع التقاليد التي تشد الناس إلى الوراثة. كانت كل خطوة تخطوها الدكتورة روان أشبه بتحدٍ للقوى التي لا تُرى، لكن تؤثر في كل شيء. كان كل عملٍ منها بمثابة تجسيد لحرب ضد القدر الذي يضع نفسه حجر عثرة في وجه التغيير.

وفي تلك الأرض، حيث النظام القديم مثل الجبال الراسية لا تقتلعها الرياح، كانت روان مثل الشمس التي لا يستطيع الغيم حجبها. لكن

حتى الشمس في هذا المكان لا تأتي دون ثمن. في كل خطوة، كانت الأرض نفسها تكاد تبتلعها، كما لو كانت تشكك في قدرتها على اختراق صمتها، وعلى تغيير أقدار من اعتادوا على الخوف.

لكن الدكتورة روان لم تكن تخشى الصراع. في قلبها كان ينبض الأمل، وفي عينيها كان هناك حلم لا يعرف الحدود. كانت تعلم أن هذه الأرض لن تتقبل التغيير بسهولة، ولكنها كانت تعي أيضًا أن التغيير لا يبدأ بالانتظار، بل يبدأ بالتصميم والمثابرة. كانت الرياح تعوي حولها، ولكنها كانت تمضي بخطى ثابتة نحو المجهول.

بينما كانت تحمل أدواتها الطبية، لم تكن تلك الأدوات وحدها التي كانت تستخدمها في علاج الناس. كانت تستخدم كلماتها، إيماءاتها، ونظراتها التي أضاءت الطريق في وجه من كانوا في الظلام. كانت تعرف أن أعمق الأمراض تتسلل إلى الروح، وأن الشفاء لا يحدث ببساطة عندما تداوي الجروح الظاهرة فقط. الشجاعة التي كانت تجسدها لم تكن في معركتها ضد المرض، بل كانت في مواجهتها للأشباح التي تلاحق الناس في ظل خوفهم.

كل قطرة من المطر التي تتساقط في هذه الأرض كانت حربًا، حربًا بين التقاليد التي لا تريد الرحيل، والأمل الذي يصر على البقاء. كل تصرف، كل فكرة، كل كلمة قالتها، كانت بمثابة رصاصة في معركة غير مرئية. وكل إنسان يمر من أمامها كان يتحسس الجرح الذي لم يكن يعرف أنه موجود، حتى وإن كانت الجروح مخفية بين طبقات الأجيال والتاريخ.

كانت تعلم، وكل من التقى بها علم، أن هذا النضال ليس معركة قد تنتهي في يومٍ أو شهرٍ أو حتى عام. كانت معركة طويلة الأمد، معركة تعني الصبر، التحدي، والإيمان العميق بأن أي بذرة تزرع في الأرض القاحلة تحتاج إلى وقت كي تنمو، ولكن مع أول شمس تشرق، ستستطيع أن تعلن أنها كانت قادرة على أن تغير وجه الأرض.

لذلك، لم تكن مجرد طبيبة. الدكتوراة روان كانت مؤسسة، كانت بداية ثورة، ربما بطيئة، لكن ثابتة. وبينما كان الجميع يراقبها، كان التغيير يزرع نفسه في أماكن لم يُسمح لها من قبل أن تنبت.

في ليلةٍ تلون فيها القمر بأحمرٍ غامق، كأن السماء نزلت سراً دفيناً، كان كل شيء في هذا العالم يبدو وكأنه قد استسلم لنداء غامض. القمر، الذي عادة ما يشع بنور هادئ، تحول إلى حمراء قاتمة، كأن هناك حدثاً عظيماً، سراً كبيراً تكتشفه السماء نفسها. الهواء كان ثقيلاً، مشبعاً بشعورٍ غريب وكأن الأرض كلها تنتظر شيئاً. كان الليل مشبعاً بالقلق، كان وعداً بحدث سيغير كل شيء.

وقف سالم بن راشد عند حافة البئر القديمة، تلك البئر التي عاشت على مر الأزمان، تخزن أسراراً أقدم من الشيوخ أنفسهم. كانت البئر أشبه بحفرة مظلمة لا تتسع للأفكار، ولكنها تحتوي كل ما لا يُقال. منذ قديم الزمان، كانت الهمسات التي تتردد في محيطها تقول إن كل من يقترب منها قد يستمع إلى أصوات الماضي، إلى أنين الأرواح التي تراكم في الأعماق.

أصابعه تنقر على فوهة الحجارة، كمن يوقظ أرواحًا منسية، أرواح لم تجد لها مكانًا في هذا العالم المادي. كان الصوت يرن في الليل، يحمل خوفًا قديمًا يثير في نفسه مشاعرٍ متناقضة. كان كل شيء يبدو في حالة توازن دقيق بين الحضور والغياب، بين الحياة والموت. كانت أصابعه تلمس الحجر وكأنها تبحث عن شيءٍ ما، ربما إجابة لم تسأله أبدًا، أو ربما كانت محاولة لتجاوز حواجز الزمن.

وفي الريح الشمالية، سمع أنين أجداده، ذلك الصوت البعيد الذي كان يذكره بحكايات قديمة، عن معارك لم تكتب في الكتب، عن جراح عميقة لا تتلاشى حتى مع مرور السنين. لم يكن الهمس الذي سمعه عاطفيًا، بل كان تأنيبًا، كأن أجداده يراقبونه عن كثب، يؤنبونه على شيء لا يستطيع هو نفسه فهمه تمامًا. «لا تضعف... فالقلب طريق الغرق، والواهم يظن السراب نهرًا.» كانت الكلمات ثقيلة، ولكنها كانت واضحة، تحمل تحذيرًا لم يكن قادرًا على تجاهله.

لكن سالم كان قد غرق بالفعل. لم يكن في حاجة إلى تفسير. فقد كان غارقًا في دوامة عميقة لا تستطيع أي كلمات أن تنقذه منها. كان مثل عصفور محاصر في قفص الزمان والمكان، لا يستطيع أن يطير، ولكنه كان لا يزال يضرب بجناحيه في محاولة يائسة للنجاة.

ولكن، الدكتور روان... كانت الطوفان. لم تكن مجرد امرأة دخلت حياته مصادفة، بل كانت الفيضان الذي غمر كل شيء. كانت القوة التي تقتلع كل شيء في طريقها، كل ما اعتقد أنه كان ثابتًا، كل معتقده، كل جدران العزلة التي بناها حول قلبه. لقد كانت أكثر من مجرد شخص،

كانت تغييرًا هائلًا، كارثة غير مرئية كانت تلوح في الأفق، مستعدة لتحطيم كل شيء وتجعله يبدأ من جديد. كانت الطوفان الذي سيغسل كل ما كان، ويغمره بحياة جديدة لا يعرفها، ولا يعرف إن كان مستعدًا لها.

أخذ نفسًا عميقًا، ولكنه لم يشعر بالراحة. كان الريح تعصف به من جميع الجهات، وكأنها تُحذر من شيء لا يستطيع الهروب منه. كان غرقه في الماضي يجره إلى مستقبل غير مستقر، كان يعرف أنه لن يعود كما كان بعد هذه الليلة.

الدكتورة روان، بالنسبة له، لم تكن فقط تهديدًا، بل كانت التحول الذي لا مفر منه. كانت الطوفان الذي سيجرف كل شيء في طريقه، وسيتركه في مكان آخر، في عالم لم يُخلق بعد، حيث لم يكن له مكان بعد. لكنها كانت أيضًا الطريق الوحيد للنجاة، الطريق الذي لا يستطيع التراجع عنه مهما كانت الألم أو الدمار الذي قد يحمله.

القرية تحولت إلى مرآة مقلوبة، كأنما الوقت قد اختار أن يضحك على كل شيء كان مستقرًا فيها. الوجوه التي اعتاد أن يعرفها بأسمائها وأحاديثها، أصبحت مشوهة، مبهمه. كل شخص هنا يراقبه بعينين نصف مُطفأتين، مثل أرواح عابرة تبحث عن حقيقة لا يمكنها رؤيتها. كانت الابتسامات التي يراها تحمل شيئًا غريبًا، نصف ابتسامة ونصف خنجر، كأنهم جميعًا يخفون نية لا تجرؤ على الظهور. الوجوه الطيبة التي طالما تعود على رؤيتها، أصبحت مشوهة بالخيانة، غير قابلة للتفسير.

حتى حصانه الذي عرف قلبه أكثر من البشر، وكان الصديق الأوفى له في أوقات الوحدة، تراجع بخطوٍ مريب. لم يكن الحصان يخاف من شيء؛ لقد خاض مع صاحب قلبه العديد من الحروب النفسية والجسدية، لكن هذا الصباح كان مختلفاً. كانت عيناه مليئتين بشيء لم يكن يستطيع أن يصفه، مزيج من الخوف والشك، وكأنهما يريان شيئاً أكبر من مجرد كائن حي أمامهما.

ثم، في فجرٍ كالح، حيث كان الضباب يُغلف كل شيء وكأن السماء نفسها تعتمد الاختباء، وجد على عتبة مزرعته جرة غسل مشقوقة. كانت الجرة ملقاة على الأرض، كأنها تقاوم كل شيء حولها، ومن داخلها تفوح رائحة الموت المغموسة بالحلاوة. لم تكن هذه الرائحة عادية، بل كانت مركبةً بعناية، مليئة بالرمزية، كما لو أنها تسربت من عالمٍ آخر. كانت الجزء الأخير من فخٍ محكم، علامة أن شيئاً ما قد بدأ في الانتشار. هذه كانت رسالة، لكن ليس مثل أي رسالة.

وعندما نظر إليها عن كثب، اكتشف أنها موقعة بعشبة الشيخ. لكنه لم يكن الغرض منها التداوي أو الشفاء، بل كانت تلك العشبة اللينة بمثابة علامة تحذير، تلويح بمعرفةٍ قاتلة. كان أحدهم قد اختار أن يكشف سره في هذه اللحظة، وأن يترك له هذه البصمة المسمومة على أرضه. الغسل، الذي كان يُفترض أن يكون رمزاً للحياة والطمأنينة، أصبح الآن هو الوسيلة لإيصال الرسالة القاتلة.

أحدهم كشف سره. كان هذا التلميح كافياً ليعلم أنه في قلب هذه القرية يوجد شيء مظلم يربط الجميع. لم تكن تلك مجرد إشارة عابرة،

بل كانت إنذارًا حقيقياً بأن الأشياء لن تبقى كما هي. شخصٌ ما في هذه القرية كان يعرف أكثر مما يظن، وكان يُرسل له تحديًا لا يمكنه تجاهله. الجو محموم، وكل لحظة تمر تجعله يشعر وكأن أرضه نفسها تتنفس من خلاله، وكأنها تشارك سرًّا لا يمكنه حتى فهمه بعد.

«أتعرفين ما معنى أن يحب رجلٌ مثلي امرأةً مثلكِ؟» صرخ بها، صوته يرتجف في صراع بين الغضب والتسليم، بينما كان يحرق بقرةً مذعورة من الوحل. كانت الأرض طينية، والمكان ضبابي، كأنهما في عالمٍ آخر، حيث تتداخل الحدود بين الواقع والحلم. ذراعيه المشدودتين، اللتين اعتادتتا حمل الأثقال، كانت ترتجف تحت وطأة ثقل مشاعره المشتتة. أما هي، فكانت تمديدها في الطين، لا تتردد، لا تبالي بملابسها التي غمرتها الأوحال، ابتسامة صغيرة على شفتيها، وكأنها كانت تضحك على العذاب نفسه. كانت كأنها جزء من الطبيعة نفسها، لا تفزع أمام الفوضى، بل تُناغمها وتتعامل معها بسلام، وكأنها تمتلك القوة التي لا يمكن لأحدٍ أن يدركها.

«يعني أن أكسر، وأن أشفى في الوقت نفسه...»، أضاف وهو ينحني ليمسك برأس البقرة المرتعشة. كانت كلماته تبعث من فمه كالرصاص، غير قادرة على إخفاء الألم الذي يضرب أعماقه. «أن أصبح رجلًا لا يعترف به أحد.» همس آخر الكلمات، وكأنها تفجيرات مفاجئة من الغضب الذي يكاد يلتهمه. كان يتحدث عن نفسه وكأنه جثة حيّة، عابرٌ في عالم مليء بالهويات المزيفة والآمال المكسورة.

لكنها لم تزعزعها كلماته. لم ترف عينها، بل كانت تحديق فيه بعينيهما، اللتين لم تريا الخوف يوماً، كما لو أنها كانت تنبش في جراحه القديمة بعيونٍ أوسع من أي مرآة. كانت تقرأ الألم، وكأنها تستطيع أن ترى كل جزءٍ فيه، كما تقرأ وصفة طبية معروفة، لا تحوي أسراراً أو مفاجآت. كانت تعي ما يعنيه هذا الألم، وكانت تملك المفتاح لفهمه حتى في لحظات ضعفه، لكن كانت تبقى صامته، تتحدى في صمتها قوة الكلمات التي تُحاصرهم.

هو لا يعرف ما الذي يجذبها إليه، أهو كسره الذي يجذبها كالحديد المغناطيسي، أم هي تلك القوة التي تسكن في قلبه وتغطي جراحه بأنفاسه القاتمة؟ لكنه كان يشعر بشيءٍ ما في عينيها، شيء يتجاوز مجرد الإشفاء أو مجرد الملجأ، شيء أعمق، أكثر لهيباً، حارقاً، كأنما كانت هي اللغز الذي لا يمكنه أن يحله، حتى لو كانت هي السبب في كسوره. وفي تلك اللحظة، كانت المسافة بينهما شاسعة، مثل تلك المسافة التي تفصل بين الأرض والسما. ولكن، كانت تلك المسافة تحمل نوعاً من الفهم المشترك، نوعاً من الترابط الذي يربط الأرواح بعيداً عن الجسد. هل كانت هي منقذته، أم أنه هو منقذها؟

لكن الجواب كان في تلك الابتسامة، تلك الابتسامة التي رسمت نهاية شيء بدا مستحيلًا.

لكن الشر لم يكن خارجياً فقط، بل أصبح موجوداً في داخله، يكبر مع كل لحظة مضت، كأنما النار التي أحرقت قلبه لم تكن ناتجة عن أفعال الآخرين فقط، بل كانت ناراً مستعرة في أعماق نفسه. الريبة بدأت

تُنبِت جذورها في قلبه، وتدور حوله كحلقة مغلقة، غير قابلة للكسر. حتى الهواء حوله أصبح ثقیلاً، وكأن الأرض نفسها تراقبه بعینین متربصتین، تتربقّب سقوطه.

في تلك اللحظة، وصلته الرسالة. الشیخة أم سلطان، حارسة الأرواح التي لا یُمكن لأحد أن یفسر غموضها، قد أرسلت له خنجراً صغیراً. كان الخنجر مغلفاً بدم دیک أسود، هذا الدم الذي كأنما كان یتناثر من أعمق أسرار الأرض. وكان ملفوفاً بكلمات غیر مفهومة، رموز غریبة تكاد تعصف بمن یتسطیع قراءتها. لم یكن یعلم إذا ما كانت هذه تحذیراً أم لعنة، لكنه كان یعلم أنها علامة، علامة على شيء أكبر مما یتسطیع فهمه. هل هی دعوة للقتال؟ أم دلالة على فقدان السيطرة؟

لكن الجواب تأخر... فبدلاً من التحذیر الذي كان یتوقعه، أصبح لا یعرف إن كان قد دخل في حلقة من الظلام لا یمكنه الخروج منها. العوامل التي كانت تحیط به، سواء كانت الناس أو الظروف، كلها أصبحت غیر واضحة. لم یعد یميز من هو العدو، ومن هو الصدیق. كان الجميع یختبئون خلف أقنعتهم، وكلما حاول أن یقترب منهم، كلما غرق أكثر في الوحل.

العمال الذین كانوا یُساعِدونه في أرضه قد تراجعوا، كما لو أن شيئاً ما قد تسرّب إلیهم، وكأنهم شعروا بشيء في الأفق یهدد وجودهم. الأرض التي عمل علیها لسنوات، والنخيل الذي زرعه بیديه، بدأ یشكو. الشجرة لم تكن كما كانت، فقد أصبح ثمارها شاحبة، وكأنها فقدت رغبتها في إرضائه. النخيل في أرضه بدا وكأنه لا یرید أن یثمر له

شيئاً بعد الآن. أكان ذلك مجرد حظ عاثر؟ أم أن هناك عنة قد حلت عليه؟

كل شيء أصبح يوشوش. كانت الرياح تُحمل همساتٍ ثقيلة، وكأنها تحمل رسائل غير مرئية. الكلمات كانت تتنقل بين الأشجار والطرق كما لو أنها أصوات شياطين تطوف حوله، تُوشوش قائلاً: «الابن الملعون نظر في عيون الغريبة.»

كانت العيون تلك التي ملأت قلبه بالخوف، تلك التي بدت وكأنها ترى ما وراء الزمان والمكان. كانت الغريبة في حياته، امرأة لم يتخيل وجودها في عالمه أبداً، ومع ذلك كانت تراه، وتعرف أسرارها. هل كانت هي السبب؟ وهل كانت أم سلطان قد تلاعبت بالأقدار ليُبتلى بهذه المرايا المتعددة التي لا يرى من خلالها سوى صورة مشوهة لنفسه؟

كلما غاص أكثر في التفكير، أصبح الزمن كالسكين على رقبتة. شيء ما بدا وكأنه يُحيط به من كل جانب، شيء أكبر من مجرد لعنة أو تهديد، شيء يُغيّر كيانه، يُجبره على النظر إلى نفسه من زاوية جديدة. ووسط هذا كله، كان عليه أن يتحمل، يتماسك، ولكنه كان يشعر بالانكسار في كل خطوة يتخذها.

ثم جاء مريض الطاعون. كانت هذه اللحظة هي الوحيدة التي اضطر فيها سالم لعبور حدود المدينة، ليجد نفسه في رحلة لا مفر منها، برفقة الدكتورة روان، تلك المرأة التي اختارت أن تكون فوق القواعد، متجاوزة جميع الحدود التي وضعها التاريخ. كان المشهد غريباً. لم

يكن الطاعون هو الخطر الوحيد، بل كان الزمن نفسه يبدو وكأن كل شيء ينهار أمام أعينهم. في السيارة، الزجاج كان يعكس صورتها بطريقة غريبة، كما لو أن المرأة كانت تسجل لحظة غير قابلة للتكرار: هو، الرجل الذي تربى على الصمت، يحمل صمت الأجداد في عينيه، وهي، تلك المرأة التي كسرت قوانين الزمان والمكان، غير مبالية بما هو تقليدي أو متوقع.

كانت الطريق أمامهما فارغة، لا صوت سوى همسات الرياح التي تتخلل الزجاج المكسو بالغبار، وكأن الزمن قد توقف هناك، مع مرور كل ثانية كانت تتسارع حواسهما. في تلك اللحظة، كانت العزلة تغطي على المكان، حتى أن الهواء أصبح ثقيلاً، وكأن الأرض نفسها تشعر بالثقل الذي يشعر به قلبه. ثم، كسرت روان الصمت الذي استمر طويلاً، وقالت فجأة، بنبرة هادئة، كأنها تعترف بسرٍّ طالما خافت من قوله:

«يمكننا الهرب.»

قالتها وكأنها تقدم له خلاصاً، كما لو أن الكلمات نفسها كانت تحمل وعداً بالنجاة، أو ربما كانت هي الوعد بالتحرر من شيء ما. لكن كلماتها، على الرغم من كأنها إغراء هادئ، لم تحركه كما توقعت. فقد كانت روح سالم مشغولة بشيء آخر، شيء كان يقف بينه وبين القرار. أدار نظره إلى مرآة السيارة، وعيناه تلتقطان صورة ظل جده. كان جده يظهر في تلك اللحظة المريعة ككائنٍ متداخل مع الظلال، مُحيرًا،

يلوح له من خلف الزجاج كما لو أنه يوجهه إلى مصير غير مرئي. جده الذي طالما كان المصدر الوحيد لقصص حية عن الماضي، قد عاد الآن ليواجهه في هذه اللحظة الحاسمة، مع شيء غير مرئي في يدينه. كان يلوح له بكفنٍ نُسج من ثوب الزفاف القديم، الثوب الذي كان يرتديه حينما تزوج والدته في يوم بعيد، وكأن الزواج بين الحياة والموت قد أصبح موضوعاً مكرراً في أسرته.

هل هو مصير؟ هل كان ظلال الماضي تلاحقه؟ أم أن ما يراه الآن كان وهمًا من أوهام الحيرة التي يغرق فيها كل شخص يواجه لحظة حسم؟ ألم تكن حياته كلها مجرد سلسلة من هذه اللحظات؟

ثم نظرت إليه روان من خلال الزجاج، عينيها تلتقطان تلك الصورة التي تجمدت في ذهنه. كأنها قد قرأت ما كان يدور في ذهنه، رغم أنه لم ينطق بكلمة واحدة. هل هي تدرك ما يراه؟ هل هي تتعامل مع الحقيقة كما يتعامل هو، أم أن تفكيرها يتجاوز الحدود التي لا يستطيع هو تجاوزها؟ في تلك اللحظة، تضاعف الزمن إلى مجرد غيمة داكنة تسحبها الرياح من حولهما، ومعها تسحب آماله، كما لو أن الحياة نفسها كانت تتنقل في مسارات غير مرئية.

ثم، وكأن الصوت قد خرج من فم جده في تلك اللحظة، سمع صوته في عقله:

«السراب لا يختفي، هو يُكمل مسيرته في قلبك.»

في تلك الليلة، التي بدا فيها الكون وكأنه يضغط على صدره، كان سالم يعلم أن هذه اللحظة كانت أكثر من مجرد اختبار للوقت،

كانت اختباراً للروح. لقد ارتدى الثوب نفسه، الثوب الذي سبق له أن ارتداه في لحظة فارقة، حين كانت الأرض تهتز تحت قدميه، حين كانت السماء نفسها تتنفس ببطء أكثر من المعتاد. كان الثوب أكثر من مجرد قطعة قماش قديمة أو طقس موروث؛ كان ذكرى، رسالة غامضة جاءت عبر الأجيال لتستقر عليه كآخر حاملٍ للخيار القاتل. في تلك اللحظة، بدا وكأن الزمن قد عكف على إعادة إنتاج نفسه، وكل شيء حوله أصبح جزءاً من دورة مستمرة، دورة من الدماء، والعقوبات، والمصائر المحتومة.

عند بوابة العيادة، حيث كان الحشد ينتظره، كان هناك شيء غريب في الأجواء. لم يكن هناك هتافات. لم يكن هناك صراخ، كما اعتاد أن يراه في مثل هذه اللحظات من التاريخ العائلي، حيث كان الناس يتجمعون كالأمواج في البحر، مستعدين للصراخ والنحيب. لكن هذه المرة كانت النظرات وحدها هي ما يطفو على السطح، نظرات جافة كحجارة الوديان، باردة، جامدة، لا تحمل رحمة ولا أملاً.

كل شخص كان هناك كان مجرد شاهدٍ، شبحاً متلصصاً في الظلام. وكانت نظراتهم تحمل داخلها رسالة صامتة: «أيها القائد، حان وقت الاختيار، حان وقت القرار النهائي».

ثم، ظهر حارس الذاكرة، الرجل الذي اختارته الأساطير ليحمل قوة لا يدركها إلا من حمل سيف الحكم. كان يحمل صندوقاً صغيراً، لكنه ثقيل كحجر ثقيل في قلبه. صندوقٌ مصنوع من جلد الأفعى، أحد تلك الصناديق التي تحمل غموضاً قاتلاً بداخله. عينيه كانتا غائمتين، ولكن

زُرقة شيء قديم كان يعكس ملامح الذنب، كأن الطقوس القديمة قد ضمته في قلبها، حاملاً معه عبءًا لا يُحتمَل.

عندما اقترب من سالم، فتح الصندوق ببطء، كأن الهواء نفسه يثقل كل حركة، وكأن كل نفس في المكان ينتظر القرار الذي سيُتخذ في تلك اللحظة، القرار الذي سيحدد المستقبل والمصير. داخل الصندوق، كان هناك خياران، خيارات قاتلة، كما كانت الحياة دائمًا. الخيار الأول: دم الدكتورة روان، ذلك الدم الذي كان يرمز إلى الإنقاذ، الحياة، والأمل. ولكن هل هو حقًا أمل؟ هل كانت روان مجرد أداة لخداع هذه الأرض؟ الخيار الثاني: دم سالم، ذلك الدم الذي كان يعني النهاية، الهلاك، والذنب الذي يلاحقه منذ الطفولة.

قال حارس الذاكرة بنبرة مهيبّة، متوازنة مع رهبة اللحظة:

«الطقس لا يقبل الرماديّ. يجب أن تختار، دم الحياة أو دم الموت.» كانت الكلمات تتردد في ذهنه كالصدى، وكأنها تحفر في عقله جروحًا لا تلتئم. ولكن سالم كان يعلم، في أعماق قلبه، أن لا شيء بعد هذه اللحظة سيكون كما كان من قبل. كان يعلم أن القرار لا يعني النجاة، بل كان يعني الاستسلام، الإنهاء، ربما حتى البداية الجديدة. ولكن، بأي ثمن؟

نظرات الحشد كانت تتراقص حوله كأشباح تتأرجح بين الحافة والمجهول. وحارس الذاكرة، بعد أن ألقى هذه الكلمات التي أغلقت عليه كل الأبواب، ظل يراقب، مترقبًا، وكأن التاريخ نفسه يراقب معركة الروح التي تدور في داخل سالم.

لكن صوتهما لم يكن الأول. بل كان ضحكتهما. تلك الضحكة التي اخترقت السكون، كأنها قنبلة موقوتة انفجرت في لحظة غير متوقعة، تتساقط شظاياها في كل الاتجاهات، لتترك وراءها صمماً يتنفس بثقل. كانت الضحكة نابعة من أعماقها، هادئة ولكنها محملة بكل شيء، وكأنها كانت تقول للعالم: «أنا هنا، وهذا ما سيكون.»

خرجت الدكتورة روان من بين الظلال، كما تخرج الأسطورة من بين الأطلال المبعثرة، في مشهد بدا كأنه تجسيد لزمان غابر. كانت نظراتها حادة، لامعة، تحمل شيئاً منقلباً في عمقها، وكأنها لا ترى إلا ما خلف الحاضر، ما وراء الجدران التي طالما بناها الآخرون. كان ثوبها القديم، الذي كان يبدو وكأنه جزءٌ من الزمن نفسه، ينساب حول جسدها كأنه شريط من التاريخ يلتف حولها ليُشعر الجميع أنها ليست مجرد امرأة، بل جسر بين العصور. كانت ملامحها كالحجر المتقد، خشنة، مقاومة، في حين كان شعرها، الذي تداخلت فيه خيوط شوك السدر، يُطوق رأسها كإكليل من النار والنقاء، يُلَوِّح بالحكمة والسر الذي يعرفه الجميع ولكن لا يجرؤون على ذكره.

«تبحثون عن دم؟» قالتها، صوتها يحمل اللغز نفسه، تهديداً وحقيقة في الوقت ذاته. كل حرف خرج من بين شفيتها كان مُنْفَتِحاً في الهواء كالسَّم المُبْطَّن في كلمات ناعمة. رفعت ذراعها، في حركة لا تلبث أن تُحير العقول، حركة لا تليق إلا بمن عرفت كيف تُشكل التاريخ. على ذراعها، كان الوشم واضحاً، كأنه ختم النار، مثل تعويذة لا تُكسر، كانت علامة السلالة، سلالة القوة.

كان ذلك الوشم أكثر من مجرد رمزية. كان تاريخًا يتنفس، كان مفتاحًا لفتح أبواب المغامرة والدماء، حبلًا مشدودًا بين الأقدار التي لا مفر منها. الجميع، في تلك اللحظة، شعروا بأن الأنفاس قد انحبست في رثيتهم. كانت هي الرابط بين الماضي والحاضر، بين الأسطورة والواقع.

تقدمت نحوهم بخطوات لا تشوبها شائبة، كما لو أن أقدامها كانت تترك وراءها أثرًا من الرماد، بصمة لا تُمحى على الأرض التي طالما حلمت بأن تمشي عليها. لكن هذا الظهور لم يكن مجرد مفاجأة. كانت إعلانًا عن بداية فصل جديد، فصل مليء بالأسرار، بأسرار دماء قديمة لا زالت تطارد هذا المكان.

في تلك اللحظة، شعر سالم أن الهواء من حوله أصبح أكثر كثافة، وأن كل الأعين تركزت عليها، كما لو أنهم شاهدوا ظهور الشبح الذي لطالما سمعوا عنه في الأساطير. ولكن هذه المرة، لم يكن الشبح مجرد قصة. كان حقيقة حية، تحمل معها القوة والمصير.

الصحراء... سكنت. كانت اللحظة أكثر من مجرد توقف، كانت الزمن نفسه قد قرر أن يلتقط أنفاسه في تلك المسافة الشاسعة من التيه. كل شيء حولها كان صامتًا، ساكنًا، كأن الأرض قد أطبقت شفيتها على أسرارها، لا تجرؤ على كشف ما كان في أعماقها. الهواء توقف، كما لو أن كل رياح الأرض اجتمعت في نقطة واحدة لتتردد في قلب الصمت. كانت السماء فوقها مظلمة، ثقيلة، والشمس قد اختفت وراء أفق بعيد، فحتى أشعة الضوء كانت تبتعد عن هذه البقعة النائية.

كانت الرمال، تلك التي عادةً ما كانت تعبر عبر الهواء كالذكريات المنسية، حبست زفيرها. لم يعد هناك شيء يمكن أن يتحرك. الصحراء نفسها أغلقت حواسها. هل كانت تنتظر شيئاً؟ أم كانت هذه اللحظة معركة ضد الزمن نفسه، حيث أن المستقبل والماضي اتحدا في نقطة واحدة، عميقة كالحفر التي لا تُرى، لكنها كانت هناك، مدفونة في قلبها؟ في هذا المكان، كانت الأشياء لا تُقال، ولا تُفهم، ولا تُرى. كانت الصحراء تأخذ شكل التاريخ المعتم، وكل ذرة رمل تحمل معها سرّاً قديماً، لا يجرؤ أحد على فكّه. كل زاوية، وكل خط من الأفق كان يحمل رائحة الزمن، أثر البشر الذين جاؤوا وذهبوا، آثار دماء اختفت لتُترك وراءها صمماً مريباً. هنا، في هذه اللحظة، كان الحلم والموت يسيران جنباً إلى جنب، وكأن هذا العالم بأسره كان على وشك أن يلتهم نفسه.

ورغم السكون الذي أحاط بها، كان هناك شيء في الهواء، شيء غير مرئي، يتصاعد ببطء. كان الفزع، الشك، كأن الرمال نفسها بدأت تشعر بشيء ما تحت سطحها، شيئاً لم يكن من المفترض أن يُكشف. كان الأمر أشبه برائحة مشتعلة تحت الأرض، تحاول الصعود لكن لا تجرؤ على الظهور. كأن الصحراء نفسها كانت تحبس أنفاسها في انتظار اللحظة الحاسمة.

وبينما كان كل شيء راكداً، توقعت أن تسمع صوتاً، أو همساً، أو حتى همسات الرياح التي عادةً ما تُلطّف هذا السكون. لكن لا شيء جاء. كانت اللحظة عميقة، مربكة، مكثفة. هنا في هذا الفضاء المفتوح،

حيث الأرض والسماء تلتقيان في نقطة واحدة، كان الشعور بأن كل شيء متوقف... حتى الكون نفسه كان يقف في مكانه، يتأمل ما سيحدث بعد ذلك.

سالم اقترب، خطواته ثقيلة في صمت الليل، كما لو كان يتنقل بين عوالم مختلفة. كان وجهه خاليًا من التعابير، لكنه لم يكن فارغًا. سكنته، تلك التي تعلمها في الحروب القديمة، كانت سلاحًا يتجاوز جروح الجسد. بيده، كان يحمل سيف الحقيقة الذي سيقطع كل الأوهام، لكن ليس كما يتوقع الجميع. لم يغرس السكين في قلبها، كما كان يشتهي الجميع، بل غرسها في خاصرته. كان يفدي نفسه بنفسه، يختار أن يموت بيده بدلًا من أن يراه الآخرون يموت بسببها.

في تلك اللحظة، كان الزمن قد توقف. عيون سالم معلقة بعينيها كما لو أن الزمن نفسه كان يتأمل في هذا الصراع الصامت بين العشق والدم. الدم يختلط مع تراب القبيلة، كما لو أن الأرض نفسها كانت تحتفل بذلك الانقسام الداخلي. لم يكن موتًا عاديًا، بل كان نهاية لم تُكتب في أي من كتب التاريخ، بل كان بداية لرحلة أخرى، حيث تتناثر كل المعاني إلى الخارج وتُختبر على حافة الحياة والموت.

«الحب... ليس اختيارًا، بل انتحارٌ بطيء،» قالها بصوت منخفض، وكل كلمة كانت كالرصاصة، تخترق صمت الليل، تردده صخور الجبال القديمة. كانت الكلمات تن، محملة بكل وزن المعاناة التي عاشها، بكل الألم الذي كتبه عن العالم. وقبل أن يسقط على ركبتيه،

كان الجسد قد بدأ في التهاوي. لكن لم يكن السقوط هو النهاية، بل كان الحقيقة التي كانت مخبأة طيلة الوقت في ظلال قلبه الممزق.

وفي اللحظة التي كشف فيها عن الخنجر في ظهره، كانت الحقيقة أكثر مرارة مما كان متوقعًا. كان دائمًا هناك، يتسلل إلى أعماقه كلما حاول الفرار منه، يخترق جسده دون رحمة، كما كانت جروحته هي جزء من هويته. لقد كان هو نفسه هو من وضع الخنجر في ظهره، لقد كان الصراع داخليًا، معركة بين ما هو مُحَبَّب وما هو قاسٍ، بين الموت والحياة، وبين الأمل واليأس.

وهو الآن، وهو في تلك اللحظة من الضعف، بين الحياة والموت، كان يكتشف أنه ما من مفر من الحقيقة. الحقيقة التي كانت دائمًا هناك، خلف الجدران المظلمة، في أعماق الأعماق. أن الحب لا يعني الحياة، بل يعني الموت قبل أوانه.

وحين ابتلعت الأرض دماءه، كان الصمت هو الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه. كانت الدكتوراة روان واقفة هناك، تراقب المشهد بعيونٍ غارقة في الحيرة والألم، كما لو أنها فقدت شيئًا أعظم من رجل مجرد. كانت كل قطرة دم تنسحب إلى جوف الأرض، تشدّ معها قطعة من قلبها، تسحب معها كل الآمال التي حلمت بها، وكل الأحلام التي لطالما حاولت أن تبنيها على أنقاض الماضي.

لكن في تلك اللحظة، بينما كانت الأرض تبتلع جسده، أدركت الحقيقة الفادحة. العدو لم يكن القبيلة، ولم يكن السيوف التي ارتفعت في السماء ولا حتى اللعنات التي أُلقيت من أفواه الشيوخ. العدو كان

شيئاً أكثر فتكاً، وأكثر استمرارية من أي سيف أو لعنات. كان الخوف. ذلك الخوف القديم الذي أودعوه في قلوبهم، ذلك الخوف الذي زرعه في أذهانهم حتى صار جزءاً من عروقهم وأرواحهم.

الخوف من التغيير، من كل ما كان غريباً عنهم، من كل ما يعارض تقاليدهم ورؤيتهم الثابتة للمستقبل. كانت الدكتوراة روان، بكل ما كانت تمثله، الرمز الحي للمستقبل الذي يراهنون عليه خوفاً. امرأة تأتي لتستبدل القديم بالجديد، تعالج، ولكن لا بد أن تعالج أكثر من الجسد. كانت تعالج النفوس العميقة، كانت تقاوم الخوف المتغلغل في كل زاوية من قلوبهم. الخوف من التغيير الذي يهدد حياتهم، ومن امرأة تأبى أن تكون جزءاً من الماضي، من امرأة لا تخشى أن تضع يدها في يد المستقبل.

أما سالم، كان ذلك الرجل الذي أحبها، أحب التغيير في عينيها، أحب الروح الجديدة التي جلبتها، لكن ذلك الحب كان يحمل معه العذاب والدمار. لأنه كان يعلم، كما كانت تعلم هي، أن العالم الذي يعاركه لن يقبلهم ببساطة. أنهم سيكونان دائماً في مرمى الخوف، في مواجهة مع أشياء أكبر من أنفسهم.

وفي تلك اللحظة، بينما كانت دمائه تنزف إلى الأرض، أدركت أنه لم يكن فقط القبيلة هي من تحاربها، ولكن الخوف نفسه. الخوف من المستقبل الذي لن يكون هناك مجال للهروب منه. الخوف من امرأة تعالج، من رجل يحب، من أمل في غدٍ مختلف. إنهم لا يقاومونها فقط،

بل يقاومون أنفسهم، يقاومون هذا التغير الذي بدأ يدب في أرواحهم، والذي لا يمكن لأي سيف أو لعنة أن تقف في وجهه.

لكنها، الدكتوراة روان، رغم كل هذا، لم تشعر بالخوف. كانت تعرف جيداً أن القلوب التي تعيش في الخوف لن تعرف أبداً الحياة، ولن ترى النور أبداً.

وهكذا، حين نزلت أولى قطرات المطر بعد سنواتٍ من الجفاف، كان كل شيء في القرية في حالة صمّتٍ مهيب، كما لو أن الأرض نفسها كانت تتنفس لأول مرة. الهواء العابق بالغبار، الطرقات التي تشقها أعمدة الشمس الحارقة، والوجوه الجافة التي كانت تراقب السماء، جميعها تجمعت في لحظة واحدة تحت ذلك السقف الغائم. كل شيء توقف، كما لو أن الزمن نفسه تردد في اتخاذ خطوة جديدة.

ثم، جاءت تلك القطرات، تتناثر كأحجارٍ ناعمة على الوجوه الخشنة، على الوجوه التي اعتادت أن تبسم في وجه الموت، وتخشى من الحياة. أول قطرة، ثم الثانية، ثم الطوفان الذي جاء بعد ذلك كأنه فجر جديد. القطرات التي كانت تحمل معها أصداء الماضي، تحمل معها دعوات المحرومين، آهات أولئك الذين ماتوا وهم يظنون أن الزمن لن يعطف عليهم.

وفجأة، بصوت غير متوقع، كان حفيف المطر هو الصوت الذي أدركه الجميع: أن الموتى لا يملكون القرارات بعد الآن. كانت تلك اللحظة بمثابة إعلان حقيقي، أن الزمن قد تغير، وأن الكل كان عليه أن يعيد حساباته. الموتى، الذين كانوا يُعتقد أنهم يملكون مفاتيح

الحكايات القديمة، يملكون التحكم في مصير الأحياء، كانوا مجرد صدى في الريح، غبارًا في ذاكرة الزمن الذي لا يتوقف عن التطور.

كانت الأرض نفسها، التي طالما كانت غاضبة وقاسية، تستجيب أخيرًا لنداء الحياة. الموت، الذي كان قد حكم على الجميع بالجمود، أصبح مجرد هالة ضبابية تتبدد مع أول بادرة نور. القرية، التي كانت محكومة بالصمت والخوف، بدأت تدريجيًا في إحياء نفسها، في التمرد على القيد الذي فرضه عليها الموت.

لكن السؤال الذي بقي معلقًا، كان هل سيتبعون التغيير؟ هل سيتخلون عن ماضيهم ويعانقون الحياة الجديدة، أو أن أشباح الماضي ستظل تلاحقهم، تحمل معهم قيودًا لا يمكن التخلص منها؟ هل سيجرؤون على التحرر من إرث الموتى؟

بينما كانت الأمطار تتساقط بغزارة، تتسابق الأقدام على الطرقات، وتتشابك الأيدي بين القديم والجديد، كان هناك شعور مشترك، أن شيئًا أكبر من الجميع كان يحدث. شيئًا قد يغير مصيرهم إلى الأبد.

في ليلة عجيبة، حين كانت النجوم تراقب الأرض بعيون نصف مغلقة، كما لو أنها شهدت شيئًا لا تجرؤ على قوله، كانت السماء نفسها تتأمل، تحمل في قلبها أسرارًا لا يمكن للبشر فهمها. الليل كان ثقیلاً، وكأن العالم بأسره يتنفس في صمت، مخفيًا خلف عباءة الظلام أشياء مريبة. بين الظلال، أم صقر كانت هناك، موجودة في الظل، تراقب كل حركة من خلف شقوق الستارة التي كانت تُخفي أكثر مما تكشف.

كانت عيونها، التي لا تُخطئ شيئاً، معلقة على تلك اللحظة التي استمرت لحظاتٍ طويلة. سالم، ذلك الرجل الذي كان يحمل عبء الماضي في قلبه، وقف في الزمان والمكان الذي كان يعبر فيه إلى حافة القرار. عيونها كانت تحديق فيه، كمن يراقب شبحاً على وشك أن يتلاشى، لكنها كانت تشعر بشيء آخر. لم تكن تلك نظرة وداع، بل كانت نبوءة مشتعلة، تحمل في طياتها قوة لا يعرفها إلا من عاش في الظلام.

كان يعرف أن هناك شيئاً غير طبيعي في تلك اللحظة. شيء ينقض عليه في صمت. نظرته نحو العيادة كانت أكثر من مجرد وداع. كانت نظرة محملة بالعمّة، كأنها تغلي في قلبه، تشير إلى نهاية ما، أو ربما بداية شيء لا يمكن للزمن أن يحتمله. كانت نظرة تفتقر إلى الارتياح، مليئة بالغموض، وكأن الريح نفسها كانت تعرف سرّاً لا يُقال.

أم صقر، التي شاهدت كل شيء، كانت تعرف ما لا يعرفه الآخرون. أحست بموجةٍ من البرودة تندفع عبر جسدها، كأنها تلقت رسالة قديمة مكتوبة بالدم، تلك التي حملها سالم منذ سنواتٍ طوال. عطره، المخلوط بالتراب والحديد، كان يعطر الجو حوله كأنما يخبئ في طياته باروداً، لكن الصمت الذي لف المكان كان أشد وقعاً من أي كلمة.

كانت أم صقر تعرف تماماً ما تعنيه تلك النظرة. كانت خيانة، ولكن ليس بالمعنى التقليدي. كانت خيانة أعمق، خيانة للزمن، للقدّر، للحرية التي اختارها بنفسه. خيانة لأن سالم كان على وشك كسر كل

الحدود التي بناها الآخرون حوله، وفي قلبه كان يكتشف شيئاً أعمق من الحب، وأكثر قسوة من الخوف.

وهي، كما لو كانت تعرف النهاية، صمتت في الظل، تراكمت على وجهها تجاعيد الحيرة. هل كان سالم يعرف أن هناك شيئاً كان ينتظره في العيادة؟ هل كانت تلك هي اللحظة التي سيكتشف فيها الجميع أن المعركة لم تكن بين البشر فقط، بل بين القوى التي لا تُرى؟

لكن أم صقر كانت تبتسم ابتسامة غامضة، كما لو أن الزمن كله كان يستعد لأداء رقصة أخيرة، واحدة لن تُنسى أبداً.

حين تنفّس الفجر، خرج من بين ثنايا الظلام شعاعٌ غريب، مثل وعدٍ غامض. كانت السماء قد بدأت تتنفس ببطء، وكأنها تلتقط أنفاسها من ليلةٍ طويلة، مظلمة، مليئة بالهمسات. لكن قبل أن تشرق الشمس، كان الخبر قد سبقها إلى أبواب البيوت، يدق عليها دقاتٍ ثقيلة، تُسابق الرياح، ترفرف كأجنحة الطيور الجريحة. كان الخبر مفاجئاً، قاسياً، كما لو أن الرياح نفسها، التي لطالما تحمل رسائل الصحراء، قد اختارت هذه المرة أن تكون رسالتها ثقيلة وصامتة.

ابن الرمال لم يعد لهم، وكل شيء في القرية بدا وكأنه تحول فجأة إلى صمتٍ مريب. كانت العيون تتساقط من الجدران، وتنتقل من شخص إلى آخر، محملة بالكثير من الأسئلة التي لا تجد إجابة. سالم، ذلك الرجل الذي كان رمزاً للثبات في مواجهة تقلبات الزمن، لم يعد كما كان. لقد وقع في شرك الغريبة، كما يسقط السكين في صدر الهدوء،

جارحًا كل شيء حوله. كان كمن جذب نحو الهاوية دون أن يدري،
بينما كانت الأيدي المجهولة تحرك خيوط القدر حوله.

كلما حاول أحدهم أن يعيد له نصفًا من نفسه، كان يجد الأرض
تتسحب تحت قدميه، وكأنها لم تعد تعترف به. تلك الغريبة، التي كانت
تحمل في عيونها الغموض وتاريخًا من اللامبالاة، كانت تسحب الرجل
ابن الرمال إلى أرضٍ غير أرضه، إلى حكاية لا تُحكى إلا بالألم.

كان التساؤل يسكن الجميع في تلك اللحظة. كيف يحدث أن يضع
رجلٌ بحجم سالم في يد امرأة؟ كان ذلك يشبه أن يسقط الشمس في
بحرٍ مظلم. تلك الغريبة كانت كـ الريح التي تأتي فجأة لتقتلع كل شيء
في طريقها، تختطف الأرواح والآمال معًا، وتركنها في مكانٍ لم يعد
مألوفًا. وكل من في القرية، الذين كانوا يعرفون سالم كأيقونة ثابتٍ،
كانوا يشهدون تلك اللحظة التي تحوّل فيها الرجل إلى ظلٍ على
الأرض، ظلٍ لا يعرف كيف يهرب من نفسه.

حين سمعوا الخبر، كانوا في البداية في حالة من الصمت، كأنهم
ينتظرون من الزمن أن يتراجع قليلًا، ليعيد لهم الأمان. لكن الريح التي
حملت الخبر كانت كخنجرٍ مسموم، دخل إلى قلوبهم دون أن يُشعرهم
بالألم في البداية. هل كان حقًا وقع في شركها؟ أم كانت هي الحيلة
التي دُبّرت بعناية لتدمير كل شيء كان يعبر عنه ابن الرمال؟ الحقيقة
أصبحت أكثر غموضًا من أي وقتٍ مضى، والقرية كانت تغرق في أسئلةٍ
لا يمكن لأحدٍ الإجابة عنها.

الهمسات كانت فقط أولى الموجات التي سحبت معها الصمت وأطلقت العاصفة. في مقهى الحاج خالد، حيث كانت رائحة التبغ تُعانق الماضي، تتناثر في الهواء شظايا الذكريات، وتندمج مع رائحة الثَّار التي ما زالت عالقة في الجدران. كان المكان يشبه حلمًا مشوهًا، لا يعرفه سوى من عاشوا بين خيوط الزمن الممزقة. يجلس الجميع هناك في ظلال الحكايات القديمة، في صمتٍ ثَقِيلٍ، بينما تدور العيون حول الطاولة الصغيرة التي احتفظت بأسرار الرجال الذين غابوا، وذكريات الخصومات التي لا تُمحى.

لكن اليوم، كان الوضع مختلفًا. شيخ عثمان، الرجل الذي كان في الماضي بمثابة مرشدٍ حكيم، يقف أمام الجميع وهو يمزق ورقة الشجرة التي كانت تحمل في طياتها أسماء من يستحقون النجاة. لم يكن الممزق مجرد حركة يد. كان تحطيمًا لشيءٍ عميق داخل القلب، شيء كان يخشى الجميع الاقتراب منه. الورقة، التي كانت أرشيْفًا للعدالة، أصبحت الآن رمزًا للهزيمة.

«لقد كان سيفًا في يدنا...» قال حارس الذاكرة بصوتٍ خافت، كمن يردد تعويذة مظلمة، لكن الكلمات كانت تحمل ثقلًا أكبر من المعتاد. كان يعبر عن خيانةٍ لا فكاكٍ منها، وعن رحلةٍ انتهت بدماء لا يمكن غسلها. السيف، الذي كان يومًا أداة للحماية والانتقام، تحول الآن إلى صدعٍ عميق في حائطنا. وكان الحائط نفسه مجموعة من الأسرار التي تركتها الرياح ليحملها الزمن دون أن يشعر أحد. تصدع الحائط، وتفكك النسيج الذي ظل موحدًا لسنواتٍ طويلة.

نظرات الحاضرين كانت تتوالى بسرعة، تتقاطع وكأنهم يشعرون بأنهم على حافة الهاوية. وحارس الذاكرة، الذي اعتاد أن يكون مُعتمدًا عليه في تحديد من يعيش ومن يموت، شعر الآن أن السهم الذي أطلقه ذات يوم قد عاد إليه. لقد خسر كل شيء. لم يكن الصدع في الحائط سوى بداية النهاية، وبداية النهاية في العقول.

ثم بدأ التوتر في الانتشار، الدماء التي جفت في الماضي عادت لتصبغ الأرض بألوان جديدة، والعيون التي أغلقت على الظلم أعادت فتحها، لتلتقط تفاصيل الخيانة. كان الجميع يعرفون، لكن خوفهم من الحقيقة كان أكبر من أي شيء آخر.

صمت المكان كان غير قابل للتحمل، بينما يواصل حارس الذاكرة نظره نحو الورقة الممزقة، وكأنها تأخذ معه كل شيء. كان يدرك أن هذا ليس مجرد فعل عاطفي، بل تحولًا في مسار الأقدار، وكأن العالم كله يصرخ في وجهه «لقد فات الأوان».

ثم، جاءت الهمسات مرة أخرى، ولكنها هذه المرة كانت أكثر عمقًا. الريح تحمل أنينًا قديمًا، وتردد أصداء الماضي التي لا يستطيع أحد الهروب منها. كان حارس الذاكرة، في تلك اللحظة، يعلم أن القطار قد خرج عن مساره، وأن الألم القادم لا يمكن تجنبه.

نساء المريني لم ييكن. بل جلسن، كأنهن ساحرات غارات في طقوس غامضة، تحت ضوء القمر الباهت، ينسجن نولًا من الغضب. أيديهن المتقنة تراقص فوق الخيوط السوداء، كأنها تدفن في كل غرزة لعنة منسية، قديمة لا تمحى، تنبض في جسد الزمان. لم تكن الخيوط

مجرد خيوط، ولا كانت الأنامل مجرد أطراف تتلاعب بالقماش. كان ذلك فناً غارقاً في الدماء، كل حركة كان لها تاريخٌ مرير، وكل غرزة كانت تحتفظ بسِرِّ قاتل.

كانت الوجوه محاطة بأجواء مظلمة، كأنهنَّ ينسجنَّ فصلاً جديداً من الحكاية التي لا تنتهي. العيون لم تكن ترى العالم من حولهنَّ، بل كانت تسبح في عالمهنَّ الخاص، حيث تتشابك الخيوط مع أوجاع الزمن. الهواء كان ثقيلاً، يملؤه رائحة الموت والانتقام. ولم يكن ثمة كلمات، بل فقط صمتٌ يتكلم، يلفه سر غامض.

كل خيط كان يحمل وعداً بالدم، وكل غرزة كانت تمهد لموتٍ قادم. كان هذا العمل احتفالاً بالموت في أشكال مختلفة. لكن الموت هنا لم يكن النهاية، بل كان البداية. بداية لقصة جديدة، ترتبط بالمرارة والانتقام. والمرينيات، في سكونهنَّ العميق، كنَّ يدركنَّ أن الساعات المقبلة تحمل بين طياتها تحولاً هائلاً في مصير الجميع.

الظلال التي تحيط بهنَّ كانت تكبر مع كل غرزة، وكل خيط أسود ينغرز في النول كان ينسج سجنًا من الأقدار المتشابكة. وكأنهنَّ كنَّ يتلعبن بمصير العالم بأيديهنَّ، يربطن كل حكاية مريرة بمصير آخر، وتبدأ الأساطير تولد من جديد.

وفي تلك اللحظة، أدرك الجميع أن نساء المريني لم يكنَّ يصنعنَّ موتاً فحسب، بل كنَّ يصنعنَّ الحياة بطريقة لا يستطيع أحدٌ أن يفهمها. «لتخرس عيناكِ يا دكتورة روان... ولتتعفني في الصمت كما يتعفن الحلم تحت الرمل.» كانت الكلمات كالسياط، تنقض على قلبها

وتلتف حوله بلا رحمة. كان الصوت يتسرب من بين شفثيه، باردًا كخواف الجليد، يحمل بين طياته تأنيبًا وتهديدًا. بينما كانت نظراته تخترقها كخناجر، تقطر غضبًا غير مرئي، تراقص بين ظلال العتمة التي تحيط بهما.

في تلك اللحظة، كانت الدكتورة روان تشعر بوجع أعمق من الجرح، أقوى من أي تهديد. لم يكن الصوت مجرد تهديد، بل كان قرعًا على أبواب الماضي، كما لو أن الكلمات كانت تسترجع صدى كل الأكاذيب التي طالما كُتبت على جدران قريتها. كان هناك شيء مروع في هذا الصمت الذي حلَّ بينهما بعد تلك الكلمات. كأن الزمن قد توقف فجأة، مثل ساعة قد توقفت عقاربها، ولا أحد يدري إلى أين سيتهي هذا الفقد الكبير.

العبارة التي لفظها، بدت كأنها طلقة نارية في الليل، تُسقط كل الحواجز بينهما. ولكن الأمر لم يكن كذلك فقط. كانت كلماتٌ مسمومة. كل حرف كان ينقض على الذاكرة ويملأها بالدماء والأحلام المسروقة. عيناها، تلك التي طالما كانت تجسد الأمل، كانت الآن مقيدة بالصمت، محشورة في زوايا الغرفة المظلمة. وفي عمق تلك اللحظة، كانت تتساءل في نفسها إن كانت حقًا تسير نحو نهايتها، أم أن هذا الاستسلام المؤلم كان جزءًا من مباراة أكبر.

لكنها لم تتراجع، لم تندثر في الصمت كما أراد هو. لم تكن هي تلك التي تتعفن في الرمال. بل في صمتها كان هناك ثورة، قوة تتصاعد في الأعماق، كالبركان الذي سيخرج في لحظة لا يتوقعها أحد. كانت

أيديها على الزجاج المهشم الذي حاولوا أن يحجبوا من خلاله نورها،
لكن الزجاج قد انفجر بالفعل.

وبينما كانت تتنفس بهدوء، كانت تشعر أن هذا الصمت أصبح
السلاح الأشد فتكًا. وفي عالمهم المظلم، حيث لا يتواجد سوى
الخوف والتهديد، كانت تعرف أنه لا وجود للحلم الذي يتعفن في
الرمل. بل الحلم هو الذي سيولد من الرماد، كطائر ينهض من بين
الأطلال ليحيي الحقائق المدفونة.

حتى الأطفال، أولئك الذين لم يعرفوا الحب بعد، والذين لم تلوث
قلوبهم بعد خيبات الزمن، أنشدوا الأغنية كما لو أن أرواحهم قد قيّض
لها أن تشعر بما لا يفهمون. خافته هي الكلمات، لكنها كانت محمّلة
بالخراب، كأنها خرجت من أعماقهم، من مكانٍ بعيدٍ في الذاكرة، لا
يصل إليه سوى الهمسات المخنوقة والأنفاس المتكسرة.

«العاشق الخائن، أطعم الذئب من لحم أجداده...»، كانت الأنغام
تسلسل بين الجدران، خافتة، لكنها مليئة بالغضب والتوجس. كانت
تلك الكلمات تُعيد إلى الأذهان صورًا غامضة، أشياء مطفأة في التاريخ،
تكاد تتحرك بين السطور، كما لو أنها كانت قد اكتسبت شكلاً جديدًا
من التحذير.

لم يكن الأمر مجرد أغنية بريئة، كما قد يبدو للوهلة الأولى. كان
التراث يتنفس من بين حروفها، ينسج من الماضي خيوطًا مشؤومة،
وتلك الكلمات التي خرجت من أفواه الأطفال كانت رصاصةً في قلب

الزمن. كانوا يفهمون أكثر مما يتصور أحدهم. لم يكن الطفل بحاجة إلى شرح ليفهم الخذلان الذي يحملونه في دمائهم، وليرتبط بين العاشق والخيانة، وبين الذئاب والدماء المسفوكة.

كانوا يرددون كلماتٍ تعلموها من الظل، من الأحاديث التي خافت أن تخرج إلى العلن. كلمات كانت ملغومة بمعنى أعمق، تعكس الحقيقة المُرّة التي كانوا يرونها في عيون من حولهم، الحقيقة التي كانت تبتلعهم ببطء. في تلك اللحظة، كان الزمان والمكان يشهدان على تحوّل البراءة إلى خيبة، الطفولة إلى فراغ.

«العاشق الخائن، أطعم الذئاب من لحم أجداده...»، كانت الأغنية تتناثر في الهواء، كل كلمة كانت تضع حجرًا على قبر الحقيقة. وكان الأطفال، أبرياءً وجامعين في آنٍ واحد، يغنونها كمن يعبرون عن شيء لا يمكن قوله، عن عبورهم في طرقٍ مظلمة، على جسرٍ من الفقد.

ومع كل كلمة، كان الخوف يتسرب إلى قلوبهم، يستقر في جوفهم كعدوٍ لا يمكن محاربته. كانوا يرون في أعين الكبار كل شيء مكسور، كل شيء غير مكتمل. وحتى إذا حاولوا الهروب إلى عالمهم الصغير، كانت تلك الكلمات تلحقهم، تقتحم أحلامهم، تلتهم حتى الأمل في لحظة راحة.

وفي ذلك الصوت الهادئ، غير القادر على الصراخ، كان ثقل التاريخ يتنقل عبر الأجيال، من الأجداد إلى الأبناء، لينثر في دواخلهم الطعم المر، الطعم الذي لا يمكن تذوقه دون أن يترك أثرًا لا يمحي.

وكانت السماء كما لو أنها تستمع، تراقب، وتحمل في طياتها علامات تدمير جديد، بينما الأطفال يتنفسون نفس الخوف الذي كان يلتف حول قلوبهم، دون أن يدركوا تمامًا ما سيأتي، أو ما الذي ينتظرهم في المدى البعيد.

وجاء التحذير الأول كما تجيء الهواجس، غامضًا، لا يفهم في اللحظة نفسها، بل يتسلل بهدوء إلى الأعماق قبل أن يضيع في زحمة الحياة اليومية. كان كما لو أن القدر قد قرر أن يخاطبها بهذه الطريقة الغريبة، برسالة مشفرة، مخفية في التفاصيل التي لا يدركها سوى من اقترب من حافة النهاية.

على عتبة العيادة، حيث كانت تتأرجح الأشعة الأخيرة لشمس الغروب بين جدران المكان، كانت الجرة هناك، كما لو أن الزمن قد توقّف لحظة ليتركها لتكتشف هذا الرمز الغامض. جرة فخار بدوي، بسيطة في مظهرها، لكنها حملت شيئًا أكبر بكثير مما يمكن للعين أن تراه. كانت محاطة بهالة من الصمت الموحش، مغطاة بذرات من غبار الزمن، كأنها كانت قد مرت بحروب لم تذكرها كتب التاريخ.

داخل الجرة، كانت عينًا جمل أعمى، ثابتتين، جامدتين في نظراتهما التي تبحث عن شيء بعيد في الأفق، وكأنهما كانتا تشهدان الحقيقة في آخر لحظة قبل أن تسقط. كانت العينان مليئتين بشيء من اليأس، من العذاب، كما لو أنهما قد شهدتا اللحظة التي يكتشف فيها المرء أن كل شيء قد فات، وأن الحقيقة التي نبحت عنها طوال حياتنا لا تخرج إلا في لحظات الختام، لحظات لا يمكن للإنسان العودة منها.

الدكتورة روان، التي كانت دائماً ترفض الخوف، والتي كان العقل هو سلاحها الأول، وقفت لوهلة أمام الجرة، قلقها يزداد. فذلك الكائن الصامت الذي في داخل الجرة كان يحمل رسائل أكبر من حدود المكان. قلبها، الذي كان قد تعلم السكينة مع مرور الأيام، شعر بشيء ما يغزو أحشائه. هل هو تحذير؟ هل هو اختبارٌ أخير؟ من الذي تركه هنا؟ ومن كان يقصد أن يصل لها بهذه الطريقة؟

حركة يديها كانت بطيئة، أكثر من اللازم. العيون المظلمة التي تطل من داخل الجرة كانت تُراقب كل حركة، وكأنها تعرف تماماً ما سيحدث بعد لحظة. كما لو أن الزمن بأسره قد توقف لكي تلتقي هذه النظرة بنظرتها، وكأن الجرة نفسها كانت تحمل بين جدرانها أسراراً لم تُفتح بعد.

وبينما كانت تلامس الجرة بحذرٍ، شعرت بأن الأرض تحت قدميها بدأت تتأرجح. كان هذا ليس مجرد هدية، بل كان شيئاً أكثر: رسالة من عوالم أخرى، من ماضي بعيد، وربما من مستقبل لا يمكن الهروب منه. كل شيء حولها كان يتغير بسرعة، الحواف تذوب والظلال تصبح أطول. كانت تلك العينان الأعمى تراهما وهي في الزمان والمكان، كما لو أنها قد شاهدت شيئاً لم يكن يجب أن تراه.

«الحقيقة لا تأتي إلا في اللحظات الأخيرة...»، قالت في نفسها، ولكن لم تستطع أن تفهم تماماً إن كانت هذه الكلمات تعبيراً عن شيء عميق، أو مجرد هاجس.

لكن في تلك اللحظة، عرفت أن هذه الجرة ليست مجرد فخار. إنها بوابة، رمزٌ قديم، قد يكون مفتاحًا لشيءٍ أكبر من كل ما رأته. وأيقنت أنه لا مفر من مواجهة ما كان مخبئًا خلفها، حتى لو كانت هذه المواجهة ستكلفها أكثر مما تحتمل.

وبدون أن تلاحظ، بدأت أقدامها تتحرك تلقائيًا نحو الباب، في حين أن الريح كانت تحاول أن تهمس في أذنيها: «لا تفتحي... فالعينان تعرفان أكثر مما تظنين».

سالم لم ينتظر تفسيرًا. لقد كان قد ملَّ من الأسئلة، من الترقب، من الانتظار. حياته كانت سلسلة من اللحظات التي لا تُعطى تفسيرًا، كل شيء كان مبهمًا، كل شيء كان غامضًا، وكان يتنفس هذا الغموض كما يتنفس الهواء الملوّث. عيانه، اللتان اعتادتتا على الغموض، لم ترحا في لحظة، كان يتعامل مع الحياة وكأنها ألغازه لا تُحل، وكأن الزمن نفسه لا يعني شيئًا.

الجرة أمامه كانت عالمًا مغلقًا، مليئًا بأسرارٍ متشابكة، لكنها ليست أكثر من وعدٍ بالخطر، بشيءٍ لم يكن مستعدًا له. في اللحظة التي رفعت فيها يده نحو الجرة، جفل قلبه، لكنه لم يتردد. قلبه الذي تعلّم أن يكون شديد الصمت لم يعد ينطق بأي كلمة، فقط كان ينبض بشدة، وكأن القرار قد اتخذ بالفعل.

وما إن داس الجرة بقدمه العارية، شعر بشيءٍ غريب يمر عبر جسده، كأنما الأرض نفسها زلزلت تحت قدميه. كان الزجاج يصرخ في وجهه، وكان شظاياه يتناثرون حوله كما لو أن العالم كله كان ينهار. شعورٌ

غريبٌ بالانفصال اجتاحه، وكأن الأرض كانت تتحرر منه، أو هو كان يتحرر منها. الشظايا التي شقّت جلده جعلت الدم يقطر ببطء، لكن شيئاً فيه لم يهتز.

«الخوف...» تمتم بها، كلمة متقطعة، لكنه عرف أنها كانت أكثر من مجرد كلمة. الخوف بالنسبة له كان الحقيقة الوحيدة التي عرفها جيداً. الخوف من الفقد، الخوف من المجهول، الخوف من الحقيقة التي لا يستطيع الهروب منها. الخوف كان المدرسة التي ترعرع فيها، وأصبح جزءاً من كيانه. لقد تعلمه حتى في أحلامه، وكان الوحيد الذي يعرفه.

في تلك اللحظة، رأى ظلال الماضي تلوح أمامه كأشباح، تسحب معه الذكريات التي لم يكن مستعداً لمواجهتها. أشباح صغيرة تراقب خطواته، كأنما تنتظر اللحظة التي يخطئ فيها. ومع كل خطوة يخطوها، كان الزجاج المكسور يصرخ في أذنه كأنما يحاول أن يخبره بشيء ما. لكن سالم لم يهتم. كان هناك شيء في أعماقه يصرخ قائلاً: «لا تفكر في الماضي، لا تدع الشيطان يسيطر على ذهنك».

ثم جاء صمتٌ غريب، حتى الهواء نفسه توقف عن التحرك، وكأن العالم قد تجمد. رائحة الدم والدمار كانت تملأ المكان، لكن سالم لم يشعر بالهلع. لا شيء في هذا العالم يمكن أن يهزه الآن. كل شيء توقف في لحظة. كان هو، والزجاج المكسور، ودمه الذي بدأ يتناثر على الأرض كأثرٍ من آثار حياةٍ عاشت ثم انتهت.

الذهن بدأ يتحرر من الأعباء التي كانت تثقله، وفي تلك اللحظة، شعر وكأن العالم كله قد أفرغ نفسه منه. كانت الضبابية التي عاش فيها

لسنواتٍ قد اختفت فجأةً، وأصبح واضحاً له شيء واحد: الخوف كان العدو الحقيقي، والتحدي هو الانتصار عليه.

لكن في قلبه، كان يعلم أن هذا ليس كل شيء. أن اللحظة التي شهد فيها انهيار الجرة لم تكن سوى بداية لحربٍ أعمق، لحظة البداية التي لا مفر منها.

ثم اشتعلت الحرب... في المكان الذي كانت النساء يملأن فيه جرار الماء. الهواء نفسه تغير، و الأرض اهتزت، كأنها كانت تنتظر اللحظة التي سيغرق فيها السكون في بحرٍ من الدماء. الجرار التي كانت تتحول بين أيدي ناعمة إلى رمزٍ للسلام، أصبحت ميداناً لدمارٍ قادم، وكان صمت الريف الذي طالما عاش فيه الجميع كما لو أنه ليس أكثر من خديعة.

في تلك اللحظة، كانت الأرض نفسها تتنفس على نحو غير مألوف. رائحة الموت كانت تتسرب بين الحقول، وحيث كانت النساء يسجن الجرار المملوءة بالماء من الجداول العذبة، باتت الخطوات ثقيلة و الأنفاس محشوة بسموم الحرب القادمة. كان الجرار التي كانت تحكي قصص السنين الماضية، تردد صدى بداية جديدة، بداية للدماء التي ستسقط على الأرض.

بينما كان الرجال يخطون خطواتهم نحو المعركة، كان الصمت يثقل المكان، وكأن كل شيء حولهم كان يعرف أن الحرب قد بدأت، ولم يعد هناك أي مهرب. النساء، اللاتي كن يملأن الجرار بماءٍ يغذي الأرض، أُجبرن على أن يصبحن جزءاً من القتال. أيديهن التي كانت

ترسم خطوط الأمل في المكان، أصبحت الآن تمسك بالأدوات التي تزرع الموت.

الجرار التي كانت تسرد للعالم قصص الحياة، وتحمل الأمل في أحشائها، كانت الآن حاملة للدماء. كان الماء، الذي كان يمثل الحياة، قد تحول إلى دخانٍ أسود يتسرب في عيون الجميع. لم يكن هناك سوى الأئين الذي كان يختلط مع صرير الأسلحة، وصوت الرياح التي كانت تحمل عواء الذئاب التي تتسابق لالتهام ما تبقى من سلام.

الجدران التي كانت تزينها الصور القديمة للعائلات التي كانت تعيش هنا، تحولت إلى مرايا من حطام. كل شيء تحطم، وكل رائحة ازدهار انقضت عليها نيرانٍ عاتية. الصمت الذي عمّ المكان كان أقوى من كل الصراخ، أقوى من كل الهتافات التي تمزق الأفق.

وفي وسط هذا الجنون، كانت النساء يقفن هناك، في نفس المكان الذي اعتدن فيه على أخذ وقتهن في الراحة بين خطاهن. لكن الآن، لا وقت للراحة. الدموع كانت تندب أرضًا سقيت بالأمل، ولكنها أصبحت الآن ملونة بلونٍ قاتم.

حين وقع أول حجرٍ على الأرض، كأنما كان إشارة البداية. لا أحد كان يتوقع أن القتال سيبدأ هنا، في هذا المكان الذي كان منبع الحياة، بينما كانوا يشربون من نفس الماء الذي يروي أرضهم. ولكن الآن، كان الماء يروي الدماء، وكان الصمت يُخفي صرخات القلوب التي كانت تطلب النجاة. وهكذا اشتعلت الحرب... حيث كانت النساء يملأن الجرار بالماء.

في عز الظهيرة، حين كانت الشمس تشعل الأرض بلهبها، خرجت ندى من بين أزقة القرية. كانت الطفلة التي علّمتها الدكتورّة روان كيف تُمسك القلم دون أن ترتجف، وكأنّها كانت تحمل سرّاً من نوعٍ آخر، سرّاً لا يعرفه إلا من مرّ بتجربةٍ لا تُمحى الأيّام. ندى، التي اعتادت على سماع صوت الرياح وهي تحاكي أوجاع الماضي، كانت الآن تحمل في يديها كتاباً صغيراً، لكن صفحاته كانت خفيفة، ومعناها كان ثقيلاً كالسحر، كأنّها تحمل عالماً كاملاً داخل هذه الأوراق التي تصفحتها مرات عديدة، لكنها كانت تشعر أنها لم تفهم إلا اللمحة الأولى من عمق تلك الكلمات.

كان الكتاب يبدو بسيطاً من الخارج، غلافه المتهالك يروي قصة الزمن الطويل الذي مر عليه، ولكن ندى كانت تعرف أن في داخله شيء مختلف. شيء لم يكتب بيدٍ عادية. لم يكن الكتاب مجرد كلمات مرصوفة في ترتيبٍ عشوائي، بل كان مفتاحاً لسرٍ عميق، شيئاً قد يغير كل شيء.

نظراتها، تلك النظرات التي كانت تلتقط كل تفصيلٍ صغير في محيطها، تجول على الصفحات وكأنّها تحاول فك شيفرة قديمة. أصابعها الصغيرة كانت ترتجف قليلاً، ليس من الخوف، بل من الشعور بأنها قد اقتربت أكثر من معرفة ما كان يخفيه الكتاب. كانت الأنفاس ثقيلة، كأن الزمن نفسه قد توقف، وكل شيء كان يدور حول هذه اللحظة التي سيكتشف فيها السر. في تلك اللحظة، لم يكن الكتاب

في يد ندى مجرد ورق، بل كان شبحًا يطاردها، يشدها إلى مكانٍ لا تعرفه، ويُعيدها إلى زمنٍ كانت قد نسيت تفاصيله.

ندى، الطفلة التي تعلمت كيف تكتب الحروف دون أن ترتجف، كانت الآن في مواجهة مع قويٍّ أكبر من الكلمات. كانت عيناها، وكأنهما مغناطيسٌ يستقبل العالم كله، تلاحقان كل حرف يمر على الورق، بينما كانت الحروف تلمع وكأنها تسطر مصيرها على مرأى منها. لم تكن تدري ما الذي سيحدث في اللحظة التالية، ولكن كل شيء حولها كان يحتوي على تحذيرٍ ما، يشدها للبحث عن الحقيقة التي لطالما أخفها الآخرون. كانت الهواء من حولها مشبعًا بشيء من الغموض، كأنما يحاول أن يخبيئ السر الذي كان مخططًا له منذ الأزل.

الدكتورة روان، التي علمتها كيف تمسك القلم وتكتب، كانت قد زرعت في قلبها رغبة غريبة في المعرفة، رغبة في فهم ما وراء الأشياء. ومع كل خطوة كانت ندى تأخذها نحو الأمام، كل صفحة تقلبها كانت تكتشف أنها ليست مجرد كلمات، بل رموز، مفاتيح لعالمٍ آخر، لعالم لا يدركه إلا من يخوض فيه بإيمانٍ كامل. كانت متأكدة أن الكتاب كان يختبرها، وكأن الكتاب نفسه كان يقول: «هل أنتِ مستعدة؟»

حين أغمضت ندى عينيها للحظة، شعرت بشيء عميق يتغير في داخلها، كأنما انفتحت أمامها أبوابٌ جديدة. الكتاب لم يكن مجرد كلمات مكتوبة على الورق. كان هو البوابة، وكان على ندى أن تتخذ القرار. هل هي مستعدة لدخول ذلك العالم الغريب؟ هذا العالم الذي سوف يغير كل شيء؟

«هذا ما أراده الغريبة!» صرخ أحدهم بصوتٍ خافتٍ، يحمل فيه الغضب والفرع في آنٍ واحد. كانت كلماته تتناثر في الهواء كالرصاص، مثقبةً جدران الصمت الثقيل الذي لفّ المكان. مزّق الكتاب، ذلك الكتاب الذي كان سرّاً غامضاً يعبر بين الأيدي كالشعلة التي قد تحرق من يقترب منها أكثر من اللازم. رماه في البئر، كل ورقةٍ تتناثر في الظلام وكأنها تجسد مجزرة صامتة في جوف اللامرئي. الرائحة التي نشأت من الورق المحترق، ورائحة الأرض العميقة التي امتصت الفعل، كانت تفوح بمرارة لم تستطع أي روح أن تحملها.

«أن تجعل من بناتنا نساءً يكتبن... لا يلدن!» كانت الكلمات تقفز من فم الرجل وكأنها لعنة. لعنة خفية نزلت على الأرض، وكأنها تصدر من أعماق الذاكرة التي طالما كانت تُدفن تحت طبقات الزمن. كان صوته يرتجف كما لو أنه اكتشف فجأة السر القاتل، سر قديم كان محفوظاً في أقبية الجبال، لا يُكشف إلا في اللحظة التي يستحيل فيها إيقافه. الكتاب الذي تمزق، كان ليس مجرد كتاب، بل كان أداة قديمة، كانت تحرك الرياح في قلب الجبال وتحرك العقول في قاع البحر، تجلب معها خوفاً لا يمكن هزيمته، خوفاً من المستقبل الذي كان يخطه آخرون.

ندى، التي حملت الكتاب، كانت الآن في قلب عاصفة هوجاء، لا تدري كيف بدأت، ولا كيف ستنتهي. التحذيرات التي أطلقها الرجل كانت كطلقات نارية تهز الذاكرة، وتبعث أسئلة في عقلها لم تجد لها إجابة بعد. لماذا الكتاب؟ ولماذا الآن؟ كانت الكلمات التي كتبها أشبه بمفتاح، مفتاح للغموض الذي لا يفهمه أحد، لكن الجميع يشعر به.

من بعيد، كان الليل قد بدأ يسحب الظلال ليملاً السماء، وكان القمر معلقاً في الفضاء كروحٍ لا تعرف أين تكون. في الظلام، كان صوت الماء الذي ارتطم بالكتاب في البئر، وكأنما كان ينطق بصمتٍ رهيب، كما لو أنه يحمل معه سرّاً قديماً. هل كان هذا هو الندم؟ هل كانت الأخطاء التي ارتكبتها الجيل الماضي تنبعث الآن كالأشباح، تحاول الانتقام؟ كان الصوت الذي يشبه الآهات يسرق الأفق، ينتقل عبر الهواء، ويبقى في كل زاوية من هذا المكان الذي لم يعد آمناً بعد الآن.

وفي تلك اللحظة، كانت الرياح تعوي من بعيد، وكأنها تسحب معها الذكريات المدفونة في الزمن البعيد، تذكّرهم بما حاولوا نسيانه. «لا تلدن» كانت تلك الكلمة التي تخيفهم أكثر من أي شيء آخر. لأنهم يعلمون أن الكتابة لا تعني فقط تخليد لحظة، بل تغيير واقعٍ كامل، وأن المرأة التي تكتب هي امرأة قادرة على كسر القوانين، قادرة على أن تُعيد تشكيل المستقبل بيدها، قادرة على أن تُغير الواقع الذي تحياه.

لكن الكتاب، الآن في قاع البئر، كان قد فقد الحياة التي كانت في طياته، السر الذي كان يحمله قد تلاشى في الماء. أما ندى، فقد كانت تقف هناك، تتساءل إن كان ما فعلته هو الصحيح. هل كان يجب أن تقرأ الكتاب أم أن ما حدث كان إشارة على أنها دخلت إلى عالم لا عودة منه؟

وفي لحظة، كانت الزمن نفسه يتوقف عن التنفس. تحوّل سالم من رجل عاشقٍ يبحث عن مغفرة إلى ظلٍ مزمجر، كما لو أن شيئاً ما في أعماقه قد انكسر فجأة، ليس بيدٍ أو سكين، بل بحممٍ تندفق من صميمه.

عيونه، التي كانت تعكس في يومٍ ما ضوء الأمل، أصبحت نوافذ مظلمة لا ترى إلا الدماء التي تجري في أورده كأنهارٍ ملوثة. سيفه القديم، الذي كان في الجدار رمزاً للماضي، للشجاعة، وللحبّ الذي لا يموت، ارتفع فجأة في الهواء كأنما كان يتنقم من الزمن نفسه. طار نحو الصدر، واهتز في الهواء كذكرى دامية تخترق الذاكرة. لم يكن الهدف قلباً أو جسداً فحسب، بل كان الدم الذي سيُسكب مرة أخرى ليغسل الأخطاء القديمة، ليُغلق الكتاب الذي كان قد كتبوه بيديه في تلك اللحظة التي لا يُمكن للزمن محوها. وتوقف السيف عند عنق ندى المرتعش، كما لو كان يعلم تماماً أنه ليس مجرد تهديد، بل وعداً بأن المستقبل سيكون حبراً داكناً.

كان الهواء في تلك اللحظة بارداً كحجرٍ صلب، لا يسير، لا يتحرك، وكأن كل شيء حولهم كان يراقب القرار الذي سيُحسم في ثانية واحدة. كلمات سالم، التي خرجت من فمه كالرعد، كانت تملأ المكان كله:

«من يقترب من حرفٍ واحدٍ مما علّمتها... سأجعله يكتب بدمه!»

كانت الكلمات ثقيلة، مرعبة، وكأنها لعنة تخرج من أعماق الظلام. كان صوتها يخترق الجدران، يُسكت حتى الطيور في السماء، ويجعل القلوب تتوقف عن الخفقان. سالم، الرجل الذي كان يُؤمن بحبّه، أصبح وحشاً مظلماً يقتل الكلمات قبل أن يُكتب لها أن تُقال. في عينيّه، كان هناك غضبٌ عارم، لا يمكن لأي شيء أن يقف في وجهه، إلا الزمن ذاته، الذي كان قد اختار أن يلاعبه في تلك اللحظة المصيرية.

القرية، التي كانت تراقب في صمتٍ ثقيل، أدركت الرسالة... لكنها لم تغفر. كان في أعينهم شيءٌ أكثر من الخوف، كان الرهبة من ذلك الرجل الذي أصبح ظلاً أكثر من إنسان. الحب في عينيه قد تحوّل إلى انتقام، والذين علّمهم الكلمة أصبحوا الآن في دائرة الخطر. لم يكن الأمر مجرد تهديد لفظي، بل كان فعلاً قاسياً من رجلٍ حسم أمره: لن يترك أحداً يقترب من ما بداه.

لكن حتى في قلب تلك الغضب، ندى كانت تحمل في عينيها التحدي. كان قلبها ينبض ببطء، لكن عقلها لم يتوقف عن التفكير. هل هو تهديد؟ أم وعدٌ يمكن أن يصدق؟ كان السيف، الذي ظلّ صامتاً في الجدار لعقودٍ من الزمن، قد اختار أن يُقتل من أجله. ولكن هل كان فعلاً يُقاتل من أجل الحب؟ أم كان ذلك مجرد انتقام للزمن الذي ضاع؟ في قلب تلك القرية التي كانت تمتلئ بالهمسات والمكائد، كانت الحقيقة تُعاند الوضوح، والأشياء التي كانت تُقال بصوتٍ منخفض، أصبحت الآن صرخات مبحوحة. لكن الحقيقة الوحيدة التي كانت واضحة، هي أن سالم قد دخل في حربٍ لا عودة منها، وأن الدماء التي سيُريقها ستكون جزءاً من إرثٍ مظلم لا يمكن لأي شيء أن يمحوها.

في صباح اليوم التالي، كانت العيادة تعيش في صمتٍ رهيب، كأنها شهدت لحظة صمت قبل العاصفة. لكن شيئاً غريباً كان يحمل في طياته رسالة لم تُقرأ بعد. على جدار العيادة، حيث اعتادت الظل أن يختبئ وراء الجدران الباردة، ظهر رسمٌ قديم لم يكن ليظهر إلا في تلك

اللحظة: «الرجل الذئب». كان الرسم محاطاً بهالة من الظلام، كما لو أن الأزمنة نفسها قد تجمعت في هذه اللحظة لتمطر عليها شيئاً من الخيبة. الرجل الذي كان يتسلل في أحلامهم، ذو الجسد العاري، وعينه اللتان تبرقان كالقولاذ. كان رسماً لا يتنفس، ولكنه يعيش، ينهش في ذاكرة الأرض. الرجل الذئب الذي لا يكتفي بما هو موجود أمامه؛ لا من حب ولا من دم. كان جوعه يتجسد في كل خطٍّ من خطوط الرسم، وفي كل ظلالٍ باهتة كانت تتسلق الجدران كما لو أنها أشباح من الماضي.

عينيه، اللتان كانتا تملأهما نارٌ لا تنطفئ، كانت تقول كل شيء عن جوعٍ أبدي. كان يبدو وكأنها تنظر إلى ما هو أبعد من الجدران، وكأنها تراقب نفوساً ضائعة في مكانٍ ما في تلك الأرض الوعرة. أما أسنانه، التي كانت تبرز من فمه كفأسٍ حادة، كانت ترمز إلى شهية لا تشبع، ورغبة في الانتقام لا تتوقف.

أمام الجدار، وقف سالم. كان وجهه شاحباً، لكنه مشدود كالجبل المربوط على حافة الفقدان. «الرجل الذئب»... كان يشبهه أكثر من أي وقت مضى، وكان الجوع في تلك الصورة كان جوعه هو. كان يتعاطى مع ذاته، لكن هذه المرة ليس في صمت، بل في صرخةٍ مكتومة. نظراته تتنقل بين الصورة والواقع، كما لو أنه يحاول أن يجد الرباط بين الحلم واليقظة.

تذكر ماضيه... كيف أن العيادة كانت محض ملاذٍ آمن. كان كل شيء هنا يتنفس الطمأنينة، ولكن الرسم على الجدار كان يذكره بأن

أرواحاً أخرى قد سكنت هذا المكان. أرواحٌ لم ترَضَ يوماً بأن تكون بلا لذة، ولا حتى بلا دماء. كان يعرف أن الرجل الذئب كان هو، لكن لا يجرو أن يواجه نفسه أمام ذلك الجدار. وداخل نفسه، كان الجوع يبدأ بالتمدد مجدداً، كأنه مرض قديم يظل يعود كلما خفت أصوات الأمل.

«هل هي اللعنة التي لا تنتهي؟» تمتم في نفسه، مستشعراً تلك الهمسات الخفية التي تطوق قلبه. كان الصمت في العيادة يثقل عليه أكثر من أي وقت مضى. ولم يكن أمامه سوى أن يُغمض عينيه ليحاول الهروب من هذا الظلام الذي بدأ ينسج نفسه حوله.

لكن الغريب في الأمر أن العيادة لم تكن مجرد جدران أو ممرات مليئة بالأمل. كانت أكثر من ذلك، مكاناً مشحوناً بالأسرار، بذكرياتٍ قديمة لعشيقٍ مفقود، ولدمٍ غُسلَ بأيدي براءة. الجروح القديمة كانت تتفتح على جدران العيادة، وكان الرجل الذئب هو كل ما أخرجوه من الظلام ليحكم عليه.

لكن الدكتورة روان، التي عاشت حياتها كلها تحت ثقل صوت والدها الذي كان يردد حكمة قديمة لا تساوم على الحق: «الخوف لا يُعاش، بل يُهزم»، كانت هي من تتحدى الظلمات في كل لحظة. في عينيها لم يكن هناك شيء سوى الإصرار. وعندما نظر إليها الجميع في تلك اللحظة، كانت كما لو أنها فكرة قد نزلت من عوالمٍ أخرى، لا تشبههم ولا يشبهونها.

كانت واقفة في وسط العيادة، كما لو أنها تعرف تماماً ما يخبئه لها القدر، لكن لم يكن أيٌّ منهم يعلم أنها قد واجهت أشياءً أكثر قتامة بكثير

من كل ما رأوه أو سمعوه. على طاولة جانبية، كان يرمقها مشروطها الذي لا يفارق يدها، و مصباحها الصغير الذي كان يضيء في العتمة، كان يعبر عن قوتها في عالم لم يعرف الرحمة.

لكن الرمزية التي كانت تحيط بها لم تكن مجرد أدوات علاجية. كانت تلك الرمزية تقول أكثر مما قد تعبر عنه الكلمات. كانت امرأة تحمل مشروطاً ومصباحاً... والرمز الأكبر كان يتجسد في تلك الكتب التي كانت موزعة حولها على طاولة العيادة. كتبٌ بخطٍ مهزوز، وكأن اليد التي كتبتها كانت ترجف بشدة، لكن رغم ذلك، كانت كل كلمة منها تنطق بحكمة لا يمكن فهمها إلا من قبل أولئك الذين ابتليوا بمعرفة الحقيقة أكثر مما يستطيعون تحمله.

على الكتب، كانت هناك كلمات مكتوبة بشيفرة قديمة: «أو حراس النور... ضد شياطين الظلام». كان هذا التحذير في حد ذاته رسالة واحدة... رسالة أعمق من كل تفكير. كانوا شياطين الظلام الذين لا يمكنهم أن يرضوا بأن يعيش البشر في النور، أولئك الذين يعملون في الخفاء لزرع الخوف في النفوس وتحطيم كل ما هو جميل. وكان عليهم أن يواجهوا حراس النور، هؤلاء الذين يقفون في وجههم بعزم، كما تقف الدكتوراة روان في تلك اللحظة، لا تخشى شيئاً، بل تضع ثقتها في كل ما تعلمته من معاناة.

والآن، العيادة نفسها كانت بمثابة معركة بين النور والظلام. كل رائحة في المكان كانت تفيض بالقوة، وكأن كل جرح، وكل نظرة، وكل

خطوة كانت تشق طريقاً نحو الحقيقة التي طالما تم إخفاؤها. ولكن بين يديها، لم تكن الآلام هي ما يجذب انتباهها، بل كانت البحث عن الحق هو شغفها. وقد كانت تواجهها المرة تلو المرة في كل حالة تأتينا إليها.

بينما كان سالم واقفاً هناك، ينظر إليها وكأنها الجزء الأخير من اللغز الذي لم يتمكن من حله أبداً، لم يكن يدرك بعد أن تلك الكتب المهزوزة كانت هي التي ستكشف له عما كان يراه في أحلامه. بينما كانت الأدوات الطبية في يدها تتحدث عن النجاة، كانت هي تكتب بنفسها فصلاً جديداً من تلك القصة التي ستغير معالم العالم بأسره.

وعندما فتحت الكتاب القديم، وبكت عليه بعض الدموع التي تجمعت في عينيها، كان الأمر أشبه بعهدٍ قديم، وكان العهد هذا يحثها على مواصلة المعركة، ضد كل ما يريد أن يسحب النور بعيداً عن هذا العالم. حراس النور لم يكونوا مجرد أفراد، كانوا أفكاراً جريئة، كانت تتحدى كل شيء.

كل شيء صار سلاحاً.

كان الهواء نفسه الذي يتنفسه أهل القرية، مشبعاً بشيء غريب، شيء قاتل. مع كل نفس، بدا وكأن الحياة تتقلص، تذبل، تلتوي في طياتها حتى تفقد شكلها. كان الرغيف الذي يلقي أمام باب كل منزل، في تلك الليلة المظلمة، مثل طعنة خفية، ملمس دافئ على الخارج، لكنه يحتوي على سمٍّ مرٍّ في جوفه، ينتظر اللحظة التي يسقط فيها في الحلق.

أما الماء، فقد تغير أيضًا. كان هو الآخر يحمل طعمًا مختلفًا، لا يستطيع الإنسان تمييزه إلا حين يكون متأخرًا جدًا. تلك القطرات التي كانت تغسل الوجوه وتروي الجسد، أصبحت الآن مطرزة بلعنة قديمة تُدعى «عقم العاشقة». لعنة تُصيب القلب قبل أن تصيب الجسد، تجعل العيون تبحث عن أفق لا وجود له، وتظل الأرواح معلقة بين الهاوية والضوء، كما لو أن الوجود نفسه اختار أن يعاقبهم بالصمت.

ولكن، الضربة الكبرى لم تأت من ذلك الماء ولا من ذلك الخبز. لم تأت من أي شيء يمكن للإنسان العادي أن يلمسه أو يحسه. كانت أكبر من ذلك، أكبر من أن تُحاط بكلمات.

جاءت ليلة الزفاف الأسود. تلك الليلة التي لا يعرفها الغرباء، تلك التي لا يستطيع أي عاشق أن يعود منها حيًا. كانت اللحظة التي تقف فيها الأرواح على مفترق الطرق، وتجذ نفسها مضطرة لاختيار ما لا يمكن التراجع عنه.

عند منتصف الليل، حين كان العالم نائمًا في غيبوبة موحشة، قرع خافت على باب العيادة. كان الصوت كأنما هو لحن من عالم آخر، لحنٌ يشير إلى نهاية شيء ما، إلى بداية شيء لا يمكن تصوره. عندما فتحت الدكتوراة روان الباب، كان الصندوق هناك، على عتبة العيادة، كأنه مفاجأة الموت نفسها.

داخل الصندوق، كان هناك ثوب زفاف أصفر، لونٌ غريب يتناغم مع الحزن. ثوبٌ لم يُصمم للفرح، بل للوداع. كانت خيوط الثوب قد تناثرت في الهواء وكأنها تتحرك كأشباح الماضي، وكل شبر من

قماشه كان يروي حكايةً مظلمة عن أسرار لا يمكن إخراجها للعلن. كان الثوب يبدو كما لو أنه يلتصق بكل لحظة من الألم، وحين ارتدته المرأة، كان الخوف يشع من كل زاوية في قلبها. كان الثوب رابطاً بين الحياة والموت، بين العشق والفقد.

وفوق الثوب، كانت الورقة، تحمل خط حارس الذاكرة. الكلمات التي كُتبت عليها كانت تحمل دمًا ثقيلاً، وكأنها قد نزت من قلبه نفسه: «اختاري... الرحيل مع أول خيط شمس، أو ارتداؤه عند شروقها.» تلك كانت اللحظة الحاسمة. هل تلتقط الروح فجراً جديداً، بعيداً عن آلام الأرض، أم أن هناك شجاعة في الاحتفاظ بالثوب، في ارتدائه كما يرتدي السجين زنزانه، ليحمل على جسده علامة النهاية؟ اختيار واحد، مسار واحد. ولكن أيهما أفضل؟ الرحيل في اللحظة الأولى للضوء، أم الانتظار، حتى يشهد الفجر تلك اللحظة الأخيرة من التورط في الخيانة والقدر؟

تحت الثوب، كانت الحقيقة تنتظر كما ينتظر الوحش في الظلام، في صمتٍ مرعب يتراكم مع مرور الوقت، لا يستطيع أحد أن يتنبأ بنهايته. كان الثوب، ذلك الثوب الذي بدت خيوطه وكأنها تهتز في الهواء بفعل الأنفاس المترقبة، غطاءً للسرّ، يخفي أكثر مما يُظهر، أكثر بكثير. وبين طياته، كانت الحقيقة تنتظر اللحظة التي ستنكشف فيها.

حين رفعت الدكتوراة روان الثوب عن جسدها، شعر الجميع بنفسٍ بارد يعبر المكان، كأن الهواء قد تجمّد فجأة، كما لو أن الزمن نفسه قد

توقف في تلك اللحظة. تحت الثوب، كان الخنجر هناك، صغيراً لكنه قاتلاً، يعكس لمعاً بارداً كما يلمع السيف قبل أن يقتل. خنجر محفور عليه اسم «سالم»، وكأنه إرث ثقيل من الماضي، لا يمكن للزمان أن يزيله ولا للموت أن يحرفه. كان الاسم مسجلاً على الحافة الحادة للألم، كما لو أن سالم كان جزءاً من هذه اللحظة المقررة سلفاً، جزءاً من قدرٍ لا فكاك منه.

لكن ما كان أكثر رعباً، وأكثر إثارة، هو الخريطة. خريطة قديمة كانت تجلس بجانب الخنجر، مرسومة بخطوط متعرجة وكأنها رسمت على سطح الرمال نفسها. وعلى تلك الخريطة، كانت هناك دروب متشابكة توصل إلى صحراء «النياق»، تلك الصحراء التي لا تعرفها سوى النفوس الضائعة، حيث تُدفن الذنوب، لا في الأرض فقط، بل في الذاكرة نفسها، حيث يختفي كل شيء إلا الرمال. وفي تلك الصحراء، إذا وُلدت الذنوب على هيئة قبلة، فإنها تُدفن هناك، في قلب الأرض الحارقة، حيث لا يعود للذنوب وجود.

قبلة واحدة كانت كافية لتحمل كل تلك التضحيات، كل تلك الأسئلة المعلقة في الأفق، وتهبط بهما إلى الهاوية. القبلة، تلك التي تشبه وعداً بالهلاك، والتي لا يمكن أبداً أن تُغفر؛ لأنها كانت بداية نهاية لا يمكن أن تُلغى. وما أن يظأ المذنب صحراء «النياق»، حتى يختفي كأنه سراب، لا يترك خلفه إلا خريطة، خريطة لا تكشف عن شيء سوى الموت البطيء الذي يتسلل عبر الرمال ويغرق في الظلال.

كان هذا هو الحكم النهائي. خنجر سالم. خريطة قبره. وصحراء «النياق». كان الموت، كما كان الحب، يحمل معه التوقيع الأول على النهاية. وكلما انكشفت الحقيقة، كلما تبلبلت الأرواح، وتهاوت كل التوقعات التي كانت تحاول أن تفسر ما يحدث.

لكن هل كان هذا نهاية؟ أم مجرد بداية لما هو أكثر عمقاً، أكثر قسوة، أكثر تشويقاً؟

لكن الفجر لم ينتظر أحداً، وكأن الزمن نفسه قرر أن ينسحب من تلك اللحظة ويتركها تتخبط في الظلام. الهدوء الذي كان يملأ الأرجاء قد تبدد فجأة، كما تتناثر الغيوم مع أول نسمة رياح. صرخة، عالية ومتوحشة، مزقت هذا الصمت كالرعد في قلب الليل. الدكتورة روان، تلك المرأة التي كانت تسير في الحياة كما يسير الموت في الطرق المظلمة، تركض الآن بلا تفكير، كما لو أن قلبها لا يعترف بأي شيء سوى الهلع الذي يسبق قدميها. الأرض تحتها تتسارع وهي تتنقل من شبرٍ إلى آخر، عيونها تغرق في الظلال، حتى وصلت إلى المزرعة حيث كان كل شيء قد بدأ. هناك، بين النيران التي بدأت تتساقط كالأمطار، كان سالم يقف بثبات، وكأنه رمز من زمنٍ قد انقضى، رجل لم يعد ينتمي إلى هذا العصر، بل إلى تاريخٍ بعيد، محفور في الذاكرة.

سالم، بكامل عافيته المظلمة، كان يقف كما لو أنه مرآة لماضيٍ مظلم، عينيه ثابتتين نحو السماء التي كانت تُعلن أول علامات الشروق. حوله، كانت خمس ذئاب، جثثها مستلقية في الرمال كدمى مهشمة،

وكأنها كانت ضحية لقدرٍ لا يفهمه أحد. لكن الغريب في الأمر، أحدهم كان يحمل وشماً على جسده لا يمكن أن يُخطئه أحد: كان «الهباش»، كما لو أن الأرض قد كتبت عليه اسماً ليظل يلاحق الجميع كوشمٍ لا يمحي.

لم تكن تلك الذئاب، بكل ما فيها من مشهدٍ دموي، ذئاباً عادية. سالم، الذي كان وجهه مغطى برماد الذكريات، نطق بالكلمات التي كانت أكثر من مجرد تفسير: «هذه ليست ذئاباً...» قالها بصوتٍ منخفض، لكن ثقيل، كأن كل كلمة كانت تخرج من أعماق الذاكرة المظلمة، تلك التي حُفرت في أعماقه بشكلٍ لا يمكن أن يُمحي. كأن الجراح القديمة عادت لتهتف، وتوقظ الوحش الذي كان ساكناً في أعماق الزمن البعيد.

ثم أكمل بصوت متألم: «هذه رسائل مكتوبة بالفرو... والسكين.» كانت كلمات سالم تتساقط على الأرض كأنها حروف من دم، كلمات تُشعل النيران في العيون. تلك الذئاب، بما تمثله من رسائل غامضة، كانت مُرسلةً إليه، وليس فقط إليه، بل إلى الجميع، إلى من يجروُ على فتح الكتاب القديم الذي يعود إليه التاريخ البشري، تاريخ الغدر والدماء. السكين، الذي كان مغروساً في الصمت، هو الذي كتب الرسالة، وهو الذي يعرف تماماً كيف يُحدّد المسار.

فإذا كانت الذئاب قد أرسلت برسالة، فماذا كانت تلك الرسالة تحاول أن تقول؟ وماذا سيحدث عندما يعيد سالم قراءة تلك الرسالة، بعدما أصبحت الحياة كلها تلاحقه كما يلاحق الظل صاحبه في الظلام؟

وفي الأفق، حيث تلتقي السماء بالأرض في خطٍ غير مرئي، كانت الصحراء تفعل ما لم تفعله منذ قرون. لم تكن تلك الرمال التي تلتهم الزمن وتغسله في صمت، ولا تلك الرياح التي تنقّص على الفضاء كما لو كانت تحمل أسرارًا قديمة. هذه المرة، كان المشهد مختلفًا، مشهدًا يعيد صياغة مفهوم الزمن ذاته. الصحراء، التي تعودت على احتضان الغموض والتاريخ المجهول، كانت اليوم تحبس أنفاسها. كأنها، للمرة الأولى، تنتظر شيئًا ما. أو ربما شخصًا ما.

الرياح توقفت، كما لو أنها شعرت بتغير في الجو، في السياق. كانت الرمال تنفس بصعوبة، تراقص في هدوء غير مألوف. وعلى الرغم من الطبيعة القاسية التي لا يهتمها سوى الفناء، كانت هناك لحظة صغيرة، دقيقة، مليئة بالتوتر، تتسلل بين التلال كخيطةٍ رفيع من الأمل واليأس معًا. كان هذا الانتظار هو أول خيطٍ يربط تلك الصحراء القديمة بالقادم، القادم الذي لا أحد يعرفه سوى السر الذي يسكن بين صخورها وأمواج رمالها التي لا تهدأ.

عينها، تلك التي كانت تراقب الأفق في صمت، كانت الصحراء تعرف أنها تستعد لحدثٍ يتجاوز كل ما حدث من قبل. لم تكن العيون مجرد رموزٍ للفراغ، ولا كانت الرمال تسطح نفسها دون سبب. الحدث كان على وشك أن يحدث. وكان الجو، الذي سبقته عواصف من تساؤلات، يمتلئ بشيء غير مرئي، شيء سيتكسر عند أول لحظة من الحقيقة.

هل كان الجواب قادمًا؟ أم أن الصحراء، التي طالما حكمت بالجمود، كانت على وشك أن تسكت نفسها أخيرًا؟

في ليلةٍ انشَقَّ فيها جلدُ السماء، كانت الأرض تنفَس كأنها تبكي من جرحٍ قديم. كان الليل ثَقِيلاً، مكتظاً بالذكريات التي لا تجرؤ على الخروج، وكأن الزمن نفسه قد قرر أن يفتح أبواب الحزن على مصراعِها. السماء لم تكن مجرد سماء تلك الليلة. كانت صوتاً صامتاً يئن، يصرخ في أعماقها، تقاومه غيومٌ متراسة كأنها تحمل أوجاعَ أعوام مضت. وفي تلك اللحظة، انفجر المطر كاعترافاتٍ مؤجلة، لا يكاد الإنسان يسمعها إلا عندما يعي أن الوقت قد تأخر كثيراً. قطراته كانت تنهمر كأنها كلمات لم تُنطق أبداً، أسرارٍ عجزت الألسن عن البوح بها، تُسقطها السماء أخيراً في شكلٍ مبلل، مفعم بالندم.

وكان المطر يتساقط كدموعٍ ثقيلة، كما لو أن السماء نفسها قررت أخيراً أن تبكي. ولم يكن هذا مجرد مطراً عادياً، بل كان فيه لحنٌ مأساوي، يردد أصوات العذاب في قلب الليل. النهر الذي كان طيلة سنواتٍ كالقم المعلق على أسرارهِ، انتفض فجأة، وكأن الأرض نفسها تفتح سجلَّها الأسود، الذي طالما جاهدت أن تخفيه. زمجرة النهر كانت أقوى من كل شيء، تشبه تنهيدة رجلٍ خائنه الذاكرة في لحظةٍ محرّجة، عندما يسعى لالتقاط شتات نفسه في غياب الأمل. كانت المياه، التي تنساب ببطء، تجر جر معها ما لا يُقال. رائحة الدم المنسي كانت تطفو على السطح كفكرة فاسدة، رائحة تطارد الذاكرة وتستدعي الأشباح التي دفنتها الأيام.

الظلام كان يملأ الأفق، وكل شيء حوله كان يصرخ، الريح كانت تدور في دوائر كما لو أنها تحاول أن تلتقط من الماضي بعض الحكايات التي فُرت منها، والنهر نفسه كان يحمل معه كل الخيبات الماضية. كان المطر يخبر القرى البعيدة، والعقول التي ظنّت أن الزمن قد شفاها، أن الحقيقة، تلك التي كانت مغمورة في الوحل منذ وقت طويل، قد بدأت تطفو. وفي هذه اللحظة، كان الجميع يعلم أن اللحظة التي لا يمكن الفرار منها قد حانت.

وسط الأشجار المنحنية، التي كانت تتلوى كأجساد أمهاتٍ في صلاةٍ طويلة، كان سالم يقف كحارسٍ للوقت المفقود. الأشجار، التي تنحني بأطرافها نحو الأرض، وكأنها تحاول أن تحتفظ بأسرارٍ قديمة، كانت تراقب بصمتٍ قاتل. أغصانها كانت تشابك مع بعضها، تغلق السماء وتخفي ضوء القمر، وكأنها تخفي شيئاً من الماضي الذي لا يجب أن يظهر.

سالم كان في قلب هذا المشهد، جسده مشدوداً كقوسٍ على وشك الانطلاق. في تلك اللحظة، كان الكهف الذي يتنفسه العالم حوله قد أصبح في حالة صمتٍ مطبق، وكأن أنفاس الكون نفسه قد تجمّدت في تلك اللحظة. عيناه اللامعتان كانتا تراقبان الأفق، حيث يبدو كل شيء في حالة انتظارٍ مشحونة، وكأن الأرض نفسها تتأهب لما سيحدث بعد قليل. شخصه، الواقف هناك في الظلال، كان يبدو وكأن الزمن قد انفصل عن مساره العادي، ليتركه في مكانٍ محاط بالخفاء.

كانت سكينته المعلقة عند خاصرته تلمع ببطءٍ غامض، في حركةٍ حية وكأنها تنبض بحياةٍ أخرى، حياة لا تعرفها إلا الهمسات التي تأتي من الزمان الغامض. كما لو أن السكين كانت جزءاً من جسده، كأنها تجسد حقيقته الوحيدة، تتنفس معه، وتتطلع في صمتٍ إلى نفس المصير. المعدن البارد كان يلمع في ظلمة الليل، في خفاءٍ قاتلٍ ينبض بكلماتٍ لا يمكن البوح بها. كان كل شيء فيه يغرق في التوتر، وكأن اللحظة التي تمر، كانت تزداد ثقلًا على قلبه، وكأنها لحظة اختبارٍ أخير لم يصمد قبله أحد.

وفي تلك اللحظة، كان الوقت نفسه يمضي ببطءٍ، حيث السكينة التي كانت تلمع كانت على وشك أن تكتب نهاية شيءٍ ما، كانت على وشك أن تفتح الأبواب التي كانت مغلقة منذ زمنٍ بعيد، بوابة على مستقبلٍ غامضٍ ومظلم. لم يكن سالم بحاجةٍ إلى كلماتٍ أو تحذيرات؛ كان جسده وحده، المشدود بعنفوان المعركة القادمة، هو الرسالة الوحيدة التي ستُفهم. وكأن السكين في خاصرته كانت الشرارة التي ستشعل كل شيء في محيطه. كل حركة له، كل نظرة في عينيه، كانت تقول الكثير أكثر من أي شيءٍ قد يخرج من فمه.

أطراف الأشجار كانت تراقب بقلق، كما لو أنها تشعر بما سيحدث بعد لحظات. كانت هناك قوة خفية، غير مرئية، تتسرب في الهواء، تغلف كل شيء حوله. سالم، هذا الرجل الذي كان يقف بين الظلال، كان يحمل سرًا كبيرًا في قلبه، سرًا قد يغير مسار الأمور إلى الأبد.

ثم جاءت الدكتوراة روان، لكن لم يكن لحركتها أيّ صدى من الأرض التي تسير عليها. كانت مهيبة كمن خرج من أسطورة قديمة تُقرأ على عجل، في زمنٍ لا يعرف سوى الحروب والأشباح. خطواتها كانت ثقيلة كأنها تعبر عوالم أخرى، لكن لا أحد يعرف إن كانت تلك العوالم تخصها أو كانت هي جزءاً منها. ملامحها، التي كانت تتنقل بين الظلال والنور، كانت تضج بالكثير من الغموض كما لو كانت بنت الحكاية نفسها، حكاية محكوم عليها أن تظل بلا نهاية.

مظهرها كان غريباً كظلٍ ضائعٍ في تلك اللحظة الفاصلة بين الخوف ورجفة الأمل. كان قلبها يرقص على موجة من التوتر، حيث تتمايل الحقيقة التي تحملها بين يديها كأنها تحتوي على ثقل عالمٍ كامل. داخلها، كانت هناك تقارير كتبتها بيدٍ ترتجف، كل حرف فيها كان يحمل أوجاعاً قديمة، أوجاعٌ ضاع فيها التوقيت والتفسير. كان الخاتم، الذي تحمله، مشحوناً بعاطفة لم تنطفئ، خاتم أمها الميتة، الذي كان في يومٍ ما حلقةً وصل بين الماضي والحاضر، بين الحياة والموت.

لكن رغم كل هذا، لم تكن تعرف، أو ربما كانت تدرك في أعماقها، أن النهر الذي وقفت أمامه لم يكن مجرد جريان مائي. كان النهر شاهداً صامتاً، ينتظر فقط أن تكتمل القصة ليغرقها، ثم يعود ليخفيها في أعماقه كما فعل مراراً. هذا النهر، الذي كان يحبس أنفاسه في الظلام، كان شاهداً على حكايةٍ دفنها سالم بيديه قبل عشرين عاماً. حكاية ضاعت فيها الذكريات، وابتلعها أعماق التاريخ، بينما وقف هو، صامتاً، يحاول أن يطوي فصولها حتى لا تعود لتدمره.

لكن هذه اللحظة، التي حملت فيها روان حقيبتها المشحونة بالأسرار، كانت بداية عودة الأشياء التي تم دفنها في التربة الساكنة، وكانت تلك الحكاية، المطمورة في زوايا الأيام الماضية، تستعد للنهوض مجدداً.

«لماذا جئت؟» كان سؤاله، ولكن الصوت الذي خرج منه لم يكن يحمل سوى الاحتقان، كأنه صفعه تلميح الهواء. في تلك اللحظة، كان الزمن نفسه يتوقف. كان صوت سالم كالمرط الحارق، الذي يهطل على الأرض الجافة، يترك أثره في كل شيء، حتى في الهواء الذي تنفسه. تلك الكلمات كانت مشحونة بما لا يُقال، كما لو أن كل ثانية فيها هي جزء من ثقل تاريخي، تاريخ لا يُحتمل أن يُعاد. كانت السؤال موجهاً، لكنه بدا مقيداً في عالم آخر، عالم من الشكوك التي تقفز من جدار إلى آخر، من قصة إلى أخرى، حتى تكونت دائرة محكمة تُخفي وراءها أعماق العذاب.

توقف للحظة، كأن الهواء الذي مرّ بينهما كان مليئاً بال خوف، وكأن الليل نفسه تخلى عن شفافيته ليكشف عن حقيقته. الندى الذي كان يتساقط على وجهه بدا كرماد عاطفي. في زواياه، كان يكشف عن ندبة قديمة، علامة تشبه الهلال، ربما كانت علامة عابرة، أو ربما كانت جزءاً من نسيج حكاية لا يمكن لمسها، حكاية دفنت في تربة الألم قبل سنوات، وتفتحت الآن لتغزو الحاضر.

تلك الندبة، التي كانت تضيء وجهه كالألم سرّي، لم تكن مجرد علامة على الجلد. كان الهلال في جبينه يشير إلى شيء أعمق، شيء

كان مخفياً في طيات الزمان. تلك العلامة كانت العلامة الوحيدة التي عرفها، ظلت محفورة في ذهنه طيلة سنواته، حتى حين رآها الطفل الوحيد الذي وقف أمامه قبل أسبوعٍ فقط. كان الطفل حينها يفتح أبواب الحياة له بطريقةٍ لم يفهمها. كان أمراً غير قابلٍ للفهم، وكأن الزمن الذي مضى قد بدأ يعود، ليعيد له كل تلك الوجوه التي كانت في الماضي محجوبة.

كان هو في صراعٍ مع نفسه، ومهما حاول إغلاق الباب على الماضي، فإن مفتاحه كان قابلاً في يد روان، تلك التي دخلت حياته منذ أسبوعٍ فقط. كانت الدكتورة روان كالمنزل الذي ينزل على صخرة الجفاف، يشق طريقه ببطء نحو القلب. تلك الأبواب التي فتحتها له كانت البداية لمفترق طريقٍ لم يكن يعلمه. هو لا يستطيع الهروب منها. لكن لماذا جئت؟ كانت السؤال الذي أراده أن يكون الإجابة الأخيرة، كما لو أن إجابة واحدة قد تحسم كل شيء.

الجواب الوحيد كان ظلاً معلقاً بينهما، وكان يعلم أن الجواب لن يأتي بسهولة. أبواب الحياة التي فتحتها روان كانت قد أغلقت على سر آخر، والآن كان عليه أن يواجهها في صمتٍ مشحون باليأس والخوف، صراع لا يقوى عليه إلا الموت نفسه.

ابتسمت، ولكن تلك الابتسامة لم تكن مبتهجة، بل كانت ملغمة، كما لو أن كل شق في شفتيها كان يحمل نصلاً حاداً مخفياً بعناية تحت كل كلمة. لم تكن مجرد ابتسامة، بل كانت رسالة في حد ذاتها، حيلة صغيرة للإخفاء. كانت وجهها يعكس شيء لا يُقال، مثل سرٍ عتيق أو

مؤامرة جلية قد استقرت في أعماقها. وكأنها تستدرج اللحظة لتأخذ شكلاً أعمق، مستفيدة من حجم الغموض الذي تحيط به. كانت تعلم أن ابتسامتها تُرسل إشارة تُخبئ وراءها شيئاً قد لا يُستوعب في الحال، كما لو أن الكلمة الوحيدة التي تستحق أن تُقال هي تلك التي لم تُقال بعد.

نظرت إلى الصخرة التي كانت تتوسط المشهد، مغطاة بالطين كما لو أنها كانت تحمل ذكرى قديمة على ظهرها، محملة بأحمال الزمن. كان الطين مراوغاً، مثل أسرار مطمورة، صامدة على الرغم من عبث الرياح والمطر، مثل حجرٍ عريق كان شاهداً على ما لم يُحكى. في مكانٍ ما تحت تلك الطبقة البسيطة، كان يكمن رسالة لم تُوقَّع، وكأن الوقت ذاته قد اختار أن يكون هو القلم الذي كُتبت به.

أشارت إلى الصخرة، بإصبعها الذي كان يهتز كما لو أنه كان يحمل في طياته شيءً ثقیلاً، شيء لا يمكن أن يُقال بسهولة. كانت الإشارة واضحة، ولكن المعنى كان يحتاج إلى تفسير. عند النهر، كانت هذه هي البداية، نقطة الانطلاق للأسرار التي كان من المفترض أن تُكشف تحت السماء الممطرة. والنهر، الذي كان يبدو ساكناً كمرآة، كان يكشف في جوفه أعماقاً مظلمة، تشبه ما تخفيه الكلمات في أعماق القلوب.

«حين تبكي السماء...» قالتها، وكأن السماء كانت جزءاً من قصة قديمة، إحدى الأساطير التي تُسرد بين الظلال. كان الجو ثقیلاً، كما لو أن العالم بأسره كان ينتظر أن يُحل اللغز الذي نُسج في تلك اللحظة.

كان النهر، رغم صمته، ينتظر، كأنه يلمح شيئاً في الأفق. دموع السماء، التي تتساقط على الأرض كأنها احتراق غير مرئي، تذكر كل من يراها أن الحقيقة لا تأتي إلا حين تتساقط الآلام. كانت السماء على وشك الاعتراف، وكان النهر يشهد على كل شيء.

«حين تبكي السماء...» كان هناك شيء آخر، شيء يفوق فهمهم. رسالة غامضة لم تترك لتقرأ بسهولة، بل كانت مفتاحاً لأسرار أكبر، تمسك بها الزمن كما لو أنها كانت تمثل الآلام التي تم دفنها في الأعماق. السماء كانت على وشك أن تفتح أبوابها وتكشف عن أسرار الأرض، وما خلف تلك الابتسامة الماكرة كان يحمل المزيد من الأسئلة التي لن تجد إجابات قريية.

لكن الحروف لم تكن بشرية.

لم تكن محفورة بحبر أو قلم، بل بدا وكأنها نزت من جرح في جدار الزمن نفسه. كانت تتوهج بخفوت غامض، تتكون من مادة لا تخضع لقوانين الطبيعة، شيء أقرب إلى ضوء متجمد... أو ظل مُضيء. وحين اقترب سالم منها أكثر، شعر بالبرد يتسلل إلى نخاع عظامه، كما لو أن الهواء نفسه استحال رماداً من أرواح منسية.

كانت الحروف تتحرك ببطء، تتلوى كالأفاعي الجائعة، تنبض بإيقاع لا يشبه نبض الأحياء. لم تكن تُقرأ، بل تُحس. لم تُكتب، بل نُزعت من ذاكرة بعيدة، أقدم من الذاكرة البشرية، وأعمق من لغة الآلهة. «هذه ليست كتابة...» قال سالم بصوت مبحوح، وعيناه تتسعان كمن يرى شيئاً يستحيل إدراكه.

«هذه لعنة الجدّ الأول!»

سقط صوته في الفراغ، كأن الزمن توقف للحظة. وحدها الحروف استمرت في النزف، وكل قطرة منها كانت تُنذر بحدثٍ لا رجعة فيه. ثم صمت.

لكن الصمت لم يكن هدوءاً... بل انحداراً نحو شيءٍ رهيب، شيءٍ يتحرك في الظل، ينتظر من يقرأ اللعنة حتى يفيق.

كان الليل في «وادي العتمة» مختلفاً، كثيفاً كأن السماء نسيّت كيف تُنجب النجوم. حمل سالم مصباحه الزيتي، وقدماه تغوصان في أرضٍ موحلة، تعبت من دفن الأسرار. كانت الخرائط القديمة التي وجدها في صندوق أبيه تشير إلى هذا المكان: أنقاض معبدٍ مهجور، يقولون إنه سُيّد قبل أن يُدوّن التاريخ.

دخل المكان وكأن الهواء تغيّر، لم يعد يُشبه ما في الخارج. أصبح ثقيلاً، مبللاً برائحة الحجر الرطب والذكريات. وعلى الجدار المقابل، ظهرت الحروف.

لم تكن منقوشة. لم تكن مكتوبة. بل بدت وكأنها تنزف من صميم الجدار، تتلون بلونٍ لا اسم له. حروفٌ كُتبت بلغةٍ لم تُخلق للأحياء. اقترب سالم، وشعر بشيءٍ يهمس في داخله، شيء لا يملك صوتاً، لكنه يهزّ الروح من أعماقها. رأى الحروف تتحرّك، تتنفس، تذوب وتتكوّن في اللحظة نفسها.

«هذه ليست كتابة...» قالها، وعيناه تحدّدان في الكلمات كأنهما التقيتا بشيءٍ يعرفانه، لكن العقل يرفضه.

ثم همس كمن اكتشف فجأة مَنْ يكون:

«هذه... لعنة الجدِّ الأول!»

توقف الزمن. بدا كل شيء حوله ساكنًا. الصدى الوحيد الذي سمعه هو دقات قلبه، لكنها لم تكن دقاته، بل شيء آخر ينبض فيه... كأنه استيقظ من سباتٍ أبدي.

ومن تلك اللحظة، أدرك سالم أن رحلته لم تكن نحو المعبد، بل نحو ذاته. وأن الدم الذي يسري في عروقه ليس فقط دم عائلة، بل دم عهدٍ قديم، كُسر، والآن... جاء وقت الحساب.

خرج سالم من المعبد بخطى متعثّرة، وكأن الحروف ما زالت عالقة في روحه، تحفر داخله ببطء. لم يكن يدرك تمامًا ما الذي حدث، لكنه شعر بأن شيئًا داخله تغيّر، أو بالأحرى... انكسر. الهواء في الوادي كان أثقل مما دخله، والعالم من حوله بدا أقل وضوحًا، كأن المعبد قد انتزع منه جزءًا لن يعيده.

في الليلة ذاتها، عاد سالم إلى البيت القديم، بيت الجدِّ الذي لم يعرفه أبدًا، والذي كانت والدته ترفض ذكر اسمه. وجد نفسه يقف أمام الخزانة التي حُرِّمت عليه طوال طفولته. كسر القفل، وفتحها... بداخله، صندوق خشبي أسود، منقوش برموز تشبه ما رآه على جدار المعبد. لم يكن صندوقًا فقط. كان أشبه بقبرٍ صغيرٍ لسرٍّ عظيم.

فتح الصندوق، وفيه مخطوطة ملفوفة بعناية، تفوح منها رائحة الزمن والعزلة. كانت مكتوبة بنفس الحروف التي نزت من الجدار.

لكنه لاحظ شيئاً آخر هذه المرة: رسمٌ غامض لكهف في مكانٍ مجهول،
وتحت الرسم بخطٍ باهت:

«من هناك بدأت اللعنة، ومن هناك فقط يمكن كسرها.»

كان واضحاً أن أمام سالم طريقاً لا يمكن التراجع عنه. هذه ليست
مجرد لعنة، بل ميراثٌ ملعونٌ يتوارثه الذكور من سلالة الجد الأول،
وكل جيلٍ يتجاهله... يدفع ثمنه.

وفي الليلة التالية، بدأ سالم يرى الكوابيس.

كائنات بلا وجوه تهمس بتلك الحروف نفسها. رجالٌ يُسحبون إلى
أعماق الأرض. وساحةٌ من نار تتوسطها صخرة سوداء، مربوطة بحبالٍ
من عظام.

استيقظ وهو يلهث، والعرق يبلل وجهه، وصوتٌ في داخله يصرخ:

«إما أن تكمل الطريق... أو تنكسر كما انكسروا.»

وفي لحظةٍ، تغير كل شيء.

كأن الأرض تنفّست فجأةً بعد صمتٍ طويل، وكأن الكون نفسه
استيقظ على فرعٍ قديم. ارتفع النهر من مرقده، لا كماءٍ جارف، بل
ككابوسٍ خرج من نومه غاضباً، متلويّاً كأفعى عملاقة، يتصبّب من
جسده الظلّ بدل الماء، وتنبض في قلبه نبضات جنينٍ لم يكتمل.

صوته لم يكن هديرًا بل أنينًا، كأن الأرواح التي أغرقها الأجيال
عادت لتصرخ فيه. وفوق سطحه الغاضب، كانت تجرف الأجساد...

أجساد كلابٍ بلا أعين، أفواهها مفتوحة على صمّتٍ أزلي، وكأنها
رأت ما لا يرى... ففُكَّت أعينها كعقوبة.

ثم ظهرت القلادة.

قلادةٌ من عظام صغيرة، ملساء، نظيفة كأن الزمن لم يمرّ عليها. عظامٌ
لم تحمل يوماً أسماء، ولم يُكتب لها أن تُدفن في أرضٍ تعرف الرحمة.
كانت تتمايل فوق الموج، كأنها تعزف لحناً جنازياً للأطفال الذين لم
يولدوا ليمشوا على هذه الأرض، بل ليموتوا قبل أن تُنطق أسماءهم.

توقّف سالم عند الضفة، ولم يستطع التقدّم.

كان شيءٌ في داخله ينهار بهدوء، كجدارٍ داخليٍّ سُحب من تحته
المعنى. لم يكن المشهد أمامه مجرد فيضان، بل انكشافٌ لحقيقةٍ ظلت
تحفر طريقها في الجحيم.

في تلك اللحظة، لم يكن سالم وحده. النهر رآه.

وربما... تذكّره.

في الليلة التي ارتفع فيها النهر، لم يكن سالم يعلم أنه قد اقترب من
عتبة الحقيقة التي دُفنت عمداً منذ قرون. لم يكن هذا نهراً بالمعنى الذي
يعرفه الناس. لقد قيل في أساطير الجدّات إن النهر وُلد من دم الجدّ
الأول، حين قرر أن يُخفي جريمته بعيداً عن العيون، فجعل الماء كفته،
والتيار قبره، والضفاف شهوده.

ذاك الجدّ لم يكن رجلاً عادياً. كان حامل السرّ، أول من نطق
الكلمات الملعونة، وأول من ضحّى.

في تلك الأيام البعيدة، قاد أبناء قريته إلى الوادي، وهنالك، في ليلة بلا قمر، قدّم القرايين الأولى: أطفالٌ لم تكتمل أسماؤهم بعد. ماتوا دون أن تُكتب لهم هوية، فصارت عظامهم معلّقة على رقبة اللعنة، قلادةً تطفو كلما اقترب أحد من الحقيقة.

النهر يعرف، لأنه ابتلعهم.

والنهر يتذكّر.

وها هو اليوم، وقد رأى سالم، حفيد الحفيد، واقفاً عند الضفة، بعينين تنبشان الذاكرة القديمة، فعاد وارتفع. عاد ليحذّر، أو ليلتهم، لا أحد يعرف كيف يفرّق بين الغضب والعدالة حين يكون النهر هو القاضي والشاهد.

سالم لم يعد يتحمّل الصمت.

سمع الصوت في داخله، صوتاً يشبه صوت أمه حين كانت ترتجف في نومها:

«إيّاك أن تذهب للوادي... إيّاك أن توقظ الميت.»

لكن الميت استيقظ.

واسم الجدّ الأول... عاد يتردّد في صدره، كأن الحروف تنقر على ضلوعه:

«زَكْرِيَّا... زَكْرِيَّا...»

هناك، على حافة الحقيقة، عند النقطة التي لا يعود منها المرء كما كان، وقفت الدكتورورة روان، عيناها كمرأتين قديمتين تعكسان وجعاً لا

يُروى. أمامها، انكشف السدّ أخيراً... لا كمجرّد بناء هندسي، بل كأثر
باهت لجريمةٍ بلا شهود.

السدّ بدا ككفنٍ إسمنتيّ، رماديّ كالموت، مرسوم عليه الغياب...
غياب القرية، وغربة الأرض، وتحوّل الماء إلى ذاكرة. لم يكن حاجزاً
فقط، بل شاهد قبرٍ لكل ما اندثر. وكان الغضب، الغضب الحقيقي، هو
ما كشفه—not بصوتٍ، بل بصمتٍ يعلو على كلّ صراخ.

في تلك اللحظة، أدركت روان ما لم تجرؤ على التفكير فيه طوال
السنين:

الخيانة لم تكن ورقةً في ملفٍّ أو كذبةً في تقرير...

الخيانة كانت رجلاً.

رجلاً واقفاً خلفها، يحمل في عينيه ماضياً مشطوباً، ومستقبلاً
مسروقاً،

رجلاً اسمه سالم.

«أنت لست إنساناً...» تمتمت، وشفتها ترتجفان، «أنت ذاكرةٌ
مريضة!»

ولم تكن الكلمة الأخيرة قد غادرت فمها، حتى كان الخنجر في
يدها... خنجر صغير، قديم، مطمور في غمدٍ من اللحم والسكرت.
خنجر خبّأته في فمها كما تخبّي الأمهات آيات النجاة في أحضان الموتى.
لكن سالم، كعادته، كان أسرع من الندم.

قبض على يدها بقبضةٍ لا تحمل غضبًا، بل نوعًا من الشفقة المشوبة
بالرعب.

اقترب منها، مائلًا إلى أذنها، كأنه يهمس في جنازةٍ لا يعرف أحد من
الميت فيها.
«والآن؟»

قالها بهدوءٍ قاتل.
«ستُقاتليني... أم تُغرقين أسراركَ في الوحل، مثلي؟»
كأنه لم يسأل فقط.
كأنه حكم.
وهي؟

هي كانت تعرف:

هذا السدّ لم يُبنَ ليحجز الماء... بل ليكتم الصراخ.
قبل أن تقف روان على حافة الحقيقة، كانت تظن أن كل شيء
يمكن شرحه... أن كل ليل مهما طال، يمكن تفكيكه بالمنطق والوثائق
والتقارير. كانت تؤمن بالعلم كمن يؤمن بأن الشمس لا تخون.
لكنها لم تكن تعلم أن هناك أماكن في هذا العالم، لا تُفسّر فيها
الحقائق... بل تُدفن.

حين جاءت إلى القرية لأول مرة، كانت باحثة في الجغرافيا المائية،
مرسلة من الجامعة لدراسة تأثير السدّ الجديد على البيئة القروية. في
البداية، بدا الأمر بسيطًا: جمع بيانات، مراقبة منسوب المياه، مقابلة

السكان المحليين. كانت تبتسم وهي تكتب الملاحظات، وتؤمن أن ما تفعله سيعيد الحياة إلى هذا المكان الذي بدا كظلّ نسيه الزمن.

لكن كل خطوة نحو السدّ كانت تقرّبها من شيءٍ آخر... من صمّت ثقيل في عيون النساء، من تواريخ غير مكتملة في السجلات، من خرائط ممزقة لمزارع لم يعد أحد يعرف أصحابها.

وفي وسط ذلك، كان سالم.

المالك الحالي للمزرعة الأكبر في القرية... مزرعة كانت في الماضي لأربع عائلات اختفت دون أثر. رجل أنيق، هادئ، مثقف، يرد على أسئلتها بابتسامة نصفها حذر ونصفها سحر. كل شيء فيه كان يدل على نجاح، لكن لا شيء فيه يروي الحقيقة.

في إحدى الليالي، وجدت وثيقة مدفونة تحت بلاطة مكسورة في المدرسة القديمة. كانت موقعة باسم والد سالم. قرار حكومي قديم بنقل مجرى النهر... لا لأسباب بيئية، بل لحماية «مشروع زراعي خاص». المشروع كان هو... الفردوس الذي حوّله المياه إلى واحة، بينما تحوّلت القرية من حوله إلى صحراء.

كل شيء بدأ يتضح. الخيانة لم تكن فقط أن الأرض سُرقت، بل أن التاريخ نفسه أُعيدت كتابته، حرفاً حرفاً، تحت جناح السلطة والخرس الجماعي. والسدّ... لم يكن لحجز الماء، بل لحجز الذاكرة.

في اليوم التالي، زارت روان ضفاف السدّ وحدها. هناك، عثرت على ما تبقى من جدران البيوت الغارقة، أطياف الأرواح التي لم تُدفن، أحذية أطفال، قطع قماشٍ مطرّزة بأسماء اندثرت.

وكان سالم ينتظرها.

لكن السماء لم تكن وحدها التي تصرخ تلك الليلة.

الصراخ كان أقدم، أعمق... كأن الأرض ذاتها تذكّرت فجأة ألمًا طُمِرَ فيها منذ قرون.

الجبل ارتجف.

ولم يكن ارتجافه زلزالًا فحسب، بل كأنه شهق أخير أطلقه كائنٌ كان نائمًا تحت طبقات الزمن. وتساقطت الحجارة من جنباته، لا كحطامٍ طبيعي، بل كحُجَج... حجارة تُنكر، ثم تعترف، ثم تُدين. كان الليل كثيفًا، والعممة كأنها نُسجت بخيوطٍ من التواطؤ.

وفي ذروة الارتجاج، خرج القرويون من ظلالهم.

ليسوا بشرًا تمامًا... لا بعد كل ما دفنوه.

كانوا كأشباحٍ أُطلق سراحها فجأة، كأن أحدًا كسر الختم الأخير في كتاب الأسلاف.

تقدّموا بخطى بطيئة، مصابيحهم الصغيرة تسبقهم، ترتجف، تصرخ... تحترق أحيانًا.

كل مصباح بدا كعينٍ تُبصر ما لا يُقال.

وفي الهواء، ارتفعت الهمهمة القديمة، النداء الذي لم يُسمع منذ زمن:

«المُبْلغة تموت...»

كلمات أُلقيت في الريح كأوامر لا تُرفض.

«والخائن يُصلب... على صخرة العار!»

حينها فقط فهمت روان.

الصرخة لم تكن ضدها وحدها... بل ضد من تجرّأ أن يوقظ
الذاكرة.

الخيانة هنا لم تكن مجرد فعل... بل خلل في النظام.

وهي، ببلاغها، لم تكن مجرد عالمة، بل «مُبلّغة» — لقبٌ يُطلق
في القرية على من يتكلّم حين يجب أن يصمت، على من يرى حين
يُفترض أن يعمى.

أمامها، كانت صخرة العار تظهر من الظلّ، شاهقة، ملساء، تقطر
بندى الموت.

سالم لم يكن هناك... أو ربما كان أحد الظلال.

والقرويون؟ لم تعد ترى وجوههم...

فقد لبسوا التاريخ بدل الثياب،

وصاروا صدى.

لكن روان لم تتراجع.

كانت قد وصلت إلى النقطة التي لا يفيد فيها الهرب، ولا يُجدي
فيها التفسير.

كانت تعرف أن العلم الذي تحمله لم يعد يحميها، بل يفضحها.

وأن العقل الذي قادها حتى هنا، عاجز الآن عن فهم هذه الطقوس.

وقفت أمام صخرة العار، وقد تجمّع القرويون حولها، على شكل دائرة غير مكتملة، كأنهم لا يجروؤن على لمس ذاك الحجر، لكن لا يستطيعون الابتعاد عنه.

صخرة...؟ لا.

كانت تشعر بنبضٍ داخلها، كما لو أن قلبًا قديمًا ما زال يخفق تحت سطحها، يراقب، يحكم.

همست امرأة مسنة في الصفوف الخلفية:

«كل خائن مرّ من هنا... وكل مبلّغة سُكِّتَتْ تحتها.»

اقتربت روان ببطء. كانت خطواتها لا تدوس الأرض بل تمزّق الذاكرة.

حين لمست الحجر، شعرت بحرارة لزجة تسري في أطرافها... ورؤية مباغته اخترقت جمجمتها:

نهرٌ مقلوب... طفلٌ يُنتزع من صدر أمّه... رجلٌ يزرع بيده بذور الخراب ويكتب اسمه على بابٍ من نار.

تراجعت وهي تلهث، لكن الحجر بدأ يتغيّر.

تشقق السطح، وظهرت عليه نقوش لم تكن موجودة من قبل — أشكال لوجوه مشنوقة، لجسد مصلوب، لامرأة تحمل كتابًا يُشبه دفتر ملاحظاتها.

فهمت حينها.

هذه لم تكن صخرة للعار فقط.

كانت مرآة قديمة، تُظهر الحقيقة لمن يجرؤ...

وتبتلع من يكذب.

وصوت سالم جاء من خلف الجموع، هادئاً كمن قرأ هذه الصفحة من قبل:

«أترين؟ الحقيقة ليست خلاصاً يا دكتورة... بل محاكمة. فهل أنتِ مستعدة للشهادة؟»

ارتفعت الأنفاس من حولها، وانطفأت بعض المصاييح.
الليل صار أكثر ثقلاً.
وفي قلبه...

كانت روان تقف وحدها، بين أن تنقذ نفسها، أو أن تكتب فصلاً جديداً في لعنة القرية.
قبل مئة عام.
لم يكن هناك سدّ.

كان النهر، نهر أمّ النور، يجري بعنفوان بين ضفتين من الزرع والأطفال والضحكات. وكانت القرية تُدعى حينها «ديم الراحة» — مكان لا تبلغه الحروب، ولا تعرفه الخرائط.

في ذلك الزمان، عاش أربعة رجال.

شركاء في الأرض، والعرق، والماء.

غرسوا الزيتون جنباً إلى جنب، اقتسموا النهر دون ميزان، وكانوا يُطلقون على أنفسهم اسم «الأوصياء».

لكن ذات خريف، جاء رجلٌ غريب.
كان يحمل حقيبةً من الجلد الأسود، وعينين بلا بياض.
قال إن الحكومة قررت بناء مشروع عظيم، يُدعى السدّ، وسيضمن
الازدهار للقرية كلها... مقابل توقيعٍ بسيط.
تردّد الأوصياء.

ثلاثة رفضوا.
والرابع، واسمه نصير، قال: «الفرصة لا تُفوّت... ولا أحد يعرف
متى يجفّ النهر.»

وفي الليل، حين نامت القرية، أخذ نصير الختم القديم، ووقع وحده.
تلك الليلة لم تُمُت الشمس فقط... بل غرق أول طفل.
وحين استيقظت القرية، كان مجرى النهر قد تغيّر.
انحرف كما لو أن يدًا خفية جرّته نحو أرضٍ واحدة.
أرض نصير.

وقام الثلاثة الآخرون لمحاكمته، لكنهم اختفوا في اليوم التالي.
قيل إنهم غرقوا، قيل إنهم هربوا، لكن الحقيقة؟ نُقِشت على صخرة
وسط الحقول... الصخرة التي سُمّيت لاحقًا «صخرة العار».
ومنذ ذلك الحين، وُلدت اللعنة.
كل من يبلغ بالحقيقة... يموت.
وكل من يخون الأرض... يُمنح جنةً مؤقتة، لكن روحه تُحبس في
العدم.

مرت السنوات، وبُني السدّ، وتحوّل اسم القرية من «ديم الراحة» إلى «وادي الظلال».

لم يبقَ من الحقيقة إلا الشك...

ولا من الأوصياء إلا آثار أقدام على أطراف النهر، تظهر كلما جفّت المياه.

وسالم، الذي عرف الطعن قبل أن يتنفس الهواء لأول مرة، لم يكن غريباً عن الألم. كان الدم، بالنسبة له، أقدم رفيق. لكن تلك اللحظة، لحظة المواجهة، كانت مختلفة. كان السكين في يده أكثر من مجرد أداة؛ كان وعداً بالغدر. كان يتأرجح بين يديه كما لو أنه يحمل تاريخه، وكل شيء سيطراً عليه بعده. حتى الهواء من حوله أصبح ثقيلاً، لا يسحب الأنفاس، بل يُثقلها.

لكن في منتصف الجملة التي كان يُحضّر لها — تلك الجملة التي ستكون في نظره الخاتمة المثالية — كان هنالك شيء ما مختلف في عينيّ الدكتورة روان.

كانت تقف أمامه، عينيها تتحدّيان عينيّه، وكأنها تقرأ في أعماقه، وتغوص في ذاكرته المعمّمة.

وأين كان هو حينها؟ في لحظة الانكسار، في لحظة يعرف فيها أن الماضي لا يتراجع، ولكن الحاضر قادر على تحطيمه. وفجأة، كانت روان أسرع من أي شيء يمكنه تصويره.

غرست إبرة التخدير في عنقه بيدٍ هادئة، بيدٍ كانت قد تمرّنت على إخفاء قسوتها خلف ابتسامة من طبائع لا يفهمها إلا من عايش الظلام.

كانت إبرة التخدير أكثر من مجرد حقنة... كانت طعنة موجهة إلى قلب الحكاية كلها. كأنها نَفَسٌ أخير في وجهه، تكسر صمته. كانت تتلاعب بمصيره كما يفعل الشاعر بحروفه، فتمسح كل نقطة من المعنى خلفه. وأثناء سقوطه، وهمساته تتلاشى في الحلق، لم يكن قادرًا على رؤية سوى عينيها، اللتين لا تعرفان الرحمة. وهمست له بصوت خفيض، يكاد لا يُسمع، لكنه كان الأشد وقعًا على قلبه:

«اللعبة لم تبدأ بعد... أيها الوباء المتخفي.»

كانت كلماتها كالرصاص، ولكنها حملت شيئًا من الغموض، مثل تذكير بماضٍ يرفض أن يُدفن، أو ربما تهديدًا لم يُفصح عن طبيعته بعد. ولكنه كان يعرف. كانت اللعبة قد بدأت بالفعل، وأنه كان قد وقع في شَرَكٍ أعمق مما يتصور.

كان يحاول التنفس، محاولة أخيرة لتحرير عقله من قيود الوعي المتسارع في رأسه، لكنه شعر بنبضه يتسارع أكثر وأكثر، كما لو أن الوقت نفسه قد توقف ليأخذ منه شيئًا لم يُمنح له قط.

وفي تلك اللحظة، كانت روان تقف فوقه، عيناها تتقاطعان، وتلك الهمسات التي تكاد تكون أضعف من الرياح، لكنها كانت ترنّ في أعماق أعماقه.

هو... الذي خُلِق ليَطْعُن، يواجه الآن طعنةً هي الأشد قسوة.

كانت النهاية، لكن النهاية ليست كما توقّعها.

هذه ليست نهاية مؤلمة... بل بداية لشيء أعمق.

«أيها الوباء المتخفي... هل تعتقد حقاً أنك الوحيد الذي يستطيع التسلسل في الظلال؟»

في تلك اللحظة، مع عينيها التي تغلفها البرودة، عرف أنه بدأ يدخل في لعبة لا يعرف فيها الفائز... لكن، ربما، كان هو الخاسر الوحيد. بالطبع، إليك النص الموسّع والمُحسن ليكتسب المزيد من الإثارة والعمق:

وسقط.

لم يكن السقوط مجرد هبوط لجسدٍ ثقيل على الأرض. كان السقوط انهياراً كلياً: انهيار للزمن، وللمكان، وللحكاية التي ظنّها محبوبكة بعناية طوال سنوات. كان لحظة تفكك، لحظة تجدد حتمية، كما لو أن الكون نفسه قد قرر أن يعيد كتابة القوانين.

سقط سالم، ولكن معه سقط كل شيء. سقطت الوجوه التي كانت حوله، سقطت الكلمات التي نطق بها، سقطت الوعود التي حاكها لنفسه كأوهام في زمنٍ بعيد.

تساقطت كل تلك الحكايات التي ظنّها حقيقية، وكل الأحلام التي رآها ذات يوم، كما تسقط أوراق الأشجار في الشتاء، ليحلّ محلها صمتٌ ثقيل، لا يملؤه سوى هدير الرياح.

وفي عينيها، بينما كان يتنفس بصعوبة على الأرض، رآها. رأى الجميع تلك المرأة التي لم يتوقعوها أبداً. تلك التي لم تُكتب في أي من النصوص، ولم تُذكر في أي من الأساطير. لم تكن هي الطبيعية

التي حاول أن يصفها العالم في ذهنه. ولا هي تلك الخائنة التي جلبت معها الهمسات والتكهنات.

بل كانت شيئاً آخر. شيئاً غريباً، يجمع بين القوة والضعف في وقتٍ واحد، بين البراءة والحيلة، بين الموت والحياة. كانت أمواج البحر في لحظة هدوئه قبل العاصفة، وكانت الريح التي تهب فجأة في ليلٍ ساكن. كان وجهها محاطاً بظلالٍ كثيفة، لكن عيونها كانت مكشوفة تماماً. وكان في عينيها شيئاً مختلفاً، شيئاً لا يستطيع العقل أن يفسره، شيئاً عميقاً كأنها تحمل آلام الأرض كلها في قلبها. كان في عينيها حكايات شعوبٍ ضاعت، وأزمانٍ غابت، وأرواحٍ سلبتها الأرض مكانها. كانت المرأة التي عرفها الجميع بشكل خاطئ، ولكن الآن، مع كل قطرة مطر تسقط حولهم، أصبحت هي الحقيقة التي لم يتوقعها أحد.

في يدها اليسرى، التي كانت ممدودة أمامه، كان شعارٌ غريبٌ. شعارٌ لمنظمة عالمية تُداوي جراح العالم، تعالج الأرض التي تقطعت أوصالها. لكنها لم تكن مجرد يد تحمل شعاراً. كانت يدًا تُخبئ ورائها تعويذة، رمزاً لشفاءٍ ما، لكنه شفاء يخبئ الكثير من الغموض. كان في تلك اليد شيء من البراءة، ولكن في نفس الوقت كانت تحمل عبءاً كبيراً، عبءاً لا يمكنه أن يُغتفر أو يُنسى.

أما في يدها اليمنى، فكان الخاتم.

لم يكن الخاتم مجرد قطعة من المعدن الثمين. كان علامة على شيءٍ مُلَطَّخٍ بماضٍ مُر. كان الخاتم تاريخاً تَلَطَّخَ بدماء الخيانة، لكنه

ظل يحتفظ بمكانته كأثرٍ لا يمحي . كان كأنما يحمل توقيعاً على اتفاقٍ مُرٍّ، اتفاق لا يقدر على التراجع عنه أحد. كان الخاتم نقطة ارتكاز لكل الحكايات التي تفرّقت في الزمان والمكان، وكان كما لو أنه شاهد صامت على جريمة لا تستطيع الكلمات أن تبررها.

ثم، فجأة، انفتح المطر.

لم يكن المطر مجرد زائر عابر. بل كان انفجاراً في قلب السماء، كان كتاباً يتفتح على مصراعيه. كأن كل سطر فيه كان يحمل تاريخاً قديماً، وكل صفحة كانت تملأ الهواء بأسرار لا يمكن إخفاؤها. كل قطرة كانت حرفاً، وكل رشة كانت كلمة.

انفتح المطر كما لو أن السماء قد قررت أخيراً أن تفتح الأبواب التي كانت مغلقة منذ الأزل. كان المطر في تلك اللحظة كالألغاز التي بدأ كل شيء يتكشف من خلالها، كأن التاريخ نفسه كان يعود للانبعاث.

لكن في تلك اللحظة، لم يكن النهر مجرد ممر للمياه.

بدأ النهر يتخذ شكلاً مختلفاً، بدأ يتحول إلى الراوي.

كان النهر يُنشد الحكاية من الصفحة الأولى، من أول قطرة كان قد بدأ في حملها منذ الأزل. كان يتدفق كأنما يحاول أن يعيد كتابة كل شيء، أن يعيد توزيع كل شيء على الورق. كانت المياه حاملةً لأسرار الماضي، حاملةً لذكريات غائبة في عمق الأرض، ذكريات لم يكن يُسمح لها أن تُكشف.

بدأ النهر يقرأ الحكاية بصوتٍ عميق، كل كلمة تُترجم إلى صوتٍ من الماء، وكل صفحة تشهد على بداية جديدة.

كان المطر يفتح الأبواب، والنهر كان يقلب الصفحات. ولكن في تلك اللحظة، كان سالم يعلم شيئاً واحداً: أن كل شيء بدأ الآن، وأنه لم يعد هناك مجال للهروب. كانت الحكاية تكتب نفسها، وكانت النهاية غير واضحة بعد، لكن البداية كانت قد بدأت. وفي تلك اللحظة، أصبح النهر هو الشاهد الوحيد على ما سيأتي، كما لو أنه هو الراوي الأزلي لكل ما حدث، وما سيحدث.

كانت اللحظة التي تلت انفتاح المطر لحظة عبور غامضة، لحظة توقّف الزمن عن التحرك وبدءه في الانحراف.

كان الجميع يحدقون في المرأة التي بدت كأنها جئت من عالم آخر، وكأنها هي الحقيقة الوحيدة في عالم مليء بالكاذب والتلاعبات. كانت عينيها تعكس شيئاً عميقاً، كأنما تحت كل رمشة كانت تُعيد رسم خريطة العالم بيدها، تُعيد بناء العلاقات والمصائر، وتُمزق ما اعتقد الناس أنه ثابت وراسخ.

لم يكن الزمن يتسارع كما هو معتاد، بل كان يتوقف بين كل قطرة مطر وأخرى، ويستمر في التآرجح بين الماضي والحاضر كحلْم يستمر في المراوغة. بدا وكأن المطر قد أصبح مفتاحاً لعصر جديد، عصر تملؤه الأسئلة التي لا إجابات لها. ومع كل قطرة كانت الذاكرة تُسترجع، وكأنها تنقش سطور الماضي في ذاكرة الحضور، في عقولهم، في جروحهم القديمة.

أما النهر، فلم يكن مجرد مجرى مائي عابر. النهر بدأ يروي الحكاية بصوت عميق، وكأنما ترددات مياهه كانت تحمل صدى الكلمات

القديمة، تلك التي نطق بها أول من شرب من مياهه، منذ بدء الأزمان. كانت الأمواج تتراقص تحت المطر، وكأنها تخبر الأسرار التي لم تجرؤ على الظهور في أي مكان آخر. كل لحظة كانت تُفتح فيها صفحة جديدة، وكل صفحة كانت تكشف شيئاً عن التاريخ المدفون، تاريخٌ كان يُكتب بدماء، ولكنه اليوم يقرأه الجميع دون أن يلتفتوا إلى العواقب.

ولكن سالم، الذي كان لا يزال مستلقياً على الأرض، يشعر بتلك الفجوة بينه وبين الحكاية. كان يراها، لكنه لم يفهمها تماماً. كان يعلم أن هناك شيئاً مخفياً بين السطور، شيئاً لم يكن يراه أحدٌ سوى تلك المرأة التي وقفت وسط العاصفة، تسطر الفصول التالية من الحياة والموت. كان يراها كأنها تُبني جسراً بين عالمين، بين الحقيقة والخيال، بين الذاكرة واللغز.

وفي لحظة، تحركت الظلال مرة أخرى. القرويون، الذين كانوا في البداية مجرد شهود صامتين، بدأوا في التحرك كأشباح خرجت من قبورها. كانت مصابيحهم الصغيرة تُضيء الطريق، لكن نورها كان يخفي أكثر مما يكشف. كانوا يمرون بجانب الحكاية دون أن يعيروها انتباهاً، بينما كان المطر يسقط على وجوههم وكأنما يعيد رسمهم بدموعٍ لم تذرفها أعينهم من قبل. كل خطوة كانت تقربهم أكثر من الحقيقة، لكنهم كانوا مترددين في مواجهتها.

ثم، ظهر صوتٌ غريب، أتى من بعيد. كان الصوت يبدو كهمسٍ ثقيل، يردده النهر على مسامع الجميع. كان الصوت يقترب من الحافة،

من حافة الحقيقة، وكأنما كان يرفع الستار عن شيءٍ أكبر بكثير من القصة التي بدأت للتو.

«المُبْلِغةُ تموت... والخائن يُصَلب على صخرة العار.»

تلك الكلمات، التي كانت تدوي في الهواء مع هطول المطر، كانت نبوءة، أو ربما لعنة قديمة عادت لتطاردهم جميعاً. كان كل واحد منهم يشعر بشيء ثقيل في قلبه، شيئاً يعصف به ويجبره على الوقوف في مواجهة ماضيه الذي كان يعتقد أنه قد دفنه إلى الأبد.

وسبحان من يغير المدى بين الناس، ففي تلك اللحظة التي بدأت الأمواج تتسارع، شعروا جميعاً بأنهم جزء من الحكاية التي لم تنته بعد، جزء من قصة تتوسع بلا نهاية.

في تلك اللحظة، وكأن النهر قد بدأ يُعيد كتابة الماضي، كان الجميع يعلمون أن ما يحدث الآن ليس نهاية، بل بداية فصل آخر. لكن ماذا كان يخبئه الفصل التالي؟ هل ستظل المرأة التي لا يعرفونها تحمل المفتاح؟ هل سيظل المطر ينهمر، يكتب ويقرأ الحكاية التي تبدأ من جديد، أم أن هناك شيئاً آخر سيظهر من بين الغيوم؟

«اللعبة لم تبدأ بعد...» همست الدكتورة روان، معبرة عن يقين تام أن كل ما حدث كان مجرد تمهيد. وأن الحقيقة التي انتظروها جميعاً كانت على وشك أن تخرج إلى النور، ولكن هل سيكون الجميع مستعدين لمواجهتها؟ أم أن الظلال ستظل تحجبها إلى الأبد؟

وسط الغيوم الملبدة، كان المطر ينهمر كما لو كان ينسج سِتْرًا من الرماد على كل شيء، يمحو كل أثر، ولا يترك سوى خيوط من

القصص القديمة المبعثرة. وبينما كانت الدكتورة روان واقفة هناك، في قلب العاصفة، كانت نظراتها تتسع في الزمان والمكان، كما لو كانت ترى الأشياء التي لا يستطيع الآخرون رؤيتها. كانت يدها اليسرى ممسكة بشعار المنظمة، تلك المنظمة التي تدعي علاج العالم، وهي في الواقع قد تكون السماء السائلة التي تفرغ كل أكاذيبها على الأرض. أما يدها اليمنى، فكانت تحمل الخاتم المُلطخ بتلك القصص التي لا يمكن إيقافها، قصص الذنب المخبأ في زوايا الزمن، تاريخ لا يغفر، تاريخ يحفر نفسه في الأرواح ويترك عليها آثارًا عميقة لا تمحى.

كان سالم، الذي كان طريح الأرض، يشعر وكأن قلبه قد انفجر بين يديه. سرديته، حياته، ماضيه، كلها تساقطت في لحظة واحدة، كأوراق سقطت من شجرة ميتة. في عينيه، كانت المرأة التي لم يتوقعها ترفرف كما لو كانت هي الريح نفسها، تنتقل بين الماضي والمستقبل. لم تكن مجرد طبيبة أو خائنة، بل كانت أسطورة تسير على الأرض، تجسد تلك الفكرة القاتمة التي ألحت عليه منذ أن دخل إلى هذا المكان.

«أنتِ لا تعرفين ما تفعلين!» صرخ سالم بصوتٍ متحشرج، لكن في عينيه كان هناك شيءٌ آخر، شعورٌ بالخذلان، شعورٌ بأن الأمل الذي سعى وراءه طوال حياته قد تلاشى أمامه كما سرابٍ في قلب الصحراء. في يديه كانت السكين التي طالما استخدمها لحماية نفسه، لكن في تلك اللحظة، كانت أداةً عابثة لا قيمة لها أمام الحقيقة التي بدأ في مواجهتها. هل يمكن للإنسان أن يهرب من قدره؟ ربما كان هو الآخر مجرد جزء

من هذه اللعبة، جزء من الحلقة المفرغة التي تضعهم جميعاً في مصير مشترك، لا مفر منه.

لكن روان كانت أكثر هدوءاً. كانت تعرف اللعبة، كان ذلك واضحاً في نظرتها الباردة، في الابتسامة الهادئة التي لم تكتمل على شفيتها. كانت عينيها تسيران عبر الزمن، تبحثان في كل زاوية من ماضيه وحاضره. همست بصوتٍ منخفض، كما لو كانت تقرأ الفصول التالية من الكتاب الذي بين يديه، فكل كلمة قالتها كانت كأنها نبوءة:

«اللعبة لم تبدأ بعد...»

وفي تلك اللحظة، عادت إليها صورة المدى الذي قطعته. كانت قد قرأت الكثير من الكتب، سافرت في العديد من العقول والظلال، ولكن كل شيء كان يتغير الآن، كل شيء كان يدور في فلكٍ جديد. مستقبلهم جميعاً أصبح رهينة لهذا المسار الغامض الذي رسمته بعناية. كان الأمر وكأنها الروح الوحيدة التي تحمل مفاتيح هذا العالم، بل مفاتيح العوالم الموازية.

وفي تلك اللحظة نفسها، بدأ النهر يُحكى الحكاية.

المطر كان يكتب، والنهر كان يقرأ. تداخلت الأصوات مع بعضها البعض، الهمسات، الحكايات التي لم تكتمل، والأسرار التي لم تُكشف. الجميع كان يسمع، لكن هل كانوا يفهمون؟

وكان القرويون، الذين كانوا يقفون في أطراف العاصفة، قد بدأوا في التحرك نحو المجهول، كما لو كانوا يسرون في طريقٍ قديم لا يعرفون

نهايته. كانت مصاييحهم الصغيرة تضيء وجوههم المتسائلة، وجوههم التي كانت أضواءها خافتة في تلك الليلة الحالكة. كان الجميع هناك، لكن كل واحد منهم كان يرى شيئاً مختلفاً. هل كانوا مجرد شهود؟ أم أنهم كانوا جزءاً من المعركة الأزلية؟ هل ستكتب تلك الحكاية عنهم؟ أم كانوا هم الحكاية نفسها؟

في تلك اللحظة، بدأ الصوت الذي كان يهمس في الأفق يزداد حدة ووضوحاً. كان النهر يُردد الكلمات، كأنما هو الضمير الجمعي الذي بدأ يُفصح عن نفسه:

«المُبْلِغَةُ تموت... والخائن يُصَلب على صخرة العار.»

وكانت تلك الكلمات تعصف بالعقول وتضغط على القلوب. من كان الذي سيُصَلب؟ ومن سيكون ذلك الذي سيتلقى اللعنة؟ هل كان من الممكن أن يكون أحدهم قد وقع في فخّ لعبة أكبر مما يتصورون؟ وفي تلك اللحظة، كانت الحكاية تكتب نفسها، وكانت الظلال تتسلل إلى العقول، وتبدأ في البحث عن المنقذ، أو ربما عن الجلاذ. لكن أيهما كان في النهاية؟ هل كان الجميع مجرد أدواتٍ في يد الأقدار، أم أنهم كانوا في الحقيقة، قد كتبوا النهاية بأيديهم؟

في تلك الليلة، كانت السماء تصرخ، ليس كالرعد الذي يملأ الأفق بالصوت المفزع، بل بأسماءٍ نُسيَت عمداً، أسماءٌ دفتتها الرياح في أعماق الأرض وكأنها أرادت لها أن تختفي من الذاكرة الجماعية. كانت الأصوات تتنقل بين الغيوم، تلك الغيوم المظلمة، كما لو كانت

صرخات من الماضي تتناثر وتمزق على عتبة الزمن، من أرواح تسعى للانتقام، تبحث عن اللحظة التي يمكن فيها أن تُرفع عنها لعنة النسيان. لم تكن السماء مجرد مساحة من الهواء والضوء، بل كانت مكاناً لاحتراق الذكريات. جريمة نسيان مرت عبر الأزمان، وكأن السماء نفسها أصبحت شريكاً في الخيانة التي كانت تُرتكب في صمت. كانت تتنفسها، تعيشها، بل وكأنها ترفض الاعتراف بالذنب الذي طالما دفتته في قلبها المظلم.

تحت شجرة «الغول»، الشجرة التي تكاد تحتقر الحياة نفسها، حيث لا يجرؤ أحد على الاقتراب في الليل، وقفت الدكتورورة روان. هذه الشجرة لم تكن مجرد شجرة عادية؛ كانت رمزاً للغموض الذي لا يعرفه أحد. يقال إن جذورها تلتف حول روح الأرض نفسها، وأنها تستمد قوتها من دماء الخونة الذين أغرقوا هذا المكان بالخيانة والظلام. كانت الشجرة هي شاهد الزمن، حيث تتزع الحياة من كل من يسعى لدنيوية البقاء فيها. الغول، تلك الكائنات التي لا تكتفي بالقتل، بل تسعى لامتصاص كل شيء حتى تتحول الأرض نفسها إلى قبضة من العدم. لم تكن مجرد أسطورة، بل حقيقة متجذرة في الأرض نفسها. لكن الدكتورورة روان لم ترتجف. لم تُبدي أي ردة فعل كما يفعل من يسعى إلى النجاة من شبح الخوف. لم ترفع يديها للسماء كما يفعل أولئك الذين يطلبون الرحمة، ولم تعبر عن تردد أو شكوك. في عينيها، كان هناك هدوء عميق، ثابت، كما لو أنها عاشت أوقاتاً أكثر ظلمة من هذا. كانت عيناها ثابتتين، متعطشتين للحقيقة التي كانت تدور حولها

مثل طائر جريح يحلق في الظلام، يبحث عن ضوء لا يعرفه. كانت تعلم أن الخوف ليس طريقاً للنجاة، بل كان الآلية التي يتحكم بها الأعداء في عقول الضحايا. لذلك، وقفت بلا حركة، كما لو أن جسدها أصبح فكرة جامدة في مواجهة الجحيم الذي كان يوشك أن يبتلعها. كانت تستعد لتجاوز هذا العالم الضبابي المليء بالخرافات والوعود الكاذبة. المكان كان يسبح في ضباب كثيف، كان الهواء بارداً، ثقيلاً، وكانت العواصف تتسرب في صمت بين الأشجار وكأنها لم تزل تحاول الهروب من قبضة القدر. كان المكان نفسه يبدو وكأن الزمن قد توقف فيه. ولكن كل شيء حولها كان ينذر ببداية النهاية. كانت الشجرة، على الرغم من قوتها التي لا تقهر، تتموج كأنها تخشى أن يكون هناك شيء أقوى منها يوشك على الظهور. ولكن هذا الخوف كان أوهاماً، خرافات كانت تتداولها الألسن عبر الأزمان. في قلبها، كانت تدرك أنها لن تكون الضحية هذه المرة.

في تلك اللحظة، كما لو أن الزمن نفسه قد تجمد، همست في قلبها تلك الكلمات التي لطالما كتبتها: «اللعبة قد بدأت.» كانت هذه اللحظة التي طالما انتظرتها، اللحظة التي فيها تنقلب موازين القوة. كانت تعرف أن كل شيء قادم بعد هذه اللحظة سيكون محكوماً بقانون مختلف، قانون لا يعترف بالرحمة، قانون ينقلب فيه الجميع ضد الجميع.

ولكن الأرض كانت تتنفس تحت قدميها، كل نفس كان يحمل عبئاً ثقيلاً من الذكريات، وكأن الأرض نفسها كانت تفتح جراحها القديمة. كانت تلك الأرض تعرفها جيداً، هي التي عاشت عليها كل حياتها، هي

التي ترعرعت في ثناياها. لكنها في تلك اللحظة كانت تدرك تمامًا أن هذا ليس المكان الذي كانت تعيش فيه من قبل. هذه المرة، كانت قد أصبحت جزءًا من اللعنة، جزءًا من الظلام الذي كان يزحف نحوها. لم يكن هناك هرب.

كل خطوة اتخذتها كانت تثير ترددًا في الهواء، وكأنها تحرك كائنات نائمة في الأعماق، تلك الكائنات التي كانت تعيش في توازن دقيق، ولكنها سرعان ما بدأ يتفكك. كل خطوة كانت تكشف عن عالم آخر، عالم مظلم ومعقد، عالم تجنبت الخوض فيه طوال حياتها. ولكن الآن، كانت تدرك أنها كانت تسير نحو الحقيقة، الحقيقة التي كانت محجوبة خلف طبقات من الأكاذيب. كل خطوة كانت تقترب بها أكثر نحو النهاية، نحو الإجابة التي طالما أرادت أن تجدها.

فجأة، ارتجف الهواء، وكأن شيئًا غير مرئي قد مر عبر المكان، متسللاً إلى عمق الظلال. وكأن السماء نفسها كانت تراقبها عن كثب، وكأنها كانت مقتنعة بأن اللحظة قد حانت. كان الصوت الذي تردد في أعماقها أشبه بصرخة مكتومة، صرخة لا تنتمي إلى هذا العالم. كأن كل جزء في الكون كان يستعد لتدفق أسرارهِ، تلك الأسرار التي كانت مدفونة تحت طبقات من الزمن.

وعندما رفعت رأسها أخيرًا، كانت السماء قد انفتحت كجراح قديمة، تبوح بأسرارها للجميع، ولكنها لم تذرف دمعة. كانت عيناها على القمة، عيناها تنظران إلى الكارثة المقبلة، وكل التفاصيل كانت

تتحول إلى رؤى حية، تُترجم إلى خيالات لا مفر منها. كانت تقرأ ما بين السطور، وتدرّك أن المستقبل لم يعد بعيداً.

«لن تتوقف السماء عن صراخها حتى تدفع ثمن كذبها،» قالت بصوتٍ هادئ، ولكن كلماتها كانت ثقيلة كالصخور. كانت قد أدركت شيئاً أعمق، شيئاً مظلماً، شيئاً لم يكن من الممكن أن يُقال في كلمات. اللعنة كانت أقوى من كل شيء، وكانت قد أغلقت الفصول الأخيرة من حياتها.

وفجأة، عبر الضباب، كانت هناك أيدٍ تلوح في الأفق، أيدٍ من الماضي، كانت تلوح كأنها تحاول الإمساك بشيء ما، ربما كانت تلك الرياح تُخبئ شيئاً أقدم من الزمن ذاته.

هل كانت هذه النهاية؟ أم أن البداية كانت أخطر مما كان يظن الجميع؟

هل هناك فرصة للنجاة، أم أن الفخ كان قد وُضع منذ زمن طويل؟ كانت تنتظر. كانت اللحظة قد انتزعت منها القدرة على الحركة، كأن الزمن قد تجمد في تلك النقطة الفارغة بين الأرض والسماء. وكان المطر، اللامتناهي، يتساقط فوقها، يغسل وجهيهما بطريقة لا تحمل أي وعد بالنجاة، بل وكأن العالم نفسه كان يراقب، ينتظر أن يُسجل هذه اللحظة الفارقة في تاريخ لا يمكن محوه. المطر، الذي كان يبدو وكأنه ينظف خطايا الروح، لم يكن إلا شاهداً صامتاً على صراخها الداخلي. سالم وقف قبالتها، لا يستطيع أن يجد مكاناً ثابتاً على هذه الأرض التي تلهث تحت أقدامه. كان وجهه غارقاً في الظلال، لا يمكن للعينين

أن تلتقطا التفاصيل. كما لو أن الأرض نفسها ترفضه، تحاول التخلص منه، تنسحب تحت قدميه كما لو كانت تسحب ذنوبه لتبتلعها. كانت قدما سالم تسحبان ثقل العالم، وكأنها تهرب من الحقيقة التي يواجهها الآن.

سألته بنبرة منخفضة، «بداية جديدة؟» كانت الكلمات تتساقط من شفيتها كالطرر نفسه، ثقيلة، مبللة بالأسى. هل من الممكن أن يكون هناك بداية جديدة في عالم مليء بالخراب؟ هل يمكن لمخلوقين مثلهم أن يبدأ من جديد بعد كل ما مروا به؟

ولكنه ضحك، ليس كمن يضحك من قلبه، بل كمن يكسر شيئاً داخله. كان الصوت مكسوراً، يشبه صوت الزجاج الذي يتشقق ليكشف عن محتوى قاتم في الداخل. كان ضحكاً لا يسخر من السؤال، بل يضحك من الفكرة نفسها، وكأن الحياة لم تعد قادرة على أن تقدم أي شيء جديد.

«الجرذان، يا دكتور...» قالها بصوت يشبه الرياح التي تسحب الماضي معها، «الجرذان لا تسبح. إما أن تأكلها الأعماق، أو تعود لتُدفن في ذات الجحر.»

كانت تلك الكلمات ثقيلة على الأذن، لكنها عميقة في معانيها. الجرذان، تلك الكائنات التي لا تعرف شيئاً سوى النجاة، كانت تمثل قوى الظلام التي تلاحقهم طوال حياتهم. كانوا جميعاً في تلك اللحظة، مثل الجرذان، محاصرين بين خيارين لا ثالث لهما. إما أن يُسحبوا إلى الأعماق، حيث الظلام والعدم يبتلعان كل شيء، أو يعودوا إلى نفس

الجحر، نفس الأماكن التي تلوثت بها أرواحهم. العودة إلى المجهول كانت تشبه العودة إلى الخراب ذاته.

لكنها، رغم قسوة كلماته، لم تشعر بالخوف. فقط شعور عميق بالإنذار كان يمر عبر قلبها. كان صوت المطر يتناغم مع صوت قلبها الذي بدأ ينبض بشكل أسرع، وكأن تلك الكلمات قد أطلقت شرارة في داخلها. هل كانت تلك هي الحقيقة؟ هل كانوا محكومين أن يعيشوا مثل الجرذان إلى الأبد؟ أما كان هناك طريق آخر، طريق لا يزال غير مرئي؟

سالم رفع رأسه قليلاً، وكأن الأفق البعيد يتلعب في جوفه الأجوبة التي كانت تطارده طوال حياته. «هل تعرفين، دكتورة؟» أضاف، وهو يغمض عينيه كما لو كان يحاول أن يقرأ طيفاً بعيداً في الزمن، «في أعماق البحر، هناك قاع لا تراه العين، حيث تختبئ الجثث الميتة، وبين تلك الجثث، تتسلل الجرذان.» كانت كلماته تراقص الضباب حولهما، وكأن كل ذرة في الهواء كانت تحمل قصصاً عن الماضي المدفون، ذكريات غير مرئية.

كانت هي الأخرى تتأمل السماء، التي كانت تفيض بالمطر، ولكنها أدركت شيئاً عميقاً. هل كانت حقاً تسبح مثل الجرذان؟ هل كانت محاصرة في نفس الدورة التي لا تنتهي من الهروب؟ أم أن هناك سبيلاً للخروج من هذا المكان المظلم؟

«ليس كل شيء يغرق في الأعماق، سالم.» همست، صوتها كان هامساً، لكنه كان يحتوي على عزيمة قوية. «أنت لست الجرذ الوحيد

في هذا المكان.» كانت تعلم أن الوقت قد حان لتغيير اللعبة. القرار لم يكن مجرد فكرة بعد الآن، بل كان ضوءاً غريباً يتسلل إلى قلبها، يذوب كل ما حولها من غموض.

أخذ سالم خطوة إلى الأمام، لكن أقدامه كانت تغرق أكثر في الطين. كان الظلام يحيطه، ولكنها كانت على يقين أنه، في تلك اللحظة، كل شيء سيتغير. كل شيء سيبدأ الآن.

لكن الدكتورة روان لم تكن تلك التي جاءت قبل شهور. كانت قد تغيرت، ولكن ليس بالطريقة التي يتخيلها الجميع. كانت أكثر من مجرد امرأة استسلمت لأعباء الحياة؛ كانت روحاً عميقة، تحمل ذكرياتٍ مثقلة بالألم. نظراتها كانت أكثر حدة، كأنها اكتسبت من الزمن قسوةً لم تكن موجودة في الماضي. أكبر من حلمها، وأكبر من خوفها.

خلعت معطفها ببطء، كأنها تتخلى عن عبءٍ ثقيل. لا شيء في حركة يديها يدل على ضعفٍ أو تردد. لم يكن المعطف مجرد قطعة من القماش، بل كان تمثيلاً لرحلة انتهت، رحلة تحمل خلالها جزءاً من الماضي لا يمكن تجاهله. أخرجت حقيبة قديمة، قديمة جداً، كان جلدها ممزقاً، كما لو كانت تحمل ذكرياتٍ رفضت أن تموت. كان عمرها أكثر من عمر أي شخص يعرفه الحاضر، مليئة بالأسرار التي لم يُسمح لها بالخروج حتى تلك اللحظة.

من داخل الحقيبة، سحبت أوراقاً قديمة، كانت تنن تحت عبء الزمن، ولكن كلماتها لم تفقد قوتها، كما لو أن كل حرفٍ كان مشبعاً بالألم وأملٍ قديم. كانت رسائل... حب، حبٌ مكتوب بحبرٍ له رائحة

الياسمين، ولون الدم. كانت تلك الأوراق تفوح منها رائحة الماضي، مثل غيمة تمطر كلمات كانت تُدفن، ولكن الآن، كانت تُسحب إلى النور.

قرأت بصوت منخفض، ولكن كان هناك قوة في كلماتها، وكأنها تحاول أن تزيل غبار الزمن عن حقيقتها:

«أمي لم تهرب...» قالت، «أنتم الذين طاردموها حتى الحافة.» كانت كلماتها كالصاعقة، تفجر الهدوء الذي كان يحيط بهما. أمي، تلك التي كانت الرمز لكل شيء كان مقدسًا في قلبها، وكانت الملاذ الذي لا يمكن المساس به. ثم أضافت، «أنتم من قتلتم الحلم، ثم دفنتموه تحت كلمة: شرف.» كانت تلك الكلمات، التي أطلقها فمها، أشبه بسكاكين تخترق قلب كل من يسمعها. كانت تتحدث عن ظلم تاريخي، عن قتلٍ معنوي ودفنٍ لم يكن مرئيًا لكنه كان حاضرًا في كل خطوة في حياتها.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم رفعت الحقيبة بيدها، ضربت بها الأرض. كانت الضربة كأنها تنهيدة أخيرة، ضربة تنفجر فيها العواصف التي كانت تجمعها طوال عمرها. وسرعان ما خرج منها رماد. كان أبيض، ناعمًا، ولكنه مؤلم. وكأن العالم كله كان يسقط في تلك اللحظة، كانت القطع الصغيرة من الرماد تتناثر في الهواء مثل تراكمات ذكرى لا مفر منها.

«هذا ما تبقى منها...» قالت بصوتٍ هادئ ولكنه محمل بالظلام، كانت الكلمات تتناثر مثل عاصفة تسحب كل ما حولها إلى الهاوية. «من أمي... من قلبي... من نفسي.» كانت تدرك أن ما فقدته ليس فقط

الأشخاص، بل كان جزءاً من هويتها، جزءاً من كل شيء كانت تؤمن به. كانت تدرك، كما لم يدرك أحد، أن الوقت لا يرحم، وأن الذاكرة لا تسقط، بل تبقى كظلٍ ثقيلٍ يتبعها أينما ذهبت.

ثم نظرت إليه، وارتفعت عينها، كانت هناك شراسة في نظرتها، شعلة نارية، شعلة لا يمكن إطفائها. «فقل لي، ماذا تريد أن أفعل؟» كانت تسأله كما لو أنها تريد جواباً واحداً فقط، وكأن الكلمات نفسها كانت تدفعه إلى الزاوية. «أزرع زهوراً؟ أم أشعل ناراً؟!» كان التحدي في صوتها لا مثيل له. كانت تسأله عن التفسير، عن المعنى، عن الخيارات التي لم تُعطَ لها، وعن الحقيقة التي كانت مستترة وراء الغبار والدماء.

لكن الجواب لم يكن في كلامه. كان في تلك اللحظة المجمدة بينهما، حيث كان كل شيء يتفجر من تلك اللحظة البسيطة. كانت هي تعلم، أكثر من أي وقت مضى، أن الانتقام ليس فقط عقاباً، بل كان ألماً طويلاً يتسلل إلى الأعماق. لكنها كانت تدرك أيضاً أن الزراعة لا تعني دائماً السلام، وأنه في بعض الأحيان يجب أن تُشعل النار ليعاد بناء كل شيء.

وفي تلك اللحظة، الرماد الذي تساقط من الحقيبة لم يكن مجرد رماد. كان تاريخاً مهدماً، كلماتٍ ضاعت في الرياح، وأحلاماً أُطفئت في الظلام. كان المطر الذي لا يوقفه شيء، إلا أن تلك اللحظة كانت بداية جديدة، بداية لن تكون مجرد حلم.

ثم... صمت. كان الصمت عميقاً، غير طبيعي، كما لو أن العالم بأسره قد توقف في تلك اللحظة. كل شيء حولها كان ساكناً، كأن الزمن

نفسه كان يختبئ وراء الظلال. ولكن الأرض... لم تصمت. كان هناك شيء يتنفس تحت سطحها، شيء عميق، كان يحتاج على السكون. النهر انفتح فجأة، كأن له فمًا ضخماً ينتظر أن يتكلم. المياه بدأت في التماوج بعنف، كأنها تعبر عن غضبٍ مكبوت، تتنفس بوحشية كما لو أن شيء قد طُرد منها أخيراً. ثم، في لحظة لا يمكن تحديدها بدقة، بصق النهر شيئاً غريباً ومظلماً. كان صندوقاً نحاسياً، يلمع في ضوء القمر الباهت، مقفلاً بسلاسل ثقيلة، وكأنها تحاول أن تمنع أي شخص من الاقتراب منها. كان صندوقاً ضخماً، بدا وكأن الأرض نفسها رفضت الاحتفاظ به، فزجت به إلى السطح.

سالم كان يقف هناك، عاجزاً عن الحركة، بينما كان النهر يهمس في أذنه. لقد رآه من قبل، ورغم أن الزمن قد مر طويلاً، لم يكن قادراً على نسيانه. كان ذات الصندوق، الذي دفنه أبوه قبل سنوات، في ذلك اليوم المشؤوم الذي اختفت فيه نصف القرية، حينما امتلأت الأرض بالدماء والهمسات المخيفة عن شيء لا يجب أن يُكشف.

«لا... لا يمكن.» همس، وكان صوته خافتاً كما لو أن كلماته تخشى أن يراها أحد. كانت تلك اللحظة تزداد ثقلًا في قلبه، وكان يتمنى لو أن كل شيء كان مجرد كابوس، لكن النهر كان يستمر في تدفقه، والصندوق كان يظل هناك، متربصاً به.

لكن الدكتور روان لم تتردد. كانت قد فهمت شيئاً ما، شيئاً عميقاً، شيءٌ لا يمكن أن تنهرب منه. اقتربت من الصندوق، وكأن القدر نفسه قد دفعها لفتحه. فتحت القفل ببراعة، ورفعت الغطاء.

في تلك اللحظة، اختلط الهواء برائحة لا يمكن تجاهلها... رائحة اللوز، رائحة غريبة ومشؤومة، كما لو أن شيئاً ميتاً قد أُعيد إلى الحياة. ثم، خرجت صورة، غير واضحة في البداية، لكنها سرعان ما تكشفت. كان هناك رأس طفلةٍ محنطة، وجهها شاحب، ولكن ملامحها كانت مألوفة. كانت تشبه الدكتورة روان، كأنها صورة قديمة لروح ضائعة. كانت تلك الطفلة وكأنها تجسد الحنين إلى الماضي، ذلك الماضي الذي كان يختبئ فيه الغياب.

«ماذا... فعلتِ؟!» صرخ سالم، وكانت صوته كالصاعقة، غير قادر على إخفاء الدهشة والرعب. كانت هذه اللحظة تفجر فيه كل المشاعر المكبوتة. كيف حدث ذلك؟ لماذا كانت هذه الطفلة في الصندوق؟ ماذا كانت تفعل هنا؟

الدكتورة روان كانت تبسم، لكن ابتسامتها لم تكن تحمل أي علامة على السعادة. كانت ضحكتها خفيفة، غير مريحة، كأنها تتنفس شيئاً أكبر من الحزن. «أنا؟» قالتها، ثم أضافت، «ضحكت لأن الأمر لم يعد يؤلم... كما كنت أظن.» كانت كلماتها تجذب الهواء نحوها، وكأنها تخبره بشيء أكبر من كل الألم الذي عاشته.

«أعدت لك هديتك... يا أبي.» قالتها أخيراً، وكأنها تضع السيف في قلبه. كان الصوت ثابتاً، حاسماً، ولكن لم يكن هناك رحمة في الكلمات. وكأن كل شيء قد انتهى. قالتها بكل يقين، ولم يكن هناك مكان للهروب. «نعم.» كانت ترد عليه، بلهجة قاطعة، كما لو أنها قد فهمت أخيراً السر الذي كان يطاردها طوال حياتها.

في تلك اللحظة، البرق انقضض على الأرض. كان ضوءه ساطعاً جداً لدرجة أن ظهر سالم تأثر، وكأن السماء نفسها كانت تكشف شيئاً عنه. «ليلي»، ذلك الاسم الذي كان حبيساً في قلبه، ذلك الاسم الذي حفره الزمان في روحه، ظهر في الجبين كالحفر على الحجر. كان الاسم محفوراً في الصندوق، كأنها ذنوبٌ لا يمكن محوها.

«ليلي...» همس، لكن الصوت كان ضعيفاً، كأن الألم قد اختطفه، وكأن الزمن قد تمزق أمامه. كان اسمه قد أصبح جزءاً من اللعنة، والذكرى لم تكن سوى جريمة لا يمكن التراجع عنها.

المطر سكت، وكأن صوته قد تجمد في الهواء، وكأن العالم كله قد تراجع إلى الوراء في تلك اللحظة. كانت السماء قد أغلقت أبوابها، وكأنها تحاول أن تخفي عن العالم ما حدث، ما كان يُختبر تحت الظلام. ولكن رغم صمت المطر، كان هناك شيء آخر، شيء أعمق من صوت الماء الذي توقف فجأة. كان الصوت داخلها، في أعماق روحها، يصرخ، يعيد ترديد الكلمات مرة تلو الأخرى، وكأنها صيحات من زمن بعيد.

«أنتِ... ابنة اللعنة!» كانت الكلمات تتردد في رأسها، تتسلق جدران أفكارها، تغزو أعماق قلبها، وكأنها تمزق كل شيء في طريقها. كانت أشبه بالخناجر التي تحفر في جسدها، وكل خنجر كان يحمل معه ذاكرة ماضي طويل. لم يكن الصوت الذي صرخ بها مجرد كلمات، بل كان لعنة، قيداً لا يمكن فكّه. كانت تلك اللحظة أشبه باحتراق بطيء، حيث كل جزء من جسدها كان يشتعل بالألم لا يمكن تحمله.

ولكنه سكت هو الآخر. كان الصمت ثقيلاً، كأن الزمن نفسه قد تجمد في مكانه. لم يكن الصوت قد اختفى، بل كان يتردد في الفراغ الذي خلفه، في الهواء البارد الذي أصبح يطوقها. كان الصمت مثل قيد مُحكم حول قلبها، وكأن كل شيء قد توقف في اللحظة التي كانت فيها على حافة الجنون. هل كان ذلك صوتاً من الماضي؟ أم كان مجرد كابوس يلاحقها؟ لم يكن بالإمكان تحديد ذلك. كان هناك شيء أكبر من الكلمات، شيء لا يمكن التعبير عنه إلا في الصمت.

هل كان هو من قال تلك الكلمات؟ أم كان الصوت يخرج من داخلها، من أعماقها حيث تُخزن الأسرار المظلمة، حيث اللعنة نفسها قد وضعت جذورها؟ كانت تعلم في قلبها، في أعماق وجدانها، أنها ليست مجرد ابنة اللعنة، بل كانت المفتاح لتلك اللعنة نفسها، كانت هي السبب، وكانت النتيجة.

في تلك اللحظة، عينيها اتسعتا في الفراغ، كانت تحاول أن تفهم ما حدث، ما كانت تلك الكلمات التي كُتبت في الذاكرة عبر الزمن، تلك الكلمات التي كانت تحمل معها ثقلاً يكاد يطيح بها. أنتِ ابنة اللعنة.

ابنة اللعنة. التكرار كان يتسلل إلى عقلها، وكأنها كانت تراه في كل زاوية، في كل ظل، في كل تفصيل. هل هذا هو ما كانت هي عليه طوال حياتها؟ هل كان هذا هو مصيرها، تلك العذابات التي كانت تسكن في قلبها، دون أن تدري كيف أو لماذا؟ هل كانت اللعنة هي التي جعلتها تكون ما هي عليه الآن، أم أن اللعنة قد اتخذت منها قرباناً منذ البداية؟

لماذا الآن؟ لماذا تذكرته الآن؟ ألم يكن من المفترض أن تُنسى تلك الأيام؟ ألم يكن من المفترض أن تكون قد أغلقت الصفحات المظلمة التي تعود إليها؟ لماذا عادت اللعنة لتطاردها الآن؟ هل كانت تلك الكلمات مفتاحًا لشيء لم تكن تفهمه بعد؟ هل كان الليل قد جاء ليكشف لها السر الذي ظل مخفيًا لسنوات؟

ثم كان صوت الرياح يهمس، وكأنها تدفعها نحو مكانٍ مظلمٍ، نحو شيء لا يمكن أن تهرب منه. هل كانت اللعنة هي التي تلاحقها الآن؟ أم أن الماضي قد قرر أن يعود ليأخذها إلى النهاية التي كانت مفقودة طوال حياتها؟

أين ستذهب؟ وكيف يمكنها الهروب من روحها؟

من بين الأشجار، حيث كان الليل يلف الكون بحلكنته، بدأ القرويون يخرجون، كأشباحٍ متجسدة في الظلام. كانوا كأنهم أطياف قد تسلت من الزمن البعيد، لا يملكون وجوهًا حقيقية، فقط صورًا مشوهة تلوح في الأفق. مشاعلهم تتأرجح في الهواء، تراقص في الظلام وكأنها ترفض الكشف عن مصيرها، وكأن كل شعلة قد حُكم عليها بالاحترق للأبد. العيون التي تأملتها روان، كانت فارغة، بلا حياة. قلوبهم كانت مغلقة، لا تشعر بشيء، ولا تبحث عن شيء سوى الانتقام، اللعنة التي تطاردهم منذ زمن بعيد.

لكن الأكثر رعبًا لم يكن شكلهم، بل ما كانوا يحمله في أيديهم. كانت الأكفان المرقعة تحمل دماءها، دماء الدكتوراة روان، تلك التي كانت قد خُيِّلَ لها ذات يوم أنها تملك القدرة على الخروج من ذلك

الحلم المظلم. لكن الدماء لا تنقُصُ على الضحية لتغسلها؛ بل كانت كأنها تُثبت جرماً قديماً، جريمة لا يمكن إنكارها. دمها كان يروي قصة الخيانة، القصة التي لا تنتهي.

لكن تلك الحرب، لم تكن بين رجل وامرأة. كانت أكبر من ذلك. كانت حرباً مع الزمن نفسه، مع الماضي الذي لا يموت، مع حقائق تهوى أن تظل دفينّة، كما لو كانت نصف الحقيقة قد تم دفنها في أعماق الظلام. كانت معركة بين أطياف الماضي، التي حاولت أن تهيمن على الحاضر، و بين الحقيقة التي كان يجب أن تُكشف بغض النظر عن العواقب. كان ذلك صراعاً لا تراجع فيه، ولا فرار من ماضيه المؤلم.

في تلك الليلة، لم يكن القمر قمراً كما عهدته الأرض. بل كان جرحاً مفتوحاً، ينزف من فوهة السماء، يُسقط قطرات من الدماء المتجمدة فوق رؤوسهم. كان ينزف بلا رحمة، كأنما يرفض أن يختتم الليلة بسلام. كان القمر، الذي من المفترض أن يكون شاهداً على مرور الأيام، قد تحول إلى مرآة تُظهر كل الخطايا، كل الأسرار، وكل العذابات التي طُويت.

وفيما كانت تلك الظلال تتحرك في الصمت الثقيل، حيث لا يوجد سوى صوت حفيف الأقدام التي تتحرك ببطء على الأرض المبللة، كانت الأكفان تتدلى، كأنها تسحب معها أرواحاً من عالمٍ آخر، من عالمٍ لا يسكنه غير الخراب. كان الهواء نفسه مليئاً بالعواصف، وكأن الرياح تلعن وجودهم، بينما كانت العيون التي حملوها تحت أكفانهم تبحث

عن شيء ما، ربما عن اللحظة التي ستنتهي فيها اللعنة، أو عن الشهادة التي ستكشف كل شيء.

كانت الأرض تحت أقدامهم تنن، وكأنها تملك ذاكرةً ثقيلة، تحمل معها قصصًا لا تُحصى عن الأجيال التي مرّت عليها، قصصًا لم تفرّ من بين ثنايا التاريخ، بل كانت تعشش فيها كجراثيم، تبحث عن طريق جديد للإفلات. كان الماضي يصرخ في آذانهم، يذكرهم بما جرى، بما خُفي عنهم من الحقائق التي طالما اختبأت خلف ستار الخوف و التهديد.

وفي النهاية، لم يكن القمر مجرد جرح، بل كان دليلاً على أن تلك الحروب التي لا تنتهي هي حروب داخلية، لا يمكن الهروب منها. كل خطوة، كل نظرة، كل دمعة كانت تدفعهم نحو النهاية، نحو المواجهة الكبرى التي ستظل تترك أثارها في كل شيء.

وهكذا، عندما امتلأت السماء بالدماء التي تساقطت من القمر، كانت تلك الليلة تمثل أكثر من مجرد لحظة في الزمن. كانت البداية التي لن تنتهي. كانت أفقًا مفتوحًا للظلام الذي أخذ شكله في أيدي القرويين، ليكشف عن وجهٍ مظلم من الماضي، كان يدور حولهم طوال الوقت، يراقبهم بعين لا تعرف الغفران.

سالم وقف وحده، جسداً وحيداً في حضرة الزمن المظلم، تحت شجرة السدرة الملعونة. كانت هذه الشجرة كالعهد الذي لا يرحم، لا تثمر أبداً، إلا إذا جرت دماء عاشق ندم على أغصانها. كان يعتقد أن الريح التي كانت تعصف من حوله تحمل صرخة ألمٍ قديمة، لكن

الصوت الذي يسمعه كان صوتاً داخلياً، نظراته تحاول التسلل عبر الظلام، لكنها تجد نفسها مقيدة في الواقع الجهنمي الذي لا يرحم.

الريح كانت تصرخ في أذنه كأنها تجلب معه أنات الماضي، والليل نفسه كان يبدو كأنه يرسم آلامه في السماء. كان صوت الذئب يتداخل مع همس أمه القديمة، كلماتها التي طالما ألحّت على قلبه: «الحُب يا بني؟ مو صلاة... هذا وجع يُلبسوك إيّاه، وما ينشال.» كانت كلماتها تطارد قلبه كما تطارد العواصف الريح المكسورة.

ومع ذلك، كان قلبه لا يسمع شيئاً سوى اسمها. كان اسمها يتردد في رأسه كأنها أغنية محرّمة، شَكَّتْ صداها في الذاكرة وكأن الزمن يمسح آلامه في حضورها.

الدكتورة روان. كان اسمها لا يغادر عقله. كلما أغمض عينيه، ظهرت أمامه كأنها شبحٌ من الماضي، لكن بثوبها المبتل، تحت شمس الظهيرة الحارقة، كما لو كانت ترتدي شجاعتها أمام الواقع المزعج. كانت تسير في الشوارع وسط العاصفة، تمسك طفلة صغيرة تهتز من الحمى، كأنها تتعثر بين الحياة والموت. وكان أهلها، يرشّونها بماء مالح، كأن المرض شيطانٌ جاء ليأخذها.

«وش تبين مني؟!» صرخ سالم، والظلام يبتلع صوته في الفراغ. يدها كانت تقبض على خنجر جده، ذلك الخنجر الذي لم يخذله يوماً، الوحيد الذي بقي من كل ما خسره. خنجره كان رمزاً للعنف الموروث، لذكريات مؤلمة لا تنتهي. وكان يعرف في أعماق قلبه، أن هذه المرة ليست ككل مرة.

الصورة التي عادت تلوح أمامه كانت غير قابلة للنسيان. كان يرى الدكتوراة روان في تلك اللحظة، كما في حلمٍ مشوه، وقفت تحت شمس الظهيرة، تحمل الطفلة في أذرعها الهشة، وعيونها غارقة في الحزن، كما لو كانت شاهداً على المأساة التي لا يمكن الوقوف أمامها. كان في هذه اللحظة، في أعماق تلك الصورة، الشبح الذي طالما رافقه في يقظته ومنامه، يتحول إلى كابوسٍ حقيقي، كأنها لا تترك له أي خيار.

كل شيء كان يبدو وكأن الماضي يعود ليحاكمه، ليرديه في دائرة مغلقة. كان سالم يصرخ في قلبه، لكن صوته كان يغرق في سكون الليل، الذي أصبح أبدياً، وكأن الليل نفسه كان جزءاً من التكملة لذلك الحلم الذي لا ينتهي.

«هي تقاتل الموت!» قالها الولد الصغير، وكانت كلماته تخرج كحجارة في وجه الليل البارد. لكنه لم يكن يدرك تمامًا ما يقول، لأنه لم يرَ الموت بعينه بعد. صوت أمه الذي جاء في إثر كلماته كان أشد قسوة، أوجع من المرض نفسه، كأنها كانت تحاول إسكات الحقيقة في صدرها، لكنها لم تستطع. كل كلمة خرجت منها كانت كأنها خنجر يُغرس في الذاكرة: «اخرس، لا تتكلم عن الموت.»

وفي الليل، كان الزمان يتآكل في صمت، وكان المكان ينتظر الحدث الأعظم. جاء «أم سلطان»، مثل عاصفة صغيرة في ليل المدينة المظلم. وجهها كان مثل الأرض اليابسة، جافاً، وقاسياً، يحمل معه كل الذكريات التي لا تغنى، ولا تنسى. في يديها كانت جرة دم. كأنها لم تكن تحمل سوى عبء الحياة، حياة محشورة في زجاجة ضيقة لا تقدر

على التنفس. «اشرب... وإلا اسقيها للغريبة.» كلماتها كانت تتناثر مثل أوامر قاسية، تجبرك على اختيار ما بين الألم أو الخوف. ولكن لم يكن في يدها سوى الاختيار الجاف، المؤلم، الذي لا يعرف الرحمة.

الريحة؟ كانت تأخذك إلى بعيد، إلى زمن غريب حيث لا وقت ولا مسافات. كانت تقول: «الماضي ما يموت... هو بس يغير نكهته.» أم سلطان كانت أيقونة الزمن الضائع، حاملة معها سجلاً قديماً لقصص غير قابلة للنسيان. في كلماتها كانت رائحة الماضي تتداخل مع رائحة الدم، فالماضي كما كانت تراه، لا يرحل أبداً، لكنه يتحول. يمتزج بكيونة جديدة، ويترك طعمه على الروح كما يترك الدم في الجرح. كانت كلماتها، كالشعور بالألم الذي لا يُحتمل، تسكنك وتستقر فيك.

وفي تلك اللحظة، كان الاختيار قد جاء. لكنه لم يكن مجرد خيار؛ كان لحظة صدق، لحظة تشعر فيها أن الزمن يتوقف، وأن ما سيحدث بعده سيغير كل شيء. كنت تراهن على الحياة والموت في نفس اللحظة، في قلب واحد، وفي ظل واحد. في ذلك الكهف الضيق، حيث كان الدواء يُخبأ كما يُخبأ السرّ، سقط السقف. لم يكن سقوطه كأى سقوط. كان سقوطاً محمّلاً بالمفاجآت، بأحمالٍ ماضية، وكأن الزمن نفسه كان ينهار. كان الهواء ثقيلاً، وكان الأصوات تتلاشى، كأن كل شيء في هذا المكان يحاول إخفاء الحقيقة التي لا تستطيع الهروب منها.

وكان الصمت، في تلك اللحظة، أكبر من كل الكلمات.

سالم مدّ جسده عليها، كأن قلبه كان يحاول أن يحمل جبلاً من العذاب. قدرته على الوقوف في وجه الرياح العاتية كانت محدودة،

لكن تلك اللحظة التي كان فيها يقف على حافة الهاوية، كانت تكسر حاجزًا في روحه. كان جسده أقوى من أي شيء، لكنه كان ضعيفًا في نفس الوقت. كما لو أن الزمن نفسه كان يحاول أن يدفن في قلبه خنجرًا ثقيلًا. في تلك اللحظة، كان الجبل بأسره ينهار داخل صدره، لكن الصخرة التي كسرت كتفه، كانت أكثر قسوة من أي عاصفة مرّت به. «إحنا نشوف... وإحنا ما نغفر.» الكلمات خرجت ثقيلة، باردة، كأنها تحفر في الأرض نفسها. كانت تُعلن الحقيقة المطلقة.

«روحي... قبل أدفئك معاي.» همس، وكانت كلماته تخرج في زفير ثقيل، وكأن الألم نفسه كان ينهشه. كان ينقلب في داخله، يتحطم مع كل نفس. لكن جسده كان يصرخ في صمت. وجعها كان يتحول إلى وعيه، وكان يراها تبتعد وتقترب، مبعثرة بين السماء والأرض.

لكنها... لم تفعل ما كان يتوقعه. هي، التي كانت في أعماق العيون، كانت هي من لم تخذله. أمسكت يده، كانت أطراف أصابعها تغرق في نبضه، وتغمز في قلبه أكثر من أي ألم آخر. غرزت إبرة في عرقه، وكأنها كانت تغرس الحياة فيه، أو ربما تمتص ما تبقى منه. «الحين... صرت مثلي. ملوث بالمدينة.» قالتها، نظرتها شديدة البرودة. كلماتها كانت جرحًا لا شفاء له. هي كانت حقيقة العالم، كانت مدينة ملوثة، ولا يهرب منها أحد.

لكن ما كان غريبًا هو أن الدم، الذي كان يسيل على يده، كان يكتب على باب العيادة. كان دمًا جديدًا، لكنه قديم أيضًا. كان كل شيء في تلك اللحظة إشارة إلى شيء غير مرئي. العيادة كانت أكثر من مجرد

جدران؛ كانت مكاناً يخبئ في ظلاله كل الآلام التي لا يتحدث عنها الناس. وبذلك الدم، الذي كان يسيل بصمت، كان يروي قصة تكررت، أبدية، تنتقل بين الأجيال والذنب.

كان النهار يطل بهدوء، لكنه كان كاذباً. كان يعكس الظلمة التي لم تُغسل بعد.

رمز «الخاين» كان يطارد الهواء. كان يلتصق بكل زاوية في القرية، يمر كظلال الليل، لا يكاد يُمحي. وفي تلك اللحظة، كانت عيون الناس تطارد بعضهم البعض، وكأنها تأكل ما تبقى من لحوم القلوب الممزقة. كانت الشوك تنمو مثل الأعشاب في أرضٍ يابسة، تتكاثر في صمتٍ خانق. العيون لم تكن ترى، كانت مجرد أدوات تشهد على سقوط الجميع. كان في كل نظرة خيانة، في كل تعبير انكسار.

حارس الذاكرة، ذلك الرجل الذي كان يظن نفسه حامي الحقيقة، وقف في وسط الحشد، صوته يعلو حتى اجتاز حدود الصوت ذاته. «اللي يحب الغريبة... يُدفن غريب.» الكلمات خرجت كالرصاصة، تنفجر في الجو وتخرق الصمت. كانت كلماته التي نطق بها قلبه تحمل أكثر من مجرد تهديد، كانت إعلاناً للمدينة بأسرها أن الخيانة هي أكثر من مجرد تهمة؛ هي وصمة تلازم صاحبها للأبد.

لكن وسط هذه الزوبعة من الاتهامات، كانت الدكتورة روان. لم تكن كأي امرأة في هذه القرية. في يدها، كانت تحمل ورقة صغيرة، شهادة كانت تنبض بالغموض. شهادة قديمة، لكن سطورها كانت تشعّ بمجد لا يراه إلا من كان من أهلها. كانت تقول إنهم من نسل «آل

محمود..» ولكن، كانت مزورة؟ أكيد. بل حتى قلبها كان يخفي كذبًا، لكن الحقيقة كانت سائلة، تدور في عروقها ببطء. كان هناك شيء أعمق من كل الوثائق التي يمكن أن تصدقها العيون.

لكن الدكتورة روان لم تكن خائفة. في تلك اللحظة التي أظهرت فيها الشهادة، كان سالم قد اقترب، كان يلتقط الأنفاس بين صدور ممزقة، وبين ترددات الماضي. دمه، الذي كان ينزف ببطء في عروقها، كان قد ختم الوثيقة بختم العائلة. كان ختمًا يعيد التاريخ إلى نقطة لم يتعلمها أحد.

«الحين...» همست، وعيناها تعكسان ضوء القمر الذي كان يغرق في السماء. كانت نظرتها لا تقوى على التحمل، كان فيها قوة تسري في عروقه، وكأنها كانت تطلب منه شيئًا أكبر من الحب. «حُبنا صار من تراثكم.»

العبارة كانت قاسية، لكنها كانت الحقيقة. حُبهم، الذي لم يكن سوى نارا تشتعل في الصمت، قد تحول الآن إلى تراث. تراث لم يُكتب، لكنه عاش في عيونهم، في صمتهم، وفي أيديهم التي كانت تدفن ما تبقى من ذنوب في قلب القرية.

كانت تلك اللحظة أكثر من مجرد نظرة، أكثر من مجرد وعد. كان هناك تاريخٌ مرير يتخلل كل كلمة، كل حرف، وكل همسة.

القرية كانت معلقة بين نارين. نيرانُ الماضي التي لا تُغادر، التي تلتهم الأمل كما تلتهم الرماد بعد كل طوفان. كانت تتأرجح على

حافة لا تليق بقريةٍ مثلها، كانت أرضها تختنق بصمت، تحترق ببطء تحت وطأة خياراتٍ مستحيلة. هل يُترك التراث يُمحى؟ أم هل تُحرق أقدس الذكريات ليبقى شيئاً واحداً فقط، لا يعرفه أحد إلا الموت نفسه: الحب؟

سالم كان يقف وحده. وحيداً في الزمان والمكان. كان صوته لا يُسمع في هذا الخراب. رفع رأسه إلى السماء، وكأنها كانت ستعطيه إجابة واحدة، ترسم له الطريق بين الظلال والضوء. لكن السماء، كما دائماً، كانت مجرد مرآة للزيف. السُحب كانت تتجمع كما لو أنها أيدٍ خفية، تلتف حول هذا العالم المُعتَقَد فيه، وتُقلب كل شيء في قلبه إلى غموض. كانت اليد، تلك التي رسمها الدخان في السماء، ممتدة كأنها تستعد للإمساك بشيء ما... شيء غامض، قد يُدمر كل شيء.

والدخان. الدخان القديم، الذي كان يلاحق القرية كما يلاحق العذاب أعينَ المغترين، لم يكن قد انطفأ أبداً. كان يحيط بكل شيء، يسكن في الجدران، في الأرواح التائهة، في الأحلام التي تعجز عن الانفلات من سجن الزمن. الدخان كان يحمل معه تاريخاً مظلماً، وحكايات لا تنتهي. كان جزءاً من هذا المكان، ولا يمكن أن يُمحى، لا في يومٍ ولا في ليلة. حتى السُحب كانت تتشكل منه، وكأن الهواء نفسه صار يحمل في طياته ذنوب الأجداد.

هل تحترق القرية؟ كانت الأصوات في داخله تتعالى، تسأل السؤال نفسه. هل تُقتل الذكريات، وتُمحى هذه الأرض التي عشقتها الأرواح الهائمة، مقابل حبٍ قد يكون غير ممكن؟ هل يُغتال الحلم ليعيش غيره على أنقاضه؟

لكن السماء، التي كانت تُمثل جدرانًا تتساقط فيها الأجوبة، لم تُعطه سوى مزيدٍ من الضباب. تركته يلتقط أنفاسه في العدم، ويُسائل نفسه عن الحقيقة التي هربت منه طوال سنواتٍ من عمره.

في الليلة الأخيرة، حيث كانت الظلال تطفئ على كل شيء، كان سالم يُحضر حصانه كما لو أن كل خطوة نحو السرج كانت محكوم عليها بالفراغ. يده ترتجف قليلاً وهو يشد السرج بحذر، يهمس لفرسه كأنهما يعيشان نفس الفقد. الريح كانت تعوي من بعيد، وكأنها تُذكر بموعد الهروب الذي كان يعشقه في صمت. لكنه كان يعلم أنه لا هروب من الذي ينتظره خلف الظلال، ولا مفر من الرسالة التي كانت قد نُحتت في الذاكرة قبل أن تصبح جزءاً من لحظاته الأخيرة.

عندما وصل يديه إلى الجيب، شعر بقلبه يتوقف للحظة. كانت الرسالة هناك، مكتوبة على جلد خروف—رمزٍ كان يهمس بالكثير من الأسرار التي لم تُقل بعد. كان الجلد قديماً، مخدوشاً ومتجعداً، تماماً كأحلامه التي تمزقها الدموع والألم. فكر في فتحها. لكنه تأخر، لأن الفكرة نفسها كالسيف، لا تُحمل إلا لمن كان مستعداً لقطع نفسه بها.

وعندما قرأها أخيراً، شعر أن الكلمات كانت تتساقط على قلبه كأمطار ثقيلة، تغرقه في الوحل. «يا رأسها على سور القرية... يا راسك في العشاء.» هكذا كانت الرسالة، مثل نبوءة لا تُخاطب إلا من كان مستعداً لأن يُضحى. لقد عرف في تلك اللحظة، أن هذه الكلمات كانت القبلة الأخيرة من الحب المُعذب.

ضحك، لكن ضحكته لم تكن ضحكة الفرح. كانت ضحكةً مسكونة بالغدر، محشوة بالفجيعة. ضحكةً لم تخرج من الفم بل من أعماق قلبه المكسور. «الحب؟ ما يموت...» همس بها، كأنها السيف الذي جُرح به في كل مرة. لكنه أضاف بصوت مبحوح: «بس يظل مصلوب... كل صباح، على أعمدة اسمها: العيب.»

العيب. كانت الكلمة تلدغ سمعه أكثر من أي شيء آخر. العيب كان الشر الذي لا يتنفس، لكنه يظل يطاردك، يبحث عنك في كل زاوية من زوايا الأيام. كان يقف أمامه الآن كظلٍ ثقيل، كالمرض الذي لا يُشفى. والعيب، كما كان يقول له الأب، هو ما يتجاوز الحدود، ما لا تُغفر خطاياها.

كانت القرية تختنق بصمت، بينما كان سالم يُجبر نفسه على أن يتحرك. هروب؟ لألم يكن هروبًا. كان نوعًا من الاستسلام لكل شيء كان يظنه ماضيًا، وكان الفرار إلى المجهول هو الحل الوحيد للبقاء. لكنه كان يعرف أن الماضي لا يمكن أن يهرب منه، وأن الحب الذي عانى منه قد أصبح لعنة.

في الليلة التي كان فيها القمر يشبه جرحًا لا يُشفى، كان الهواء يئن من ثقل الماضي، وتفاصيل الليل تنزف شيئًا من الوحدة القاتلة. كانت الأرض حولهم تتخبط بين الحلم والواقع، كما لو أن الزمن نفسه قد تجمد عند هذه اللحظة الفارغة. سالم والدكتورة روان وقفا على حافة واديٍ مظلم، حيث ينساب الظلام وكأنه مياهٌ راكدة في عمق خندقٍ بلا نهاية.

«وادي الأموات»—هكذا يسمونه. الاسم وحده كان ينهش أرواحهم، يثير الخوف في الجسد قبل العقل. ولكن هنا، حيث الآلام تجد مأواها، حيث لا حياة ولا موت، كان المكان شاهداً على القلوب الميتة التي لا تزال تنبض، تنبض بأوجاع لم تجد مرفأً، لأسفار حب لم تجد خلاصاً. كان الوادي مكاناً غير مرئي، مكاناً لا يسكنه إلا الصدى، صدى العاشقين الذين ذهبوا بعيداً جداً، حتى أصبحت أسماؤهم فقط هم من بقي من آثارهم. صدى أولئك الذين أحبوا أكثر مما يجب، والذين دفعوا ثمن حبهم من أرواحهم.

بينما كان سالم يقف هناك، متأملاً هذا الظلام الساكن، كانت الرياح تحكي قصصاً قديمة، كأنها تجتر الذكريات التي ترفض أن تموت. كان يمكنه أن يشم رائحة الغياب في كل زاوية، يراها في تلك الظلال التي تتقافز فوق الهاوية. الدكتورة روان كانت تراقب القمر. نظرتها كانت ثاقبة، مثل من يملك أسراراً دفنتها الأجيال.

«ألم تعتقد، يوماً، أننا سننتهي هكذا؟» همست الدكتورة روان، كلماتها كانت كالرصاصة، لكنها اخترقت السكون دون أن تترك أثراً. لم تكن بحاجة للإجابة؛ سالم كان يعلم أن كلامها كان أكثر من مجرد استفهام. كان يحمل إدانة، كأنها تذكرة بأن الحب الذي جمعهم لم يكن سوى عاصفة مرّت في حياتهم وأخذت كل شيء، كل شيء لا يمكن استرجاعه الآن.

«أعتقد أننا أصبحنا جزءاً من هذه الأرض، روان.» كان سالم يتحدث بصوت منخفض، وكأن الكلمة نفسها ستنتهار بمجرد أن تخرج من فمه.

قلوبهم كانت تحتضر تحت ثقل الصمت، كل نظرة كانت تحمل من الألم ما يفوق قدرة البشر على تحمله.

كان الوادي أمامهم، تحتهم، كما لو أنه حفرة استوعبت كل أشكال الموت، كل هزيمة لم يُذكر اسمها، كل حب ضائع. كانت المسافة بين الوادي وسقف السماء تزيد في كل لحظة، كما لو أن الأرض تريد أن تبلعهم. الريح التي كانت تعصف بهم كانت تحكي عن أقدارهم المعلقة، وكانت الظلال التي رافقتهم في الطريق تتأمل في الماضي الذي لا عودة منه.

«هل تظنين أن هذا المكان يقدر أن ينسينا؟» سأل سالم، وصوته كان يحمل خيبة أمل كبيرة. «هل يظن هذا الوادي أنه يمكنه دفن حبا كما يدفن الموتى؟»

الدكتورة روان ضحكت، لكن ضحكتها كانت حزينة، خالية من أي معنى للفرح. «أنت مخطئ، سالم. الحب لا يُدفن. قد يختبئ، قد يتألم، لكنه لا يموت. هو فقط يصبح جزءاً من المكان، جزءاً من الزمن.»

نظر إليها سالم بعينين متعبتين، كما لو أنه كان يبحث عن خلاص في كلماته، كما لو كان يريد أن يعرف ما إذا كان كل شيء قد انتهى. لكن الدكتورة روان لم تكن تلك المرأة التي يتخيلها. لم تكن تلك الآمال الضائعة التي قد يراها في الليل، بل كانت هي الواقع نفسه، المرأة التي لا تعكس سوى وجوههم المكسورة.

في تلك اللحظة، كان الوادي يبتلع كل شيء. كانت السماء تتأملهما من بعيد، كأنها لا تكثرث. القمر الذي كان يشبه جرحاً مفتوحاً، ظل

ينزف ضوءه الباهت، يسحب معه خيوط الأمل الأخيرة. وكلما اقتربوا أكثر من الحافة، كلما زادت المسافة بين قلوبهم وبين العالم الذي كانوا يحلمون به.

لكن الحقيقة كانت واضحة. الريح كانت تحمل رسائل لا تعود، والأرض التي تحت أقدامهم كانت تسحبهم إلى الماضي، إلى حكايات لم تنتهِ بعد.

الريح؟ كانت تتلاعب بالأجواء، تتسابق مع نفسها، تمزق أكمامهم كما لو كانت تسعى لتفريقهم عن بعضهم البعض، كما فعلت القرية من قبل، كما حاول الأهل أن يفعلوا. الريح كانت خادمة للماضي، ترسل أصداء كلمات قديمة كالرعود، تسحبهم نحو المكان الذي يمزقهم. لكنها لم تكن تعرف أن أيديهم كانت تمسك ببعضها مثلما يمسك المرء بحياته في آخر لحظة من الظلام.

سالم كان يلتفت نحو الأفق البعيد، حيث كانت الظلال تتسرب بين التلال الصامتة، وكانت أعينهم متشابكة كما لو أنهم يحملون في تلك اللحظة كل شيء، كل ذكرى، كل حب، كل ألم. اليدان اللتان امتدتا كأنهما حبل نجاة في بحر متلاطم. وحين سالم همس، كان صوته خافتاً، مختنقاً بين أضلع الحزن، «شوفي هناك...»

أشار بأصبعه إلى البعيد، إلى حيث كانت العظام البيضاء تتلألأ بين الشقوق، وكأنها رأس جبل مكسور يخرج من أعماق الأرض. كانت العظام تتحدث بصمت، تروي قصصاً عن كل شيء فقدوه، عن كل شيء تخلوا عنه. حولها، كانت خيوط ملوّنة تتناثر بشكل غريب، كما

لو كانت علامات من الماضي، أشياء تافهة، لكنها كانت آخر شيء تمسكوا به، آخر شيء احتفظوا به قبل أن يُنسوا في قلب التاريخ، في قلب النسيان الذي لا يعرف الرحمة.

«هذا مصيرنا، يا روان...» قالها سالم، وكان الملح في صوته أعمق من الدمع، كان صوتاً يتسرب من أعماق الحياة نفسها، حيث الألم لا يحتاج لتفسير. الريح كانت تشد قلبه أكثر، لكن روان كانت تقف بهدوء غريب، كأنها لا تشعر بأي شيء. كانت نظراتها هادئة، لا تبدي انفعالات، فقط هناك شيء ثابت في عينيها، كما لو أنها هي الآخرة نفسها التي لا تخشى الاقتراب منها.

أمسكت بيده، ثم وضعت إصبعها على فمه، سكوتاً، كما لو أنها تمنعه من قول المزيد. كان صمتها، أكثر من أي شيء آخر، هو ما كان يمزق قلبه. في تلك اللحظة، شعر سالم أن كل شيء يبتعد عنه، كل شيء يضيع، لكنه كان في نفس الوقت يشعر أن هناك شيئاً أكبر من الألم نفسه ينتظره. مصيرهم؟ مصيرهم لم يكن مكتوباً بالحر الذي يمكن محوه، بل كان مكتوباً بالدم، دم مر، دم لا يمكن لأحد أن يبدله.

«مصيرنا؟» همست روان، وكان صوتها مثل الريح نفسها، غير واضح لكنه يحمل ثقل الحقيقة، «ما يُكتب بالحر، يا سالم، يظل قابلاً للمحو. لكن ما نعيشه هنا، اليوم، ما نعيشه نحن... لا يمكن أن يُمسح أبداً. مصيرنا هو ما يصنعه القلب... لا ما يخطه الآخرون.»

في تلك اللحظة، كان الريح قد هدأت بشكل مفاجئ، وكأنها أرهقت من تلك المحاولة المستمرة لتفريقهما. كانت السكون يلف المكان،

كما لو أن الزمن نفسه توقف ليلتقط أنفاسه. لكن في قلب هذا السكون، كانت هناك شعلة، شعلة صغيرة تكاد أن تنطفئ، لكنها كانت تكفي لتضيء مسارهم إلى الأمام.

أخذت روان نفساً عميقاً، ثم قالت بصوتٍ هادئ، لكن قوي: «لن نكون كما يريدون. ليس نحن. لا يمكن أن نُنسى، سالم. حتى وإن كانت العظام التي تراها هناك هي آخر شهادة، فالحب هو الشيء الوحيد الذي لا يموت. حتى الموت لا يستطيع أن يمحو حبنا.»

نظرت له بعينين تعرفان التعب جيداً، عينيها تلامسان أعماق الروح كما لو أنها تراه من خلال عذاباته. «نكتبه بأسناننا، ونعضّ عليه... لو نَزَف.» قالتها بصوتٍ منخفض، لكن كلمتها كانت تشق الطريق، كأنها نحتت في الزمن نفسه. ثم ساد الصمت، مثل غيمة سوداء تظلل المكان، على حافة الحقيقة التي ستفتق عن ألمٍ غير مرئي.

ثم جاءت اللحظة، تلك اللحظة التي سكنت فيها الريح، وتوقف فيها الزمن في سكون مرعب، وامتدت يد القدر لتلامسها. من بين الصخور، خرجوا.

رجال القرية، كانوا مثل كائنات مستحيلة، منزوعة الإنسانية، يلبسون جلود الذئاب الملوخة بالدماء. كانوا يحملون معهم وحشاً في قلوبهم، عيونهم خاوية، كأن الحياة قد تجردت منهم، وأصبحوا مجرد أصداء للموت، تتنقل بين الظلال.

وفي يد حارس الذاكرة كان هناك صندوق، رمزياً أكثر من كونه حقيقياً، رمزاً لكل شيء ضاع، كل شيء انتهى. وقال وهو يرفعه فوق رأسه، كأنه يباركه بالدماء التي اجتاحت الأرض: «سقط العار». هكذا كانوا يسمونه. صندوق يشبه الماضي الميت، حملاً من العار، ثقلاً على صدورهم.

ثم جاء السؤال، كان موجهاً لهم جميعاً، لكنه كان موجهاً إلى قلبه، وكأن الزمن نفسه يتعثر في كلامه. «اختاروا...» قالها بصوت شبيه بالصلاة، ولكنها كانت أقرب إلى لعنة. «تموتوا بالحب؟ ولا تموتوا بالسيف؟»

سالم لم يتردد، كان قلبه مشتعلًا بلهيب من نارٍ لا تنطفئ. لم يكن لديه وقت للتفكير، لم يكن هناك مجال لتشكك في خياراته. فتح الرمال بسوطٍ قديم، وكانت اللحظة تتنفس من خلاله، تندفق وكأنها تسير عبر عروقه، تسري في عظامه.

وفي لحظة واحدة، تطاير الغبار في الهواء، مثل شظايا الزمن، لتكشف عن وثائق قديمة، أوراق كانت في العتمة مخبأة لسنوات طويلة، أسرار دفنت منذ الأزل، وكأن الأرض نفسها كانت تئن من ثقلها. كل شيء انكشفت أسرارها، وكل شيء أصبح واضحاً. «هذا حبكم؟» تساءل، صوته صارخاً في الوجود، وكأن السؤال نفسه كان هو الموت الذي يلاحقهم.

الجمهور كان يتراجع، خطواتهم كانت ثقيلة، وكأن الأرض تحتهم

بدأت تبتلعهم. حتى الهواء نفسه بدا وكأنه يتردد، كما لو أنه يشعر بحجم الصراع الذي كان يوشك على الانفجار.

لكن شيخهم، مثل غريزة خائفة تتفجر في لحظة ارتباك، تقدم نحو الدكتوروة روان، كما لو كان يسعى لقتل الأمل في أعينهم. سكينه في يده، كانت تلمع في ضوء القمر، ووضعها على رقبتها في حركة باردة، قاتلة. كان هذا هو السيف الذي سيقطع حبال الحياة، ويقطع كل شيء يمكن أن ينقذهم.

«حتى لو فرقي...» قالها بصوتٍ متقطع، كمن يخسر في لعبة لا يستطيع الانسحاب منها. كان يتحدث كما لو أن الحقيقة كانت تلسعه بشدة، لكنه كان يكابر. «بتظليل غريبة...»

كلمات حارس الذاكرة كانت رصاصة، أكثر من كونها تهديدًا. كانت تسمم اللحظة وتفتح جراحًا جديدة. لكن سالم، في تلك اللحظة التي كانت فيها حياته على شفا النهاية، شعر أن الحب كان أكثر من مجرد كلمة. كان إرثًا لا يموت، لا يستطيع أحد أن يُطفئه.

وفي تلك اللحظة، كان التوتر يشتد أكثر، كما لو أن الأرض نفسها كانت تشهد على المعركة الكبرى التي لا مفر منها، معركة بين العواطف والقدر، بين الوجود والدم.

لكن الدكتوروة روان، كان قلبها يتسع لما هو أكبر من كل هذا، أكبر من قسوة الرجال الذين احتشدوا حولها. كانت تعلم أن الحب، مهما كان محرّمًا، فهو يظل الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن دحضها.

وهنا...

تبدّل الحدث، كأنما الزمن نفسه قرر أن يشني عن مساره، ويدور في حلقة جديدة من المعاناة. لحظة كانت أهدأ مما يجب، ثم انفجرت في وجههم. تحت عباءتها، انبعث صوت صفّارة لا يمكن أن يُسمع إلا في تلك اللحظات التي يتداخل فيها الرعب مع الواقع. كان الصوت أقوى من الرياح، أعمق من الفضاء، يدخل عقولهم ويشوش أفكارهم. وكأن الأرض نفسها توقفت عن التنفس، وكأن الأنفاس اختنقت في صدورهم.

ثم أضاء المكان، نور أزرق يشع من الزوايا الضبابية، يتخلل الحجارة القديمة، ويلوح كالشرر في عيونهم المذهولة. لا أحد يعرف من أين جاء. السماء التي كانت مشقوقة، تفتحت على عالم جديد، يحلق فيه السواد الذي يركب طائرات تلتهم الفضاء. صوت محركات الطائرات كان مزمجرًا، يعلو ويهبط بين الأفق والأرض. كاميرات ضخمة تسجّل كل لحظة، تتحرك بين الأجساد كالعقارب، تلتقط اللحظات في أنفاسهم، وكأنما كل خطوة منهم هي توقيع على تاريخ جديد لن يُمحى.

وفي تلك اللحظة، اهتزت جدران القرية تحت وقع التغيير. اهتزت بذعر، كما لو أنها كانت تعلم أن ما سيحدث ليس مجرد فصل من حياة القرويين، بل نهاية لما كانوا يظنونهم واقعًا لا يتغير.

«الآن...» قالتها بصوتٍ خافت، كان يشبه الحنين، وكأنها تكلمهم من جراح قديمة، من عمق الذاكرة التي تمرّقها الأشباح. كانت كلماتها

كالرصاص، تستقر في صدورهم، تبث الرعب في قلوبهم، وتفتح أبواب الأسئلة التي لا أجوبة لها.

«كلكم غرباء.» كان الصوت أكثر هدوءًا الآن، لكنه أكثر اختراقًا. كانت تقولها وكأنها تلامس الزمن نفسه. فكل واحد منهم كان غريبًا عن الأرض التي يقف عليها. كان كل شيء في حياتهم زائفًا. كان الحب، الولاء، الدم، كلها أشياء كانت تتبدل مع كل نسمة ريح.

في لحظة غير متوقعة، غرست الخنجر في الأرض. كانت حركة جريئة، لكنها مفعمة بالقوة، وكأنها كانت تزرع في الأرض شهادتها على كل ما مرّ بها. الأرض نفسها اهتزت تحت تلك اللمسة، كأنها تحسّ بتلك الوطأة الثقيلة. كان الخنجر يشع بحمرة الدم، وكأنما يكتب بأحرف غامقة وصوت مدوّ.

«هذه أرضكم...» قالت، بينما كانت عيونها تتسع بعنفوان لم تعرفه من قبل. لم يكن حديثها مجرد إعلان، بل كان حكمًا، كان إرثًا يسكن عروقهم، كان بداية النهاية.

«خذوها...» كانت كأنها تدفعهم بعيدًا عن وطنهم الذي عرفوه، بعيدًا عن الأرض التي آمنت بهم يوما، كما لو أنها تسلب منهم الهوية، وتزرع فيهم التيه.

«بس لا تنسوا، الأمراض ما تموت... بس تتنكر.» كانت كلماتها تخرج مسمومة، تلتف حول الأرواح كالظلال. كانت تعرف أكثر منهم أن ما سيواجهونه بعد هذه اللحظة ليس مجرد حرب أو صراع

على الوجود، بل كان معركة بين البشر و الأقدار، معركة لا تقتصر على الحروب المعلنة، بل على ما خفي في النفوس. الأمراض التي ترتبص فيهم، تتنكر في شكل جديد، تختبئ في أجسادهم، تتسرب في كل زاوية في حياتهم.

ولم يكن هناك مفر. في تلك اللحظة، كان الزمن قد أتم دورته، وأصبحت القرية في قبضة الواقع الجديد.

سالم فهم الإشارة، وكانت كما لو أنها جملة غامضة في فم القدر، تلعب بها الرياح كما تشاء. رفع يده، بثقة وعزيمة، كمن يعترف بسلطان هذا اللحظة التي لا يمكن أن تُنسى، كانت إشارة النهاية أو البداية، لا أحد يعرف. ثم... صمت عميق.

في السماء، حيث كان القمر يراقبهم، قرر أن يفضح السر. طلقة خرجت من فوهة سلاحه، طائشة في الهواء، تنشر بين السماء والجزء السفلي من الأرض شعاعاً أحمر، كما لو أن القمر نفسه قد انفجر. كانت الطلقة تنكسر في الأفق، وكأنها تضيء سماء الليل مرة أخرى، تترك خلفها مساراً ملوناً بالدم، كأنها تحاكي الذكرى الأولى لتلك اللحظة التي رأوا فيها القمر معاً لأول مرة.

لكن ماذا حدث بعدها؟

كانت اللحظة غريبة، كما لو أن الزمن توقف.

ظلام.

الهواء أصبح ثقيلاً، صمت خانق، يسكن كل شيء، حتى الأرض. كان صوت النفس هو الوحيد الذي يصرخ في الأذنين، صدى البنادق

يتحطم في الزمان والمكان. الغبار... كان يرقص حولهم وكأنه يتلاعب بهم، يجعلهم يحسون كما لو أنهم في حلم غريب لا يمكنهم الإفلات منه. كان الغبار يشبه رمال الزمن، تنقلب لتظهر الحقيقة التي لا يمكن أن تُمحى.

ثم، في منتصف الظلام، ما بقي إلا خنجر مغروس في الأرض. كانت النصل يتألق في الظلام، كجوهره مغرورة، تنتظر أن يُحكم عليها. ولكن هذا الخنجر؟

لم يكن مجرد أداة، بل كان رسالة، وكأن الأرض نفسها قد ابتلعتة ليظل شاهداً على ما حدث. وغرُز في قلب الصمت. عليه... كان الكلام الذي لا يمكن أن يُمحى، لا بالماء، ولا بالزمن. «الحب ما يفوز...».

تلك الكلمات كانت تتردد في عقولهم مثل لحن مخيف، يعزف في أعماقهم. كانت الحقيقة التي عرفها الجميع، لكنهم أخفوها عن أنفسهم طويلاً. الحب... لا يحقق النصر، لا يحصل عليه من يتوقعه. بل يترك ندبة، محفورة عميقاً في الروح. تلك الندبة تظل تذكرهم، وتتحكم في أيامهم، حتى في لحظات السكوت، وحتى في أكمل لحظاتهم غفلة. «الحب... يخلي فينا ندبة...».

ندبة لا تُشفى، ولا تتلاشى مهما حاولوا. إنها جزء من وجودهم، كجزء من الأرض نفسها. حيث كل لحظة أمل كانت تذوب في الأفق، ويظل الحب هو السر المحطم الذي يجعلهم يندفعون نحو المستقبل، لكنهم لا يستطيعون الهروب من الماضي الذي خلفه.

تلك الندبة؟

لم تكن مجرد جرح جسدي. كانت جروحًا في الذاكرة، في الروح، تظل تحكّ في كل مرة يحاولون فيها أن يجدوا السلام. في كل خطوة يخطونها، كانت تلك الندبة تُذكرهم بأنهم، في النهاية، مجرد أشخاص محكوم عليهم أن يحملوا وزرًا لا يستطيعون التخلص منه، مهما كانت محاولاتهم.

والقرية؟

ما عادت كما كانت.

في تلك الليلة، كانت هناك فراغات بين النجوم، وكأن السماء نفسها امتنعت عن النظر إلى الأرض، كما لو أنها ترفض أن تكون شاهدًا على ما سيحدث. لا، لم تكن هناك سماء. كان كل شيء غارقًا في ظلام كثيف، يستوعب كل شيء، كما لو أنه يسحب الأرواح إلى أعماقه.

الصحراء، التي كانت دومًا تراقب بصمت، بلعت أنفاسها. كان هذا أول نذير. ثم، فجأة، زفرتها دفعةً واحدة، كما لو أن الأرض نفسها كانت تصرخ. عاصفة؟ لا، لم تكن مجرد عاصفة عابرة. كانت رياحًا حاملة معها غيومًا من الذكريات، تحمل تجاعيد الزمن التي كانت تختبئ تحت سطوة الشمس في أيامها العادية.

لكن هذا لم يكن من النوع الذي تُغلق النوافذ من أجله. لم تكن رياحًا خفيفة تتسرب إلى المنازل. لا، بل كانت تلك التي تسحب الأرواح، التي تقتلع الأمان من القلوب، كما لو أنها كانت تحاول تمزيق

الوقت نفسه. كانت عاصفة من نوع آخر. عاصفة تحمل في طياتها المآ قديمًا، غارقًا في الذاكرة، لا يستطيع أحد الفرار منه.

الرمال؟ لا، لم تكن ناعمة كما كانت من قبل. في تلك اللحظة، كانت حادة كأنها أسنان الزمن نفسها، التي تشد على الأعصاب، تقطع كل خيط من الأمل. كانت الرمال تدخل بين العيون والذكريات، كما لو أنها تتسلل إلى كل زاوية في الروح، لتترك خلفها ندوبًا لا يمكن رؤيتها، لكن يمكن الإحساس بها بمرور كل دقيقة، وكل ثانية.

كما لو أن كل شيء أصبح أكثر ألمًا. كانت تلك الرمال، التي تتناثر في الهواء، تشبه معجزة روحية. تنزف كل شيء. الذكريات؟ تنزف. الأيام؟ تنزف. كل لحظة مضت في تلك القرية كانت مملوءة بالألم، وكل خطوة جديدة كانت تقطع خيط الأمل الذي كان ضعيفًا أصلاً.

حتى أصوات الليل كانت تنكسر تحت وطأة العاصفة. لم تعد الأصوات تحمل الطمأنينة التي كانت تجدها في صمتها العميق. الريح كانت تتحدث بلغة قديمة، لغة غريبة، ربما كانت تحمل رسالة، لكن لم يكن أحد قادرًا على فهمها. كانت رسالة كتبت بأحرف ممنوعة، كتبت من دم الزمن نفسه، حروفها تُترك في الهواء، غير قابلة للمسح، لتظل تخنق كل محاولة للهروب.

وفي تلك اللحظة، القرية لم تعد موطنًا. لم تعد مكانًا يمكن اللجوء إليه. أصبحت أرضًا شاحبة، تحت سماء لا تملك أي لون. الأرض نفسها كانت تنزف، وكانت تحتفظ بأسرارها التي لا يُسمح لأحد

بمسها. أشجارها، التي كانت يوماً ترفرف بظلال الحياة، أصبحت تتشظى كأنها جثث قديمة، تهزها الرياح، تتناثر أوراقها كأشلاء مفقودة. الناس؟ كانوا يهربون داخل أنفسهم. كانت الوجوه محطمة، عيونهم فارغة، يبحثون عن شيء لا يمكنهم العثور عليه، حتى وهم في أحضان هذا الظلام الذي يملأ الكون. كانوا جميعاً على حافة الهاوية، حافة المعرفة التي قد تدمرهم إن هم أدركوها.

لم تكن هذه مجرد عاصفة. كانت ثورة كونية، تهز كيان الوجود نفسه، عاصفة لا تُغلق الأبواب فحسب، بل تغلق القلوب. تُغلق الأمل، تُغلق الحياة كلها، ليبقى ما تبقى منها جثة ترتجف تحت سماء لا تُعطي رحمة.

وسالم...

كان وحده،

في ظلام غامر يبتلع الأنفاس. لا رفيق له، سوى تلك الخطوات التي تنن تحت ثقل الأرض الميتة، وكأن كل حجر تحت قدميه يحمل قصة من الخراب. كان يمشي كمن يعرف طريقه وسط نهاية العالم، كما لو أن المكان نفسه قد أوقف الزمن عند نقطة لا عودة منها. وحده كان، لكن مع كل خطوة كان يترك خلفه آثاراً ستبعتها الأرواح، وتجد فيها دليلاً على ما كان.

فانوس صديء كان يضيء أمامه.

لكنه لم يكن مجرد فانوس، بل كان شعلة أمل ضعيفة تشبث بما تبقى من الزمن.

الضوء كان ضعیفًا، متقطعًا، يشبه أنفاسه التي تتوقف لحظة وتعود في لحظة أخرى، وكأن الرياح نفسها تتلاعب بها.

لكن هذا الضوء كان يكفي ليكشف ما حوله،

طريق ضيق يطوقه الظلام من كل جانب. يراه، لكن لا يستطيع أن يلمسه. كانت الأرض تنقض عليه كلما رفع قدمه، تحتجزه، ثم تحرره للحظة قصيرة، فقط ليجد نفسه في مواجهة أخرى مع تلك اللحظة المعلقة بين الحياة والموت.

ثم...

سمع صوتًا بعيدًا، متسللاً من بين حنايا الجدران المهتمة.

«الرجال معي... والناس تحت السقف!»

قالها وكأنها آخر صلاة يعرفها، لحنٌ مكسور، ولكنه لم يخلو من العزم. كانت الكلمات تُسحب من أعماقه، نبرة صارمة، لكنها تذكره بما كان، بما كان يجب أن يكون. هذه الكلمات، التي كانت من قبل شعارات للشوار، أصبحت اليوم صرخة في بحر من الخراب.

«الرجال معي... والناس تحت السقف!»

كان يكررها في ذهنه، وكأنها نذير لما سيأتي.

لا... لم يكن يطلب منهم شيئًا. لم يكن هناك وقت للانتظار. كان يحمل على كتفيه ثقل تلك الأجيال التي عاشت في الظلال، وكان عليه أن يمشي فوق الجمر ليوصلهم إلى الضوء. لكن لا ضوء كان هناك. كانت هناك أطلال، ذكريات تتناثر بين الرياح، ونبضات يائسة تختنق في الصدور.

وفي تلك اللحظة، حين ارتفعت كلماته في الهواء، تردد صدى الصوت في الظلام، وحلق في الزمان والمكان. لم يكن مجرد صوت، بل كان صرخة روحه التي طالما حاولت أن تُسمع. كان الصوت، في تلك اللحظة، مثل مطرقة تصطدم بالحجر، تقطع السكوت الذي كان يحكم قبضته على الجميع.

كان هو، وأنت؟

كل شيء حوله كان قد أصبح ضبابياً. الأفق بعيد، والشوارع المظلمة تسحب منه كل خطوة، لكنها لا تتركه يتراجع. لا، لم يكن هناك مكان للعودة. كانت طريقه فقط إلى الأمام، حيث الخراب، والنهاية. لكن حتى في النهاية، كان سالم يعرف أن هناك شيء يجب أن يُقال.

كان يعرف أن العمر ليس فقط ما يمر، بل كل شيء مرَّ بجانبك دون أن تلاحظه، كل اللحظات التي تبخرت ولم تترك خلفها إلا ظلالاً وذكريات تندفق مثل دموع في أعين الناس الذين يتخبطون في عالم لا معنى له.

لكن ما زال سالم يمشي.

أما روان...

كانت كما الريح، غير مرئية، لكنها تسكن في كل شيء. كانت ضد كل ما تقوله الريح، ضد المسلمات، ضد ما يفرضه العالم من قوانين، ضد الموت نفسه. كان وجودها مقاومة صامتة، تحدٍ للقدر، وحرب ضد الزمن الذي يفتر منها دون أن تتركه يمسّها.

معطفها الأبيض، ذلك الذي كان يحمل نقاء الطبِّ والحياة، فقد لونه، وانزلق من معطفها البراءة التي اعتادت عليها، ليبقى رماديًا، كما أفقٌ غائم. كان وكأن العالم قد أدار لها ظهره، فاندست فيه الظلال، لكن عينيها...

عينيها ما زالتا تتوهجان. كان التوهج في عينيها نابغًا من قوة لا تنهار، رغبة في أن تكون هي الحارس للنفوس التي لا تجد من يحميها. كانت عيناها مثل نجمتين في سماءٍ يائسة، لا ترفان، لا تضعفان، لا تضعفهما الرياح ولا العواصف.

«الموت ما له تصريح اليوم.»

قالتها بصوتٍ عميقٍ، حازم، وكأنها تتحدث عن شيء لا يُحتمل تجاوزه، أو ربما كانت تؤكد على شيء لا يمكن لأي كائن أن يرفضه. الموت لم يكن حاضرًا في قاموسها اليوم، وكانت هي وحدها صوت الحياة.

لم تنتظر الشكر، ولم تسأل عن الثمن الذي ستدفعه. كان من المفترض أن يكون أمرًا عاديًا بالنسبة لها. هي لا تعرف كيف تتوقف عن تقديم كل شيء حتى في ظل الموت نفسه. مساعدتها كانت شيء جوهريًا، كالتنفس بالنسبة لها، هي لم تكن بحاجة للاعتراف، ولا للشكر، لأنها ببساطة كانت أكثر من مجرد إنسان. كانت رمزًا للنجاة.

عندما انهار بيت آل مسعود، كان الصراخ في الأفق، والخراب يلتهم كل شيء من حولهم. وبينما كانت الجدران تتساقط وتنهار الأرواح في

ظلام هذا الكابوس، ركضت هي، قبل أن يصرخ أحد. لم تنتظر ولا لحظة، لم تتردد. سارت في طريق الموت وهي تعرف أن مهمتها هي الحياة. وعادت بعد دقائق، وكأن الزمن قد تجمد لحظة وصولها.

حملتها بين ذراعيها، بتين صغيرتين، كانتا ناعمتين كالزهور، ولكن عيونهن فارغة من كل شيء. كانت الروح قد تراجعت عن جسديهما، ولكن روان لم تكن لتسمح لذلك أن يكون النهاية.

«تأخذوهم...»

قالت، صوتها كان أمراً، نعمة غاضبة تقريباً، ولكنها كانت أكثر من مجرد أمر، كانت الحياة التي فرضت وجودها على الموت.

«جيبوا قماش.»

لم تعترض الأيدي، لم تهمس الشفاه بأي كلمة. كل شيء، في تلك اللحظة، كان يسير وفقاً لإرادتها. وكأن العالم قد تعرّف أخيراً على قوة الإنسان الذي يرفض الاستسلام. وكأن قلبها كان ينبض لأجساد الآخرين، لا يملّ ولا يتعب.

كان صوتها أمراً صارماً، كأنها تُذكّرهم بأن الحياة لا تنتظر أحداً، وأن الموت لا يملك حقاً في اختيار من يذهب ومن يعود. كانت تعلم، كما يعرف كل من يضع يده على جروح الحياة، أن في تلك اللحظة كان الكثير يحتاج للنجاة، للروح التي تقاوم حتى في أصعب اللحظات. كانت تلك هي روان... القوة التي تُحيي الأمل وسط الدمار.

سالم كان في مكانٍ آخر،

داخل قلب الخراب.

يجلس على حافة الزمن، يحارب الوهن، يواجه الجدران التي تنهار حوله. يشد الحبال حول المبنى الذي يُسمع صوته وهو يتنهد تحت وطأة الوقت.

لكنه كان أكثر من مجرد رجل يحارب للنجاة.

كان يحارب لأجلها.

عيناه... كانت تراقبها، لا تغادر.

كانت هناك... حيث كل شيء مهدد، حيث الوقت ضائع، حيث لا مجال للحديث عن الأمل. وعندما رآها، لم تكن مجرد امرأة، لم تكن تلك التي كانت عينه تعشق تفاصيلها في صمت، ولا التي كانت تجسد كل الأحلام الضائعة.

بل كانت هي الوادي نفسه، ذلك الذي لا يرحم، ذلك الذي يخفي أسرارها في طياته، والذي في لحظة واحدة، يمكنه أن يبتلع كل شيء. كانت هي الأرض، وكل عاصفة، وكل انهيار.

صرخ:

«انتبهي!»

صوته كان جرحاً عميقاً في الهواء، يعلو على كل شيء.

في تلك اللحظة، بدا الزمن وكأن كل جزء منه يتوقف، كانت ثانية واحدة كافية فقط لتغيير المصير.

ثم...

قفز.

عمود خشبي، كان سيتسبب في سقوط الجدران، وفي لحظة واحدة، كان كافيًا لدفنها، لكن سالم كان أسرع من الحظ. أسرع من القدر، الذي يبدو أنه كان يتأهب ليكتب نهايتهم.

لكن بعد تلك اللحظة...

لم يعودا اثنين.

لم يعد هو فقط سالم، ولم تعد هي فقط الدكتورة روان. بل أصبحا معًا ظلين متشابكين، يعكسان صورة واحدة لواقع لا يرحم.

صارا وحشًا واحدًا، تلك الكلمة التي تجسد كل شيء في هذا الوجود الممزق. كان يعرف جيدًا أن هذه الأرض لا ترحم أحدًا. كانت قسوة الحياة هي الحقيقة الوحيدة التي تتكرر في كواييسهم.

سالم أصبح يضطر لحمل الناس على ظهره، على أكتافه المثقلة بالخوف، مثل جبل لا يمكنه أن ينهار مهما هبت العواصف. وهو كان لا يملك خيارًا سوى أن يتحمل، أن يظل واقفًا في وجه الزمن الغادر.

أما هي، فكانت تخطط الجروح بيدين لم تزل تتردد بين الدماء والأمل، في كل مرة تمسك بسكين المطبخ، وكل مرة تمزج الدواء بالقهوة، وكأنها تمنح الحياة فرصة ثانية حتى في أصغر تفاصيلها.

كانا معًا، يسيران على حافة الهاوية، يعلمان جيدًا أن الموت يراقب كل خطوة، لكنهما لم يستسلما. بل كانا معًا، يتخطون الخراب، ويواجهون الألم، في رحلة لا عودة منها سوى إلى أعماق الروح،

حيث لا شيء يبقى إلا الظلال التي تلاحقهم، مثلما كان ظلام المكان يلاحقهم في كل لحظة.

سالم و روان، في تلك اللحظة، لم يكونا أكثر من مجرد خيطين متشابكين في لوحة فوضوية، تعيش إلى الأبد.

حتى الأطفال، الذين لم يعرفوا بعد كيف يكتبون اسمهم، بدأوا يهمسون وراء الجدران المهدمة، وفي الزوايا التي لم تصل إليها العاصفة.

«دكتورة الرمل...»

كانت هذه الكلمات تتسلل عبر الألسنة، في همسات صامتة، مشبعة بالرهبة والاحترام. كأنها أسطورة تُروى في الرياح. كانوا يرون فيها شيئاً مختلفاً عن البقية، تلك التي كانت تُداوي الجراح ليس فقط بالكلمات، بل بالرمل، الذي كان ينساب بين أصابعها كأنها تمنحهم الحياة من بين أنقاض الموت.

ومع بزوغ الفجر، وبعد أن تخلت العاصفة عن قوتها، خرج الناس. خرجوا من الظلام، من بين الرماد والخراب. خرجوا بلا بيوت، بلا نخيل كانت تظللهم، بلا أمل. لكنهم خرجوا. كانوا بحاجة فقط إلى الهواء، إلى شعاع من الضوء يحييهم، حتى وإن كان ذلك الضوء مجرد خيال يتلاشى سريعاً.

حارس الذاكرة، الرجل الذي لطالما نظر إليها بعين الغريب، بعين الشك والريبة، لكنه الآن وقف أمامها، وكانت عينيه مشوشة بين

الحقيقة والخيال. واقترب منها، وكان الهواء ما يزال يحمل رائحة الرمال المحترقة.

أعطاهما قطعة قماش مبللة، غارقة في ملامح الأرض المحترقة.
«أنت... منّا.»

قالها بصوتٍ لم يعتد عليه، كأن الكلمات خرجت منه عنوة، كأنها اعتراف لم يكن في حسابه. لكن هي... كانت تنظر إليه ببعض البرود، وكأن كلمات الشيخ لا تعني شيئاً أمام كل ما مروا به.

لم ترد عليه، لكن يديها كانت تتحرك بثبات. أخذت القماش، ثم وضعته على وجه طفلة صغيرة كانت ترقد على الأرض، في زاوية مظلمة من القرية المدمرة. كانت الطفلة فاقدة الوعي، والجروح تغطي وجهها، لكن الرحمة كانت في يد الدكتورة، كما كانت دائماً.

أما سالم، فقد كان هناك، يقف على أطراف الظل.

دماؤه على الأرض، مزيج بين الزمان والمكان. كان ينزف، ولكن لم يكن ذلك هو ما لفت الانتباه. كان ينظر إلى كل شيء، وداخل عينيه كان يوجد شيء آخر، شيء لم يكن ليُرى إلا في اللحظات التي يعبر فيها الإنسان عن عمق تجاربه.

العاصفة لم تقتلهم.

لكنها كشفت لهم الوحوش الحقيقية.

تلك الوحوش التي لم تكن في هيئة ذئب أو وحوش بشرية، بل كانت هي الحقيقة نفسها. كان الخوف قد بدأ يندمج فيهم، وكان ما كانوا يعتبرونه «العدو» في الماضي أصبح الآن مجرد سراب.

ولكن العاصفة، حتى وإن لم تقتلهم، تركت وراءها نوعاً آخر من
الوحوش...

وحوش من نوعٍ آخر.

وحوش لا تُرى في الظلام، ولا تسمع في الرياح، لكنهم يعيشون في
النفوس، في الأعين المرهقة، في القلوب المكسورة. كان ما بقي بعد
العاصفة هو هذا الوحش:

الوحش الذي أخرجته الألم، الخيانة، والدم الذي أصبح جزءاً من
الهواء.

وفي صمتهم، في تلك اللحظات بين رمال الغبار، أصبحوا جميعاً
عائلات مختلفة. كانت تلك اللحظة هي البداية لما هو أكثر ظلاماً،
ولكنها في ذات الوقت كانت بادرة لأمل لا يستطيع أحد أن يمحوها.

في صباحٍ شاحب، حيث تسلك الضوء بخجلٍ كأنه ذكرى باهتة
لشمسٍ خانها الزمن، وقف سالم بن راشد وسط الساحة المحطّمة،
كمن خرج للتو من حلمٍ ثقيل، أو كابوسٍ لم يزل ينزف في صدره.

كانت الساحة لا تشبه ما عرفه من قبل.

كل شيء فيها بدا كما لو أنه شاهدٌ على جريمة قديمة... جريمة
ارتكبتها الطبيعة، أو ربما الناس أنفسهم.

أشجار النخيل، التي كانت في الماضي تظلّل القصص وتستقبل
الأطفال عند الظهيرة، الآن تمدّ أغصانها نحو السماء كأنها أصابع ميتة،

تبحث عن قطرة رحمة، أو تطلب نهاية أليمة. أوراقها تساقطت كما
تتساقط الوجود عند أول عاصفة.

رائحة التراب الرطب، تلك التي لا تخطئها ذاكرة، لم تكن فقط
نتيجة المطر، بل مزيج من دموع الأرض وآهات الناس، علفت في
الحلق كُسمٍ بطيء، ككأس شاي مُرّ قُدِّم في مجلس عزاء.
أما الشيوخ...

فجلسوا هناك، على كراسٍ مهترئة، لا تكاد تحمل أجسادهم ولا
ذاكراتهم. بدا كل واحدٍ منهم وكأنه تمثال شمعي وُضع لينسى، تذوب
ملامحه تحت وهج زمنٍ قاسٍ، تعبث الريح بعباءاتهم المحترقة كأنها
شرائط من الظلام، تلف أجسادهم وترفرف كما لو كانت أشباح
الحكايات التي لم تُرو.

سالم كان وحده الذي يقف.

لكن عينيه لم تكونا وحيدتين.

كان في نظرتيه سؤالٌ مبللٌ بالندم، وكأنه يبحث في وجوه أولئك
الرجال عن إجابة لخرابٍ لم يكن من صنع يديه، لكنه فرض عليه كما
يفرض الجفاف على نهجٍ وافر.

الآنين لم يكن مسموعاً، لكنه كان في الهواء.

في كل حجرٍ مكسور، في كل جدارٍ مائل، في كل صرخةٍ لم تُطلق
خوفاً من عقاب الجماعة.

حتى الطيور... لم تكن تغني، بل كانت تدور فوق المكان كما تفعل
النسور فوق جسدٍ يعرف أن النهاية تقترب.

سالم، ابن الصحراء وذاكرتها، لم يكن يبحث عن بطلٍ، ولا عن
خلاص.

كان يبحث فقط عن معنى...

عن شيءٍ يمكنه أن يقول له: لم يذهب كل شيء سدى.
ربما في تلك اللحظة، تحت السماء الرمادية التي لم تُرسل شمسها
بعد، أدرك أن النجاة ليست في الهروب، بل في أن تقف، تنظر في عين
الخراب، وتقول له:

«أنا ما زلت هنا.»

انطلق صوته—

ناعماً كحريٍ مسموم،

يحمل شفراتٍ مخفية بين خيوطه،

كأنه لا يعلن رأياً... بل يُطلق حُكماً.

«الدكتورة روان... تنتمي إلينا.»

قالها سالم، بصوت لا يشبه أصوات المؤتمرات، ولا خطب
الساحات،

بل بصوتٍ يخرج من مغارة النفس، حيث لا أحد يسمع إلا الحقيقة.

الكلمات سقطت في ساحة القرية كقطرات ندى على جمرٍ مشتعل.

لم تُطفئ النيران،
لكنها أحدثت هسهسةً غريبة...
صوت يشبه تنفس جبلٍ عجوز،
قبل أن تختفي الكلمات في رثة الصمت،
وتترك خلفها رجفةً بين الشيوخ،
وارتباكًا في العيون التي اعتادت أن ترى النساء ظلًا فقط.
لم يكن سالم يُصارع الصمت...
بل كان يناجيه.
كأنه يحاور الأرض نفسها،
الأرض التي ابتلعت دموع الآباء، وصرخات الأمهات، ووصايا
الموتى.

كان صوته يحمل صدى تربةٍ حزينة،
صدى الريح التي ما عادت تخبر أحدًا بمجيئها،
والغيم الذي يمر ولا يمطر.
ثم...

رفع معصمه،
ومرر إصبعه على ندبةٍ قديمة،
غائرة كأنها نُقشت بسكين، لا بإبرة.
أغمض عينيه.

«أليست البطولة... أن تُعيد الحياة بأظافر عارية؟»
همس، بصوت لا يصل إلا للقلوب المنهكة،
كأنه لا يُخاطبهم... بل يُذكرهم.
في تلك الندبة،
كانت تعيش قصة...
قصة يومٍ جافٍ،
كادت القرية فيه أن تتحوّل إلى قبرٍ جماعي،
يوم خرج وحده إلى البئر الميتة،
فوجد ذئاب الجفاف تنتظر سقوطهم.
لكنهم، أهالي القرية، أنقذوه.
لا بالبنادق، بل بالثقة.
برجالٍ خرجوا حفاةً،
ونساءً بعجنّ الطين بالدموع ليُغلّقوا فم الصدع.
واليوم...
كان الدور عليه.
أن يردّ الدين.
أن يعترف بأن من يُنقذ، يُصبح بدوره منقذاً...
وأن روان، الغريبة في العيون، المنتمية في الفعل،
هي التي نرفت لتُنقذهم،

لا لتُرضي أحداً،
ولا لتحمل اسماً،
بل فقط... لأن الحياة تستحق أن تُقاتل لأجلها.
حارس الذاكرة...
ارتعش كورقة خريفٍ طارت عن غصنها الأخير.
ركبته خائنة،
وصدره يعلو ويهبط كما لو أن صدر الزمن نفسه يحاول أن يتنفس
بعد دفنٍ طويل.
مدّ يده إلى العصا...
لكن العصا، اليوم، لم تكن عموداً،
بل خيانة جديدة... لا تُسند.
فتح فمه ليتكلم،
وحين خرجت الكلمة،
كانت كأنها صوت شبحٍ يتوسّل للبقاء:
«التقاليد...»
لكن الكلمة لم تكتمل.
تعثّرت في حنجرته.
اختنقت...
لا كطفلٍ يُغرقه الحليب،

بل كجندي يرى السكين في صدره ولا يجد من يصلي عليه.
«التقاليد...»

أعادها، كأنّها طلسم مكسور،
لكنها كانت أضعف من أن تواجه الحقيقة التي أمامه:
امرأة، يدين ملطختين بالغبار والدم،
تنزع الحياة من بين أنياب النهاية.
ثم...
سعل.

كأن الرمال تسكن حلقه،
كأن كل شيء فيه يرفض الاعتراف،
لكنه يعرف...
أن الرمال لا تسامح.
و حين تخترق العين،
تصبح كل محاولة للرؤية... عقابًا.
كل من حوله انتظر الكلمة التالية،
لكنها لم تأتِ.
كان هناك صمتٌ أثقل من أي تقليد.
صمتٌ يقول لهم ما لا يريدون سماعه:
أن الزمن تغير.

وأن هذه الأرض، وإن حفظت أسمائهم،
فلن تحفظ كبرياءهم إن عاندوا النبض الجديد.

«التقاليد!»

قالها سالم، وضحك...

ضحكةً مجروحة، ضحكة لم تخرج من فم بل من جرحٍ قديم نسي
صاحبه مكانه.

ضحكة جوفاء،

كالريح التي تمر فوق مقبرة لا أحد يزورها.
ثم أشار بيده المرتجفة نحو أنقاض المدرسة.

ذلك المكان الذي كان، في يومٍ ما،

يحتضن ضحكات،

ويحفظ الأحلام الصغيرة في دفاتر مشقوقة.

«هل تسمعونهم؟»

صوته انكسر فجأة،

لكن لم يسقط.

بل توغل، كخنجر في ذاكرة.

«إنهم هناك، تحت الركام...

يصرخون،

يطلبون قصصًا جديدة.

قصصًا لا تبدأ بكلمة حرام،

ولا تنتهي بالجلد والنار.»

سكت،

ثم نظر إلى رماد الطباشير،

الذي كان ذات يومٍ لوناً على السبورة،

والآن صار ترابًا أبيض يغطي الموت.

عينا سالم...

كانتا مثل جرحين مفتوحين على السماء،

وفي انعكاسهما،

رأى الجميع ما لم يُرد أحد أن يراه:

الخراب الحقيقي لم يكن في الجدران...

بل في القلوب التي آمنت أن «التقليد» أهم من الحياة.

ثم...

تحركت خلف أحد الأعمدة المائلة يدٌ صغيرة.

طفلة،

بخوف العالم في عينيها،

تختبئ خلف أمها،

تحضن دمية صنعتها روان من بقايا معطفها الأبيض -

ذاك المعطف الذي صار رايةً لثورة الصمت.

الدمية كانت مائلة، ممزقة،
لكن الطفلة ضمّتها ككنز.
كأنها تقول للعالم:
«أنا لم أمت.
وإن خافت أُمي من الكلام...
فاللعبتي ستحكي عن يومٍ جاء فيه الحب على هيئة دكتورة.»
سالم تقدّم خطوة...
ووقف أمام الطفلة.
ثم انحنى،
ولمس الدمية بأطراف أصابعه كما لو كانت كتابًا مقدّسًا،
وقال:
«من هنا تبدأ التقاليد الجديدة...
من الخيط الذي خاطته يد تعرف معنى الدمع،
من قصة لا تُروى في المجالس،
بل تُولد بين الرماد.»
كانت الشمس قد بدأت ترحف من خلف الغبار،
تجرّ أشعتها كما تجرّ الأرملة ثوبها في جنازة،
لكنها رغم التعب... جاءت.
نورها لا يدفع،

لكن يكشف.

الطفلة...

رفعت دميّتها ببطء.

كأنها ترفع راية.

وفي تلك اللحظة...

تجمّد كل شيء.

الرجال الذين كانوا يطالبون بالعقاب...

سكتوا.

النساء اللواتي تعودن الانحناء...

أوقفن أنفاسهن.

حتى الريح، تلك الريح الصحراوية التي لا تخجل من الصفع،

وقفت كأنها تنتظر القرار.

ثم قالت الطفلة، بصوتٍ لا يكفي ليهزّ جدارًا،

لكن يكفي ليوقظ قلبًا:

«اللعبة بتحكي عن يوم...

كانت فيه الدكتورة تحبنا.»

كلمة «تحبنا»

لم تكن كلمة.

كانت سكينًا نزع الغبار عن مرآة الحقيقة.

القرية... ما كانت بحاجة لقائد،

بل لحضن.

حارس الذاكرة...

تراجع خطوة.

وجهه الشاحب صار ظلًا لحائط آيل للسقوط.

أما سالم،

فكان يقف كمن رأى ولادة المعجزة،

وهمس بصوتٍ لم يُسمعه لأحد:

«هذا هو العهد الجديد...

لا يُكتب في الكتب،

بل يُخاط في صدور من عرفوا أن الألم ليس قدرًا...

بل امتحانًا.»

الناس بدأوا يتجمعون،

واحدًا بعد الآخر،

ينظرون إلى الدمية،

لا كشيء...

بل كرسالة.

رمزٌ لامرأة جاءت من الغربية،

لكنها علّمتهم أن الانتماء ليس في الدم،

بل في الفعل.

ثم، من بين الجموع، تقدّمت فتاةٌ صغيرةٌ أخرى،
وهمست للطفلة الأولى:

«سميتها؟»

ردّت وهي تضمها من جديد:

«آه... اسمها روان.»

وساد الصمت...

لكنّه لم يكن صمت الخوف،

بل صمت الولادة.

من بين الحشد، انبعث صوتٌ كخيطةٍ حريرٍ انقطع فجأةً، صوتٌ لا
يعرف الصراخ بل يعرف كيف يخترق:

«هي... غسلت عارنا بدمها.»

كانت أم فهد هي من قالتها.

امرأة لم تكن تصرخ، بل تنطق كمن يلفظ وصية،

وجهاً مجعّد كجلد صبارٍ ضربته كل فصول الجفاف،

وعيناها؟

خريطةٌ محفورة بالألم،

بكل طفلٍ لم يرجع،

وكل زوجٍ دفنته بيدٍ واحدة لأن الثانية كانت تحتضن ولدها الوحيد.

تقدّمت .

جلباها الأسود، الممزق عند الأطراف،

كان يجرّ خلفه تاريخاً من الخسارات .

لكنها لم تكن تنحني .

كانت تمشي بثقل جبل يعرف أنه سينهار...

لكن بعد أن يقول كلمته .

رفعت قطعة قماش...

لم تكن جلباباً كاملاً .

الموت، على ما يبدو، اكتفى بنصفه، وترك النصف الآخر شاهداً .

عليه بقع دم جافة،

لكنها لم تكن مجرد بقع .

كانت كلمات...

رسائل مشقّرة...

نقوشاً مقدسة كتبت على جلد الألم .

قالت:

«دم روان... مو بس فدا .

دمها... إعلان .

إنه من اليوم، ما في أحد ينهض وهو ينظر للمرأة كظل .

هي كانت النور...»

شهق الناس .

لم يكن شهقهم من الحزن،

بل من الاعتراف .

ذلك الاعتراف الذي يأتي متأخرًا ... لكنه يُشبه الخلاص .

الرجال الذين لطالما ظنوا أن الحديث بصوت عالٍ هو شجاعة،
سكتوا .

النساء اللواتي اختزلن في أدوار العطاء الصامت،

رفعن رؤوسهن .

حتى حارس الذاكرة ...

من خلف الظلال،

أغمض عينيه ...

كأنَّ الحقيقة لسعت روحه .

وفي العيون دمعة ...

لكن ليست دمعة وجع،

بل بداية غفران .

ارتجف الجمع كقلبٍ يُخترق بسهم .

كان في الهواء ما لا يمكن رؤيته ...

لكن يمكن الشعور به في العظام،

كهمسةٍ من ماضيٍ خجل، تطرق الأبواب دون أن تنتظر إذنًا بالدخول .

شبابٌ،

أولئك الذين كانت أعينهم مشتتة بالحق قبل أسبوع فقط،
أولئك الذين ظنّوا أن القوّة في كسر الأشياء،
أصبحوا الآن يضربون الأرض بأقدامهم...
لكن ليس غضبًا.

بل كأنهم يُنقّبون عن جذورهم تحت التراب.
إيقاعٌ قديم بدأ يتصاعد...
لم يكن إيقاع الحرب،
بل ذاك الذي كان يُغنّي يوم كانت القلوب تعرف طريقها دون
خرائط،

يوم كان الحب خبزًا يُقسم على العتبات.
ضربات الأقدام بدأت تتحد،
تتحول إلى نبضٍ جماعي،
نبضٌ يشبه ولادة مدينة... من رماد.
وفي الزاوية...

روان.

الدكتورة.

الغريبة التي لم تعد غريبة.
كانت تجثو على ركبتها،

يذاها الملطّختان بالدم لا تعرفان الارتجاف،
تمسح جرح صبي صغير كأنها تزرع وردة في خاصرة جبل.
السكين التي استخدمتها قبل دقائق لفتح الجلد المتورم،
وضعتها بجانبها... كأنها تقول للأرض: «كفى»
وتوقّف الدم.

كأن الأرض نفسها رفضت أن تُجرّح أكثر،
كأنها أخيرًا، بعد كل تلك القرون،
قررت أن تضمّ أبناءها... بدلًا من أن تبتلعهم.
صمتٌ انبثق من الحشد.

ليس خوفًا.

بل احترامًا.

كانوا يشاهدون... لحظةً تُكتب بلا حبر.
لحظةٌ نادرة،

حين يتوقّف التاريخ ليأخذ نفسًا.
وفي تلك اللحظة...

لم تكن روان تُنقذ جسدًا فقط،
بل كانت تُخيّط ما تمزّق في أرواحهم منذ زمن بعيد.
ثم... كأن الصمت ذاته تنفّس.
ارتفع صوت من بين الحشود.

لم يكن عاليًا، ولا مدرّبًا على الخطابة،
بل مكسورًا، كعودٍ قديم أرهقته الأوتار.
«كفى.»

قالها شاب كان من أوائل من حملوا الحجارة،
لا ليرمم، بل ليهدم.
«كفانا خراب... كفانا خوف.»

تقدّم خطوة، خطواته ثقيلة كمن يجرّ تابوتًا،
لكنه لم يتراجع.

التفت إلى حارس الذاكرة، ثم إلى سالم،
وأخيرًا إلى روان،

وقال وهو ينزع من رقبته خرزة زرقاء قديمة:

«أنا ما عدت أوّمن بالخرافة... بس أوّمن بها.»

وأشار إلى روان التي كانت ما تزال منحنية على الطفل.

دمعة سقطت من عينه،

ليست بسبب الألم،

بل لأنّه للمرة الأولى رأى أحدًا يُداوي دون أن يسأل عن الاسم أو

العشيرة.

ثم انفتح الحشد.

امرأة مسنّة دفعت حفيدها نحو روان.

رجلٌ أعاد بندقيته إلى كتفه، وركع ليساعد في تنظيف الساحة.
طفلة وضعت دميّتها الممزقة في حجر روان، وقالت بخجل:
«هي بعدها تحتاج دواء.»
سالم، واقفٌ بينهم، شعر أنه لا يحمل القرية على كتفيه بعد الآن،
بل يمشي بها.
هي لم تعد مجرد أرض،
بل جرحٌ يتعلم كيف يلتئم.
اقترب من روان، مدّ يده ليساعدها على الوقوف.
دماؤه التي كانت على تراب الأرض،
صارت مثل خطّ توقيعٍ على بداية عهدٍ جديد.
وروان...
نظرت إلى الوجوه.
العدوّ صار جارًا،
والمتهمون صاروا شهودًا على قيامةٍ صغيرة.
قالت، بصوتٍ منهك لكنه واثق:
«الحب ما يوقف الموت...»
بس يخليه يخجل.
وفي تلك اللحظة،
تسلّل خيط من الضوء عبر الغبار،

شاحبٌ لكنه نقي،
كما لو أن الشمس نفسها كانت تُطلّ لتتأكد
أن هذه المرة...
لن تكون النهاية.
منذ تلك اللحظة، بدأت القرية تتنفس بطريقة مختلفة.
ليس كمن نجا من الموت، بل كمن قبّله، ثم اختار الحياة رغم كل
شيء.

الجدران، التي كانت بالأمس تصرخ شقوفاً،
بدأت تُرمّم،
لا بالإسمنت فقط،
بل باليد التي كانت تلوّح بالخوف، وصارت تطرق مسماراً بثقة.
الناس... تغيروا.

لم يعودوا يرفعون أصواتهم في المساء،
بل يرفعون الأغشية على من لا يملك سقفاً.
حتى الأطفال،

صاروا يلعبون بأدوات الإسعاف القديمة،
ويخترعون لعبة جديدة اسمها:

«روان تُنقذ العالم.»

المئذنة المكسورة؟

لم تُعد كما كانت.
بل نُصبت فوقها قطعة من الخشب المحترق،
على شكل يدٍ تلوّح،
وكانها تقول:
«هنا... قامت ثانية قرية كانت تموت.»
أما السوق،
فلم يُفتح بالبضاعة،
بل بالحكايات.
كل من دخل، عليه أن يحكي قصة نجاة،
أو أن يسمع واحدة.
وسالم،
الذي كان ذات يوم يتقن شدّ الحبال،
أصبح خبيراً في فكّ العقد.
يقف مع الشيوخ تحت ظلّ نخلة نبتت فجأة...
نبتت في مكانٍ لم يكن فيه إلا الرماد.
قالوا إنها معجزة.
قال هو:
«بل أثّر لرطوبة البكاء الصادق.»
وروان؟

لم تبين عيادة،

بل فتحت خيمة من قماشٍ خفيف،

لكنها كانت أثبت من كل الجدران.

فيها دواء،

وفيه امرأة صغيرة لا ترى فيها الوجوه،

بل ترى ما بقي من النور خلف التعب.

وفي صباحٍ جديد،

حيث الشمس أخيرًا ظهرت بلا خوف،

وقف سالم أمام لوحة كتبها أطفال القرية:

«الندبة... أجمل من الجدار.»

ابتسم،

ثم سار في الطريق التي ما عادت تؤدي إلى الموت،

بل تقود إلى ما بعده.

لكن الولادة الجديدة... لم تكن وعدًا بالنجاة، بل اختبارًا آخر.

في الليلة السابعة،

جاء صوتٌ لا يُشبه العواصف...

بل أهدأ منها،

أشدّ من صمتها.

«من أنتم... حتى تعيدوا رسم الحكاية؟»

جاء الصوت من جهة الشرق،
من وراء التلال التي قيل إنها ابتلعت الجنود يوماً،
وصمتت إلى الأبد.

لكنه لم يكن صوت جن،
بل بشرٌ يحملون رايات بيضاء،
لكن أعينهم لا تعرف البياض.
دخلوا القرية دون سلاح،

لكن بكلماتٍ... كانت أشد من الرصاص.
«سنساعدكم... فقط دعونا نُرتب الفوضى.»
حارس الذاكرة، الذي بالكاد استعاد صوته، قال:
«الفوضى هذه... أنقذتنا من الموت البطيء.»

لكن النفوس المرهقة،
تتوق أحياناً لظل النظام، حتى لو كان سيئاً.

المساعدات انهالت،
لكن معها جاءت الكاميرات،

والتصريحات،
والشروط.

روان؟

رفضت أن تسجّل أسماء الأمهات في قوائم «الاستحقاق».

قالت وهي تمرر يدها على جبين رضيعٍ نحيل:
«الحاجة لا تُقاس بالورق.»

وسالم؟

صار يقف كل صباح على التل،
يراقب الشاحنات التي تدخل،
ويعدها،

كمن يحصي دقائق قلبٍ ليس متأكدًا إن كان له.
القرية،

التي ولدت من الرماد،
بدأت من جديد تتشقق...
لكن لا بفعل العاصفة،

بل بسبب الأصابع التي تدّعي الترميم.
الأطفال الذين رسموا لوحة الندبة،
صاروا يرونها تُمسح...

تُطمس بلونٍ رمادي اسمه: «الرعاية الدولية».
ووسط كل هذا،

وقف صوتٌ صغير،

من طفلة تحمل دمية روان المصنوعة من خرق المعطف،
تقول:

«أعيدوا لنا الرمل... كان يؤلم، لكن ما كان يكذب.»

أخرج حارس الذاكرة مسبحته العتيقة من جيبه الداخلي، حيث كان يخفي دائماً أشياء صغيرة لا يجروُ الزمن على سرقتهـا—قصاصات من ماضي لم يُروَ كاملاً بعد، أوراقاً مطوية في قلبه أكثر مما هي في جيوبه. كانت المسبحة ذات خرزٍ من العنبر، داكن كليلٍ قديم، وكل حبة منها تحمل أثراً للذكرى، لندم، أو وعدٍ منسيٍّ.

انفردت المسبحة فجأة من بين أصابعه، وتدحرجت حباتها على أرض الغرفة الصامتة، فأحدثت صوتاً غريباً—كدقات ساعةٍ جنازبة، أو كنبض قلبٍ يحتضر في لحظة كشف. لم يتحرك. عيناه، الغارقتان في سُحب تأملٍ ثقيل، تابعتا الخرز وهو يتناثر، كما لو كان يرى أشلاء عمره تتناثر أمامه.

اقترب بخطى بطيئة من إحدى الحبات، ثم همس بصوتٍ بالكاد تسمعه الريح التي تسلفت من نافذة مفتوحة:

«لتكن... لكن احذر أن تُصبح قصتها... قصتك.»

كان صوته كأنه صادر من أعماق بئرٍ قديمة، مطمورة بالأسرار والخسارات، لا يُخرج منها إلا من يعرف الثمن. وفي تلك اللحظة، بدا ظله الطويل منحنيّاً على الحائط، لا كظل شيخ، بل كطيف رجلٍ يعرف يقيناً أن العرش الذي بناه... لم يكن سوى على رمالٍ بلّلتها الندم، ونقشتها خطوات الراحلين.

أدار وجهه ببطء، وبعينٍ تختزن عصوراً من التريث والصمت، نظر

إليه وكأنه يسلمه مفتاح بابٍ لا يُفتح إلا مرّة واحدة... ثم ساد السكون،
إلا من وقع قلبٌ بدأ يدق بطريقة مختلفة.

اقتربتُ من حَبّات المسبحة المتناثرة على الأرض، محاولاً أن أفهم... شيئاً، أيّ شيء. كنت أظن أنني جئت إليه بحثاً عن إجابة، لكنه منحني لغزاً آخر. لم تكن كلماته تهديداً، بل أشبه بلعنة تُقال مرة واحدة في العمر... أو نبوءة تُصادف من يجرؤ على الوقوف على عتبة الحكايات القديمة.

نظرتُ إلى الأرض، إلى تلك الحبات الصغيرة التي بدت فجأة كنجوم سقطت من السماء، لا لشيء إلا لتنذر بحريقٍ قادم.
قلت له بصوت خافت:

«قصتها؟ من هي؟»

لم يجب. كان يُحدق في نافذة الغرفة المفتوحة، حيث أخذ النسيم يتحرك كما لو أنه يحمل رسائل غبارٍ من زمن آخر. ثم، دون أن يلتفت إليّ، قال:

«كل من يلمس الحقيقة، يُصاب بالدوار. لكن من يسكنها...
يضيع.»

اقتربت منه خطوة. كنت أريد أن أفهم، كنت بحاجة لأن أعرف لمن كان يشير، ومن تلك التي تُهددني قصتها. لكنه لم يكن ينظر إليّ، بل إلى شيء لا أراه، إلى جدارٍ لا تحمله الطوب بل الذكرى، وإلى رائحةٍ لا تشبه إلا أحلاماً احترقت.

ثم، بصوتٍ أكثر وهناً، كمن يروي آخر سطرٍ في كتابٍ محظور، قال:
«إنها لم تكن امرأة فقط... كانت مرآة. ومن ينظر في المرأة طويلاً... إما
أن يرى ذاته، أو يرى نهايته.»

في تلك اللحظة، ساد صمتٌ ثقيل، وكأن الهواء قرر أن يُغادر الغرفة.
شعرت بشيءٍ ينهض في صدري، ليس خوفاً تاماً، ولا شجاعة. شيء
أشبه بالتيه، كمن يقف على مفترق بين حياة لم تبدأ بعد، وذاكرة لم تعد
تنام.

أردت أن أصرخ:

«من هي؟!»

لكن صوتي اختنق في حلقي.

أما هو، فقد بدأ يجمع حَبّات المسبحة بصمت، واحدة تلو الأخرى،
وكأنها أسماء الشهداء. وعندما التقط آخر حَبّة، نظر إليّ أخيراً، وقال
بابتسامةٍ شاحبة:

«حين تبدأ الحكاية... لا تُعدّ كما كنت. فهل أنت مستعد؟»

اقتربتُ من حَبّات المسبحة المتناثرة على الأرض، محاولاً أن
أفهم... شيئاً، أيّ شيء. كنت أظن أنني جئت إليه بحثاً عن إجابة،
لكنه منحني لغزاً آخر. لم تكن كلماته تهديداً، بل أشبه بلعنة تُقال مرة
واحدة في العمر... أو نبوءة تُصادف من يجروُ على الوقوف على عتبة
الحكايات القديمة.

نظرتُ إلى الأرض، إلى تلك الحبات الصغيرة التي بدت فجأة
كنجوم سقطت من السماء، لا لشيء إلا لتنذر بحريقٍ قادم.

قلت له بصوت خافت:

«قصتها؟ من هي؟»

لم يجب. كان يُحرق في نافذة الغرفة المفتوحة، حيث أخذ النسيم
يتحرك كما لو أنه يحمل رسائل غبارٍ من زمنٍ آخر. ثم، دون أن يلتفت
إلي، قال:

«كل من يلمس الحقيقة، يُصاب بالدوار. لكن من يسكنها...
يضيع.»

اقتربت منه خطوة. كنت أريد أن أفهم، كنت بحاجة لأن أعرف لمن
كان يشير، ومن تلك التي تُهددني قصتها. لكنه لم يكن ينظر إليّ، بل إلى
شيءٍ لا أراه، إلى جدارٍ لا تحمله الطوب بل الذكرى، وإلى رائحةٍ لا
تشبه إلا أحلامًا احترقت.

ثم، بصوتٍ أكثر وهناً، كمن يروي آخر سطرٍ في كتابٍ محظور، قال:
«إنها لم تكن امرأة فقط... كانت مرآة. ومن ينظر في المرآة طويلاً... إما
أن يرى ذاته، أو يرى نهايته.»

في تلك اللحظة، ساد صمتٌ ثقيل، وكأن الهواء قرر أن يُغادر الغرفة.
شعرت بشيءٍ ينهض في صدري، ليس خوفاً تماماً، ولا شجاعة. شيء
أشبه بالتيه، كمن يقف على مفترق بين حياةٍ لم تبدأ بعد، وذاكرةٍ لم تعد
تنام.

أردت أن أصرخ:

«من هي؟!»

لكن صوتي اختنق في حلقي.

أما هو، فقد بدأ يجمع حَبّات المسبحة بصمت، واحدة تلو الأخرى، وكأنها أسماء الشهداء. وعندما التقط آخر حَبّة، نظر إليّ أخيراً، وقال بابتسامةٍ شاحبة:

«حين تبدأ الحكاية... لا تُعدّ كما كنت. فهل أنت مستعد؟»

قبل ثلاثين عاماً - في قرية نائية عند تخوم الصحراء]

كانت الرياح تلك الليلة تنفث في الأبواب المغلقة كأنها تبحث عن ثغرةٍ لتروي سِرّاً دفن منذ أجيال. القرية غارقة في سكونٍ رمادي، لا تُضيئها إلا مصابيح كيروسين متعبة، تُلقي بظلالٍ مرتجفة على الجدران الطينية.

في أقصى أطراف القرية، عند بيتٍ صغير مائل الجدران، جلست امرأة شابة ترتدي ثوباً أسود طويلاً، يلتف حولها كما يلتف الليل حول الحكايات المنسية. كانت تُدعى نورا... أو على الأقل، هذا ما كانت تُخبر به من يسأل. لم يعرف أحد من أين جاءت، ولا متى نزلت بين البيوت المتباعدة، لكنها ومنذ لحظة حضورها، بدأ الناس يشعرون أن شيئاً ما تغير.

يقول العجائز إن الهواء تغير رائحته، وإن الكلاب باتت تعوي دون سبب، وإن الأطفال يفيقون من نومهم على كوايس تتكرر فيها نفس

العيون: سوداء، ساكنة، تبتسم دون شفيتين.

نورا لم تكن تبتسم كثيرًا. كانت تمشي دائمًا حافية القدمين، وعيناها كأنهما تطلان من نافذتين على عالمٍ آخر. وكانت تكتب. على الأوراق، على الجدران، حتى على جلدها أحيانًا. رموز غريبة، كلمات لا تُقرأ، لكنها تترك أثرًا لا يُمحى.

في إحدى الليالي، زارها حارس الذاكرة، وكان شابًا يومها، ذالحية خفيفة وعينين تبحثان عن حكمة في كل ما هو غريب. دخل منزلها دون أن يُطرق الباب، فقد قيل له إن من يدخل بيت «نورا» لا يُستأذن، بل يُختار.

وجدتها تجلس القرفصاء أمام مرآة كبيرة، أقدم من أن تعكس مجرد وجوه. كانت المرأة مغطاة بنقوش دقيقة، كأنها تُعلق على أسرارٍ لا يجب أن تُفتح.

قال لها بهدوء:

«أبحث عن المعرفة.»

لم تلتفت. بل وضعت إصبعًا على المرأة، فاهتز زجاجها كما لو كان سطح ماء، وظهرت صورةً باهتة لرجل، يشبهه.

قالت بصوتٍ ساكن:

«المعرفة... تعمي. أنت لا تريد أن ترى، أنت تريد أن تملك.»

أجابه:

«أريد أن أفهم.»

ابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم همست:

«ستفهم... بعد أن تخسر.»

في تلك اللحظة، انكسر شيء ما في المرأة. خيط دقيق، لم يره سواهما، بدأ يشق الزجاج مثل شرخ في الحقيقة نفسها.

وفي تلك الليلة، غابت نورا. اختفت كما جاءت. لم يودّعها أحد. لم يرها أحد. ولم يجروا أحد على دخول بيتها، الذي بقي مغلقاً، تترام عليه الرمال كأنها تحاول دفنه، أو كتم أنفاسه.

لكن حارس الذاكرة... لم يعد كما كان.

سالم لم يُجب.

كأن اللغة تخلّت عنه في تلك اللحظة، أو كأنه خشي إن قال كلمة، أن تُفتح بوابة لا تُغلق أبداً.

اكتفى بالنظر نحو الأفق، حيث كانت الدكتورة روان تقف، وحيدة كطيف، تحت شمسٍ بدا أنها تُشرق على العالم كله... ما عداها.

الشمس، تلك التي تُنبِت وتُحرق في آنٍ واحد، كانت تلامسها بحذر، كما لو أنها تدرك أن هذه المرأة ليست كسائر النساء، بل كائنٌ مشبّع بالأسرار، لا تنكشف إلا لمن يضيع فيها.

ظلها، الطويل، الهش، المائل قليلاً كأن الريح قد لمستّه بوجل، تداخل مع ظل نخلة ميتة تقف على حافة الساحة، لا تثمر، لا تُنذر، فقط تراقب بصمت النهايات التي تُولد قبل الأوان.

كان المشهد كله أشبه بلوحة رسمتها يد خفية، تحاول أن تُخبر من يرى أن الحياة، رغم عناد الموت، تُصرّ أن تنبت من أكثر الأماكن ييسًا وخرابًا.

عندما بدأ الحشد يتفرق، ببطء يشبه انسحاب موجة من شاطئ مهجور، التفت سالم دون وعي إلى أسفل العتبة.

وهناك، بين الشقوق التي حفرتها الأقدام والسنوات والإهمال، نبتت زهرة صفراء.

كانت صغيرة، ضعيفة، لكنها واقفة بعناد لا يشبه سوى أولئك الذين اختاروا أن يُولدوا في المكان الخطأ ليصنعوا الصواب.

لم تكن مجرد نبتة...

كانت رسالة.

رسالة لا تحمل حروفًا، بل ذكرى.

تلك الزهرة تشبه عطر الدكتورة روان حين تخرج من غرفة العمليات، متعبة، مُنهكة، ولكنها تفوح برائحة زيت زيتون وزعتر بري، مزيج لا يُنسى. مزيج يُربك القلب، ويوقظ فيه قرى قديمة، وصباحات كانت تُحاك فيها القصص على رائحة الإفطار.

مرّت أم فهد بجانبه، بثوبها الأسود، وحجابها المُطرز بذكريات لم تبته.

وفي اللحظة التي اجتازته فيها، تركت في الهواء خيطًا شفافًا من الرائحة نفسها—زعتر بري، زيت زيتون، ودعاء صامت لا يُقال لكنه يُشعر به.

تسارعت أنفاس سالم للحظة.
شعر أن الزمن، ولو لثوانٍ، انكمش على نفسه، وفتح له نافذةً صغيرة
تطل على ما لم يُعش بعد.
كان كل شيء ساكنًا، ومع ذلك... كل شيء يتحرك.
لماذا تشبه روان رائحة أم فهد؟
ولماذا نبتت الزهرة الآن؟
ولماذا ظلال الموتى تتعانق مع الواقفين... تحت الشمس؟
أحس أن العالم أمامه لم يعد كما هو.
وأنه، دون أن يدرك، على وشك الدخول في قصةٍ لم يطلبها... لكنها
كانت تنتظره منذ زمن بعيد.
لكن في عمق الصحراء، هناك حيث تتكوّن الأسرار كما يتكوّن
الرمل، وحيث تبدأ الحكايات ولا تنتهي إلا في صدور الراحلين، كانت
سحابة سوداء تُقلب صفحات الريح...
سحابة لا تحمل مطرًا، بل ذاكرة.
كأنها عينٌ وُلدت حديثًا، لم تتعلم البكاء بعد، لكنها وُجدت فقط
لتراقب... وتدين.
في تلك الليلة، لم يكن القمر حاضرًا.
السماء خلت من الرحمة، واستبدلتها ببطانية من ظلمة حالكة لا
يقطعها سوى بريق نجوم بعيدة، متفرقة، توحى بأن الكون نفسه قد
ثُقب عباءته.

كل ثقب منها نافذة... يطل منها كائنٌ لا يُسمى، يُراقب.
كان سالم يعرف أن هذه الليلة ليست ككل الليالي.
الهواء كان ساكناً أولاً، ثم انفجر دفعة واحدة كأن أحدهم فتح عليه
باباً مغلقاً منذ قرون.

وقف سالم عند حافة البئر.
بئر ليست للماء... بل للذاكرة.
البئر نفسها التي ابتلعت ذات زمنٍ أحد أجداده دون أن تُرجع منه
سوى المسبحة التي سقطت من يده، وخرجت بعدها من فم الرمال
كتعويذة مرفوضة.

هو الآن يقف عند الحافة،
الريح تلفّ جسده، تلسع جلده، وتُحرك أطراف عباة كأنها
تستدعي منه شيئاً... شيئاً لم يُعطه بعد.
الرياح الحارقة كانت تهمس، لكن الهمسات لم تكن فارغة.
كانت مشحونة بأصوات...

أصوات أجداده، رجالٍ ونساء، أطفالٍ ومرضى، فرسانٍ وشهداء،
كلّهم يهمسون إليه بكلمات لا يفهمها... لكنه يشعر بثقلها في عموده
الفقري.

كان شعره يتطاير بعنف،
لكنه لم يشعر بالبرد.

الشعور الوحيد الذي سيطر عليه هو ذلك الذي يشبه انتظار الصاعقة.

في يمينه، الخنجر العائلي،

يومض في الليل بزمردته السوداء، كعين شيطانٍ يُفتن بما يرى.

خنجرٌ نُقش على مقبضه شعرٌ قديم:

«من خان الأرض، خان دمه.»

وفي يسراه، القلادة النحاسية التي لم يلبسها أحد قبله.

قلادة بسيطة، فيها بصمة إصبع محفورة بدقة، بصمة لا تُشبه إلا

إصبع الدكتوراة روان.

ليست هدية.

بل أثر.

أثر لمسة وضعتها على صدر طفلة الصغيرة، تلك الليلة حين توقف

قلبها لثوانٍ، ثم عاد، كأنما يدها كانت مأوى الروح الهاربة.

تأمل القلادة طويلاً.

لم تكن مجرد تذكار.

كانت عهداً.

أن بينه وبين تلك المرأة رباطاً لا تراه العيون... ولا يفهمه العقل.

قال لنفسه، وصوته بالكاد يُسمع من فرط الريح:

«القدر لا يربطنا... هو يحاصرنا.»

ثم ألقى بنظره إلى جوف البئر.

كان الظلام عميقًا.

لكنه لمح شيئًا يتوهج في القاع—كأن هناك عينًا مفتوحة... تنتظر.

في تلك اللحظة، سمع الخطوة.

خطوة واحدة... خلفه.

تجمّد.

لم يلتفت.

لم يكن بحاجة.

لأن القلب، حين يتذكّر روحًا بعينها... لا يخطئ.

كانت روان.

لم تكن الريح قد هدأت بعد.

لكن عندما تقدّمت روان خطوتين، بدا أن الهواء نفسه تراجع، كأنه

احترم وجودها... أو خافه.

وقفت خلف سالم، قريبة بما يكفي ليشعر بحرارة أنفاسها،

وبعيدة بما يكفي ليبقى شيء ما معلقًا...

كسؤالٍ لم يُسأل،

أو قرارٍ لم يُتخذ بعد.

قالت بصوت منخفض، كأنها تحاور الصحراء لا الرجل أمامها:

«كلنا وقفنا هنا ذات ليلة، وظننا أننا نملك الخيار... لكن الحقيقة؟

نحن من جئنا لنسلم.»

لم يلتفت إليها سالم، لكن صوته خرج أخيرًا:
«وما الذي عليّ أن أسلمه؟ حياتي؟ أم وهم النجاة؟»
اقتربت خطوة أخرى، ووضعت يدها برفق على كتفه.
كانت يدها دافئة بشكل لا يُصدق.
كأنها لا تنتمي لليلة كهذه.
«ليس حياتك يا سالم... بل إرثك. أنت لا تعرفه بعد، لكنك تحمله
في دمك، في هذا الخنجر، وفي نظرة ابتتك حين تخاف من الظلام.»
سكتت قليلاً، ثم أضافت:
«وهذه القلادة... ليست مجرد أثر. إنها الختم.»
التفت إليها أخيراً، وعيناه فيهما شيء لم يكن موجوداً قبل لحظات...
ربما يقظة.
ربما رعب.
«ختم ماذا؟»
قالت بصوتٍ فيه خشوعٌ من يعرف الأسرار ولكنه يُدرك ثقلها:
«ختم العهد الأخير بين العلم والدم. بين من يحاولون أن يشرحوا
العالم... ومن يعرفون أنه لا يُشرح، بل يُحرس.»
ثم مدت يدها، كأنها تستأذن لاستعادة القلادة.
لكنه لم يُسلمها.
بل قال:

«هذه أنقذت ابنتي... وأنا الآن أحتاج أن أعرف ما الذي كانت
تحميه.»

ابتسمت روان، لكنها لم تكن ابتسامة راحة.
بل ابتسامة من يعرف أن الأجوبة تفتح أبوابًا... لا تُغلق.
قالت:

«إذًا، تعال. لكن اعلم... حين ننزل إلى البئر، لا نصعد كما كنا.»
فهم المعنى.

لم تكن تتحدث عن البئر فقط.

بل عن الطريق.

عن الحكاية.

أومأ.

ومعها، بدأ النزول.

حيث تنتظر الحقيقة...

في قاعٍ لا قاع له.

قبل سبعة قرون،

في الواحة التي اختفت من الخرائط، واحتفظت بها الرمال كأنها سرٌّ
لا يحق للعالم أن يراه، اجتمع خمسة رجالٍ وامرأة واحدة.

كانوا من قبائل متناحرة، لكنهم التقوا تلك الليلة لأن شيئًا ما كان
ينهار في السماء... مذنبٌ حرق ظلمة الليل، وترك أثرًا أخضر يشبه
جرحًا في كف الغيب.

كانوا جميعًا يعلمون أن شيئًا غير طبيعي سيحدث.
المرأة كانت تُدعى هُديل.
وكانت «عرافة العلم» كما يُطلق عليها في خفية.
عالمة نبات، قابلة، راصدة للكواكب، تعرف أن لغة الكون لا تُكتب
بالحبر... بل بالألم.
جلست في المنتصف، وأمامها صندوقٌ من نحاس منقوش عليه
رموز قديمة لا تُعرف أصولها.
رموز نصفها علمي، نصفها طلسمي.
قالت، بصوت من يعرف أنه يُلقي الوصية لا الكلام:
«العالم يوشك أن ينقلب. لن تبقى الأرض كما نعرفها. الماء سيتغير.
الدم سيتكلم. والسماء لن تفتح إلا لمن يحمل السرّ في جسده.»
سألها رجلٌ من الحضور، صوته يحمل غطرسة السيوف:
«وما الذي نفعله نحن؟ أطباء؟ سحرة؟ فلاسفة؟»
نظرت إليه كأنها ترى موته قبل أن يحدث، ثم قالت:
«أنتم السبعة... ستنتقلون المعرفة. كل واحد منكم يحمل خيطًا من
النسيج الأكبر.
لكن هناك شرط واحد:
أن لا تُمنح القوة إلا لمن يجمع بين العلم والدم.»
سأل آخر، أكثر حكمة:
«وكيف نعرفه؟ من هو حامل هذا الدم؟»

فتحت الصندوق.

كان فيه قلادة وخنجر.

قالت:

«القلادة تحفظ الأثر، والخنجر يختبر النية. ومن يجمع بينهما...

يُفتح له الباب.»

ثم أكملت، وعيناها على السماء:

«لكن احذروا...

فمن يجمع بينهما دون أن يفهم الثمن،

لن يرث السرّ... بل اللعنة.»

ومنذ تلك الليلة، توارثت سلالة سالم القلادة والخنجر... دون أن

يعرف أحد لماذا، أو كيف، أو متى سيحين الموعد.

حتى الآن.

في القبو المظلم تحت العيادة، حيث تتدلى الأسلاك مثل أفاعٍ نائمة،

وتتنفس الجدران برطوبة الأسرار، جلست الدكتورة روان على الأرض

الباردة. لم تكن تطوي معطفها الأبيض فقط... بل كانت تُكفّنه.

كل زرّ، كل خيط، كان يحمل قصةً من صمتها المهني، ومسرحيةً

من الأكاذيب العلمية المغلفة بأقنعة الإنسانية.

بين الثنايا المحكمة للقماش النظيف، انزلقت وثيقة هشة، تسرّبت

إليها رائحة العفن والزمن. سرقتها قبل يومين من صندوقٍ لا يفتحه أحد

إلا الموت أو الجنون.

ورقة كتبها يد مرتعشة قبل خمسة عقود، كشفت أن الأرض التي يقف فوقها سالم، والتي يزعم أنها «ورثها عن الأجداد»، لم تكن إلا دماً مجففاً فوق ترابٍ مسروق.

كانت الأرض قد سُيِّدت فوق أنقاض مقبرةٍ لأهالي قبيلة دُفنت دون شواهد،

وكل حجر في البناء يهمس بجملته واحدة:

«هنا كانت الحياة... حتى جاء من لم يعرف كيف يُقدّسها.»

لَقَت الوشاح الأسود حول خصرها بإحكام، كما يفعل المقاتلون قبل اشتباكٍ لا يُعلن.

لكن الوشاح لم يكن للزينة، بل لإخفاء وشمٍ مزيف، رسمته بحبرٍ خاص في مدينة لا تُذكر إلا همساً، حيث تتقاطع خيوط السلطة والنجاة.

كان يحمل شعار عائلة المحمود—تلك العائلة التي قيل إنها وحدها تملك «حق الحديث باسم الأرض».

لكن روان لم تكن من المحمود.

كانت من اللامتممين.

أولئك الذين يُعلق عليهم التاريخ بابه، ثم يرمي المفتاح في بئرٍ بلا قاع.

لم تكن الكذبة عباءة تُخفي ضعفها، بل خريطة تُرشد داخل هذا العالم المقلوب.

«جنون... همست،

كأنها تحدث نفسها، أو تردّ على صدى من زمن آخر.
 أصابعها، النحيلة والعالمية، راحت ترسم دوائر فوق الوشم المزيف،
 ليس لتأكيد... بل لتذكر أن تحته جلدٌ حقيقي،
 وأن تحت الجلد...
 جذور تبحث عن اسم، عن لغة، عن عائلة لا تسكن شجرة الأنساب
 بل الذاكرة الجريحة.
 ثم توقفت، ورفعت رأسها نحو السقف الإسمنتي،
 كأنها تنتظر صوتاً يسقط من الأعلى،
 أو خيطاً من نور يُخبرها إن كانت تسير نحو النجاة...
 أم نحو مصيرٍ يشبه ما دفنته الورقة القديمة.
 فارس،
 رجلٌ لا يعرف أحد اسمه الكامل، ولا من أين جاء.
 لكن في الأحياء القديمة من المدينة، إذا نُطق اسمه، ساد صمتٌ
 قصير كأن الجميع ينتظرون أن تمر العاصفة.
 يملك صيدلية، لكنها ليست كأى صيدلية.
 تُغلق في الخامسة مساءً، وتُفتح مرة أخرى في منتصف الليل.
 الأدوية التي يبيعها لا تُصرف بوصفة، ولا تُصنّف في كتالوجات
 الصحة... بل في أرشيفات الخوف.
 في زاوية الصيدلية الخلفية، تحت بلاطة مكسورة لا يجروء أحد على
 الوقوف فوقها، يحتفظ فارس بسجلٍ جلديٍّ صغير.

لا يحمل عنواناً، لكن صفحاته تشبه سجلاً للعهد المحظور—ذاك
الذي جمع بين العلم والدم، ثم انفجر وتم نفيه من التاريخ.
في إحدى الصفحات، اسم «الدكتورة روان»،
كتب بجانبه:

«مزورة. ذكية. تبحث عن جذور... لكنها تزرعها في تربة ملوثة.»
وفي الصفحة التالية، اسم «سالم»،
«الوريث الأعمى. يحمل الخنجر ولا يعرف لمن صُنع.»
لكن الاسم الذي ظل يكتبه ثم يشطبه مراراً،
كان: هُديل.

ليلة أمس، زاره رجل غريب. لم يُظهر وجهه، لكن صوته كان يحمل
برد الصحراء.

ترك على الطاولة علبة حديدية صغيرة، وحين فتحها فارس، وجد
فيها شيئاً لم يتوقعه:

سِنٌ بشريّ ملفوف بخيط من الذهب.

وبطاقة صغيرة كُتب عليها:

«السلالة لم تنتهِ... فقط غيّرت وجهها.»

جلس فارس تلك الليلة في صيدليته، لا يقرأ، لا يكتب... فقط
يستمع إلى صوت أنفاسه، كأنها آخر ما تبقى من ضميره.
في تلك الليلة المظلمة،

بعد أن أغلقت صيدليته، تهاوت كل ظلال الماضي في عقل فارس، حيث عاد مجدداً إلى الورقة التي حملت اسم «هُدِيل»، و«الدكتورة روان»، و«سالم». تلك الأسماء لم تكن مجرد أشخاص بالنسبة له، بل كانوا تماًم، علامات تحذير، وتذكيرات قد تكون مدخلاً إلى قدره نفسه.

جلس أمام المصباح الهادئ، يراقب كيف يتراقص الضوء على تلك السنّ الملتوية، ملفوفة بخيط الذهب. كانت سنّاً بشرية، قد تكون لشخصٍ من الماضي البعيد، أو ربما لشخص كان على قيد الحياة اليوم. ثم مرّت صورة غريبة في ذهنه، صورة سالم وهو يقف في البئر، في لحظة كانت تجمع بين الجنون والهدوء. ربما كان يشهد شيئاً لا ينبغي له أن يشهده. ربما كان يحمل سرّاً أعمق مما يظن، أو ربما كانت الوثيقة التي وجدتها روان هي ما دفعه ليحمل ذلك العبء في قلبه.

أما الدكتورة روان، فكان عقل فارس لا يستطيع أن يفصل عن فكرتها. تلك المرأة، التي كانت تتنقل بين العلم والغموض كما لو أنها لا تنتمي لهذا العالم. كأنها كانت تبحث في مكان ما عن شيء مفقود، شيء يخصها، شيء يجب أن يُدفن ولا يُكشف أبداً. إنها تملك مفاتيح لا نعرف عنها شيئاً... لكن فارس كان يراها كما يرى نفسه:

«قيدٌ عميق يلتف حول الحقيقة في دائرة لا تنتهي.»

أغمض عينيه لحظة، ثم ألقى نظرة على السنّ الذهبية التي كانت تنبعث منها شعاع غير طبيعي في الظلام.

«ماذا تريد مني هذه؟» همس. «ما الرابط بيني وبينهم؟»

لكنه لم يكن الوحيد الذي يسأل هذا السؤال.

في نفس اللحظة، في قلب الصحراء،

وقف سالم أمام البئر، التي أكلت أسرار الأجيال. كانت الليلة أكثر

هدوءاً من المعتاد، وكأن المكان يستعد لحسم معركة قديمة.

تذكر تلك الكلمات التي قالها له فارس في إحدى اللقاءات القديمة:

«الحقيقة تقتلنا في كل مرة نبث عنها.»

لكن الحقيقة التي يبحث عنها سالم الآن كانت أكثر سوداوية مما

تخيله. كانت تتعلق بالدماء التي قُسمت، بالأرواح التي ضُحّي بها،

وبالزمن الذي لا يرحم. كان يقف في مكانٍ لا يمكن للزمان أن يعيده،

يراقب قاع البئر الذي يكاد يبتلع كل ما اقترب منه.

الدكتورة روان، كانت هي الأخرى تلتقط خيوطاً من الظلام...

حلمت مرتين بتلك البئر، وعرفت أن شيء ما في أعماقها ينتظرها.

لم تفهم كُنه هذا الانتظار، لكن قلبها كان يراهن على أن السلسلة التي

تربط بين الجميع ستُكشف في اللحظة التي يلتقي فيها فارس، سالم،

وروان في تلك البقعة التي لا يشير إليها أحد. الجسر الذي يربط العلم

بالدم. السر الذي كان غارقاً في العهد المفقود.

في تلك اللحظات، في نفس المسافة بين الزمن والمكان،

كان الجميع على أعتاب لحظة مفصلية.

لا شيء كان سيتغير، إلا إذا اجتمعوا،

لكن لا أحد يعلم بعد ما الذي سيحدث حين يتقاطعون جميعاً. في تلك اللحظة، حيث يلتقي الزمان والمكان في نقطة حادة، وقف سالم و الدكتورورة روان عند «صخرة اليمين»، الجرف الذي طالما اعتُبر نقطة فصل بين عالمين. كان المكان يعبق بذكريات قديمة، وغطت عليه سماء غائمة كأنها توازي أسراراً مدفونة عميقاً في الأرض. لا شيء سوى الصمت يحيط بهما، والصمت هنا كان أكثر قسوة من أي كلام يمكن أن يُقال.

سالم، الرجل الذي كان يحمل ثقل عائلته على كاهله، اقترب من الحفرة التي حفرها في الأرض كما لو كان يخطّ حدوداً بين عوالم غير مرئية. ألقى بالخنجر، الذي كان يحمل تاريخاً من الدم، إلى الحفرة، ثم تبعته القلادة، تلك القطعة التي كانت تشهد على رابطٍ مقدس كان يشبه الخيانة أكثر من أي شيء آخر.

حين سقطت الأشياء في الهاوية، كأنما كانت تصرخ في صمت، كان صوته، بارداً كصقيع، يخترق الضباب. الكلمات كانت غريبة، ثقيلة، وكأنها ثقيلة على قلبه هو الآخر.

«قولي كلمتك... وأخبركِ أين تختبئ الرصاصات.»

نظرت إليه الدكتورورة روان بعينين عميقتين، أعماقهما محجوبة بالكثير من الأسئلة والأجوبة التي لم تكتمل بعد. على الرغم من الظلام الذي كان يحيط بهما، كان شيء آخر يسكن هذا اللقاء. كانت الكلمات تتدفق بينهما كما لو كانت معركة أخيرة، المعركة التي ستكشف حقيقة

كل شيء. كانت هذه ليست المرة الأولى التي يتواجهان فيها، لكن هذه المرة كانت مختلفة. كانت النهاية تلوح في الأفق، وبقدر ما كانت الملامح بينهما صامتة، كانت النيران تكاد تشتعل بينهما.

لم تتردد، بل فعلت ما كان يجب عليها فعله. أخرجت من حقيبتها الوثيقة، تلك الورقة المهترئة التي كانت تحمل في طياتها السر الأكبر — السر الذي طالما تجنبته. وقفت أمامه، متماسكة كجدار صلب، بينما أشعلت النار في الوثيقة.

في لحظة واحدة، التهمت النيران الورق، وكأنها وحشٌ جائع يبتلع كل ما في طريقه. اللهب كان يرقص، ويزحف، وينقُص على الورقة كما لو كانت فريسةً مغرية. ثم حدث شيء غريب. من بين الدخان، نشأت صور غامضة، تتشكل في الهواء، وجوه تتحرك، ظلال تظهر ثم تختفي، وكلها تقاطعت في نقطة واحدة. وجه امرأة.

كانت تلك المرأة هي أم سالم المفقودة، تلك التي كانت قد اختفت قبل سنوات، تاركة وراءها أسئلة لا إجابة لها. كان وجهها ضبابيًا، شبحًا يتسّم في الظلام، وحين امتد دخان النار في السماء، تشكّل معالم وجهها كما لو كان ينظر إليهما مباشرة. وكأنها تُراقب ما يحدث بينهما.

وفي تلك اللحظة، ارتجفت الدكتورة روان، وركضت يدها على الورقة المحترقة التي أصبحت مجرد رماد. «الحقيقة نار...» قالتها بصوت منخفض، يرافقها شعور عميق بالانزعاج. «تُحرق الأكاذيب لتُضيء الجمر!» أضافت، وكأن كلماتها تخترق الهواء، تلامس قلب سالم.

سالم، الذي كان يشد قبضتيه حول الخنجر الذي ألقى في الحفرة، ابتسم ابتسامة غريبة، كأنما استعاد لحظة من الماضي، لحظة ظن أنها ضاعت إلى الأبد. كانت القلادة التي رماها في الأرض مجرد رمز، لكن الوثيقة، كانت هي المفتاح. تلك اللحظة، كانت بداية النهاية بالنسبة له، لكنه شعر بشيء آخر ينمو في قلبه—هل كانت الحقيقة التي رأتها الدكتورة رومان في وجه أم سالم هي نفسها الحقيقة التي كان يبحث عنها طوال حياته؟ هل كانت تلك اللحظة التي كُشفت فيها الرموز والأسرار، نقطة التحول؟

«الأسئلة لا تقتل إلا عندما نرفض الإجابة عليها...» همس، وهو يرفع رأسه إلى السماء.

في ذلك اللحظة، حيث تجمّع الدخان في الهواء كما لو كان يحمل بين طياته الأسرار التي طالما كانت مخفية، نشأ مشهد لم يتوقعه سالم ولا كانت الدكتورة رومان لتدرك أن هذا هو المصير الذي يخبئه لها القدر. في ذلك الضباب الرمادي الذي راح يغلف المكان، تلاشت كل الصور إلا صورة واحدة، صورة أمه.

أمه التي لطالما كانت مجرد ذكرى في قلبه، صورة ضبابية محاطة بالحزن والدموع، ظهرت فجأة، مقيدة في قبو مظلم ومنسي. كانت هناك، مربوطة إلى جدار من الخرسانة الباردة، عيناها اللتين تشبهان بثرين من الرعب، تحملان في عمقهما فزعاً لا يمكن تصوره، كأنما الزمن كله قد تساقط عليها في لحظة واحدة، وأسلمها لقدرها المظلم.

كانت عيناها تتنقلان بين الظلال، تبحثان عن شيء غير موجود، شيء غريب، شيء أشبه بكابوس عتيق.

كان قلبه يتسارع. وجد نفسه يسقط على ركبتيه في الأرض، وكأن الأرض نفسها قد انسحبت من تحت قدميه. لم يكن يعرف إن كان ذلك هو الواقع أم مجرد هذيان قاتل، لكن الصورة كانت حية أمامه. كانت أمه كما لو كانت مغروسة في فخ زمن بعيد، أسيرة في مكان لا يمكن أن يخرج منه إنسان.

«كيف؟» سقطت كلماته في الهواء، بلا صوت، ولكنها كانت تصرخ داخله. كل شيء في لحظة واحدة تحول إلى أسئلة لا جواب لها، وكان الألم في قلبه يتزايد، كل ثانية أشبه بكارثة تُهدد كيانه.

لكن في الوقت الذي كان يترنح فيه بين الفرع والتصديق، تقدمت الدكتوراة روان، خطواتها هادئة، لكنها حاملة معها قوة غير مرئية. كانت مُعتمة كظلال الليل، عيونها باردة كما لو كانت قد خلقت من معدن لا يقهر. في يدها اليمنى كان المسدس الخفي يلمع في ضوء القمر، كأنما هو السلاح الذي اختارته لحسم المعركة التي ستحدد مصيرهم جميعاً. في تلك اللحظة التي تفجّرت فيها الحقيقة في قلب سالم، كانت كلماتها تتناثر، كأنها أحجار ضخمة تسقط في بحر هائج:

«اللعبة لم تكن أبداً عن الحب... بل عن البقاء.»

كانت هذه الكلمات كالصاعقة التي ضربت قلبه مباشرة. اللعبة، التي ظن أنه خاضها بكل عواطفه، بكل أوجاعه، كانت في الواقع ليست

إلا مكيدة قديمة، محكمة البناء منذ زمن طويل. لم يكن الحب هو الدافع هنا، بل كان كل شيء يتعلق بـ البقاء على قيد الحياة. البقاء في وجه الحقيقة، في وجه الأكاذيب، في وجه ظلام العالم الذي يطاردهم. كانت الدكتورة روان تقترب منه أكثر، المسدس يلمع بين أصابعها، مشهدها أشبه بعرافة غامضة، قد أغرقت في سيل من الأسرار التي كانت تملك الإجابة عن كل شيء، إلا أن سالم لم يكن مستعداً للإجابة بعد. كان عقله مشوشاً، وقلبه ينبض بسرعة غير عادية، ولكن في أعماقه، كانت هنالك يقينٌ غريب، شيءٌ لا يستطيع الفرار منه.

كان يتنفس بصعوبة، وكان الهواء ثقيلاً، مثلما كان يشعر بثقل الجحيم الذي يلاحقه. كلما اقتربت منه الدكتورة روان، شعر بشيء غريب يتسلل إلى أعماقه. كانت عينيه تلتقيان بعينيها، فتطفو من بينهما ذكريات قديمة، أوجاعٌ لم تُشفى، وقرارات كان يجب أن تُتخذ منذ زمن.

«هل أنت مستعد لمواجهة الحقيقة، سالم؟» همست وهي تقترب منه أكثر، بينما ظل المسدس في يدها ثابتاً، يرقص مع الضوء الفضي القادم من القمر، كما لو كان هو الحكم الأخير.

لكن في اللحظة التي كان الظلام يتلعب فيها كل شيء حولهما، امتلك سالم شيئاً لا يعلمه كثيرون. من جيبه الداخلي، أخرج جرساً فضياً صغيراً، ورفعه إلى الهواء، ليهزه بعنف، وكأنما الزمن نفسه توقف للحظة، ثم انفجر صوته في المكان: رنينٌ حاد، كصوت صراخٍ مدفون تحت طبقات من التراب.

وما إن سمع الصوت حتى حدث ما لم يكن في الحساب: الأرض التي كانت تلامس قدمي الدكتور روان، تراجعت فجأة، وكأنما كانت تخفي سرًا مربعًا تحتها. تَشَقَّقَت الأرض بتلك الرائحة التي تسبق الكارثة، مُظهرة نفقًا مظلمًا يبتلع الأفق، جدرانها عارية مكشوفة، تزينها عظام بشرية متناثرة، وبقايا أجسادٍ لشخصيات قديمة كانت قد حاولت الهروب من مصيرها، ليقعوا في هذا الفخ القاتل، أشلاءً متناثرة تنادي بالموت والخراب.

دماء أمه، التي كان يظن أنها كانت مجرد ذكرى باهتة، تختلط بدموعه وتغطي وجهه، لتخلق خطوطًا عميقة على جبينه، وكأنها تروي قصة الظلم الذي نزل به على مر السنين. الدماء كانت تتناثر على وجهه، تُشعل نارًا في عينيه، نارًا لا يمكن إطفائها.

ثم، وفي لحظة لا يمكن أن يُحتمل فيها المزيد، ارتفعت صرخة سالم، ملأها الضغينة، والألم، والخوف:

«اخرجي... قبل أن يستفيق شيطاني!»

كانت كلماته عاصفة مجنونة تخرج من أعماقه، تهز الكيان، وتدفع الهواء نحوها، كأنما الريح نفسها كانت تستجيب لهذا النداء القاتل. كانت تلك الكلمات تحمل رعبًا من نوع آخر، رعبًا لم يكن ليدركه أحد، رعبًا متشابكًا مع خيوط القدر، وقد بدأ يتسلل من أعماقه إلى الخارج.

لكن الدكتور روان، كانت تعرف شيئًا آخر. كانت تتلمس خطواتها إلى الأمام، وقلبها ينبض بشدة كأنها على وشك اتخاذ قرار مصيري.

المسدس الذي كانت تحمله يبدو ثقيلاً، وهو يلوح في يدها مثل ظل قاتم، لكنها لم ترف جفنًا. لم يكد صوت رنين الجرس يزول حتى هز قلبها شعورًا بالتحول، كأنما شيء جديد يولد في هذه اللحظة.

ومع ذلك، لم تكن هي الوحيدة التي تغيرت، ففي تلك اللحظة التي تشكلت فيها صورة أمه المفقودة في ذهنه، أدرك سالم أنه كان معلقًا بين حيتين. بين صورة أمه التي لا يزال يحاول الوصول إليها، وبين المستقبل المظلم الذي يقترب منه. كان دمائه تتناثر على الأرض، وكأنما كانت تسطر جزءًا من معركته مع نفسه، ومع الظلمات التي بدأ يشعر بأنها تقترب منه أكثر من أي وقت مضى.

تلکأت روان، خطواتها كانت ثقيلة، وكأنما الأرض تحت قدميها قد فقدت كل قوتها، فكلما حاولت التقدم، ثقل الأسئلة كان يعيقها، يجرها إلى الوراء. نظرت إلى الأسفل، حيث العظام المبعثرة على الأرض، والتي بدت وكأنها لوحة فنية مرسومة بالدم والنسيان. عظام بشرية مهشمة، تروي قصة فشل عميق، قصة أولئك الذين حاولوا الفرار من هذا المكان، ولكنهم سقطوا في فخ لا مفر منه. الصورة التي تشكلتها أمام عينيها كانت محفورة في الذاكرة، كأنما الزمن نفسه قد جمدها، ليكشف سرًا عتيقًا من الماضي، حيث كانت الخيبة هي المصير.

«لماذا تُقذني؟»

صوتها كان ممتلئًا بالحيرة، بينما الرياح العاتية كانت تقتلع كلماتها في الهواء، فتدوب في العواء القادم من بعيد. لم يكن هناك جواب، فقط

صمت ثقيل، كان يملأ الأفق. كانت تسأل السؤال الذي كان يلتف حول قلبها كالحبل المشدود: «لماذا؟» لماذا يمد يده إليها في هذه اللحظة التي كانت فيها على حافة الحافة، حيث تلتقي الحقائق المرة مع الأوهام الميتة؟

سالم، الذي وقف ثابتاً كالصخر، رمقها بنظرة لا تقبل الجواب. همس، وكأن كلمات خفية قد خرجت من بين شفيتين تُشبعهما العتمة: «لأجعلكِ شاهدة...»

كان صوته خافتاً، ولكنه كان يحمل ثقلاً يملأ الفضاء. وبينما كانت الأرض تحت قدميه تن، كانت السماء أمامه تمطر ظلالاً غامضة، كان يشعر أن هناك شيئاً قادمًا، شيئاً غير مرئي، ولكن الحتمي. ومع تردد كلماتها في الهواء، ظهر في الأفق ذلك الذي كان يتظرهما، زئير أسد، عميق وعنيف، قادمًا من عمق الصحراء، كأنه شبح الزمن، أو روح الأجداد التي لا تنام. كان الزئير يخترق الصمت، ليعلن عن نفسه بكل قسوة. كان الصوت يقترب، يرتج الأرض، ثم يتلاشى في الهواء، وكأنما كان يحمل وعدًا بشيء أعظم.

«عندما تعودين... ستروني وأنا أحرق كل شيء حتى الجذور...»

قالها، لكن كلماته لم تكن مجرد تهديد، بل كانت نبؤة. نبؤة من عالم آخر، عالم يتجاوز الحاضر. كان سالم يرى ما لا تراه الدكتورورة روان، كان يستشعر أن اللحظة التي يعيشانها الآن ليست سوى البداية، بداية شيء لا يمكن التراجع عنه.

وفي تلك اللحظة، أصبح الزمان والمكان كأنهما يتداخلان مع بعضهما البعض، مغلقين عليهما في دائرة من الغموض، وكأن العالم كله يجلس على حافة الهاوية، مستعدًا للانفجار في أي لحظة.

مع بزوغ الفجر، حيث كان الشمس تشرق ببطء على أطراف الصحراء، وتنساب أشعة الصباح الباهتة عبر السماء الوردية، وصل القرويون إلى حافة البئر. كان هذا اليوم مختلفًا، كأنما أحداث الليل الماضي قد زلزلت كل شيء في الأرض. عندما نظروا إلى داخل البئر، رأوا منظرًا لن يتجرأ أحد على تخيله. جثة ذئب عملاق، جسده المهشم كان يطفو على سطح الماء المظلم. عيونه مفتوحة، ولكن نظراتها كانت فارغة كالأفق. فمه كان مملوءًا بورقٍ محترق، أوراقه ممزقة ولكن بعضها لا يزال يحمل بقايا حروف شبه محروقة، كأنها رسالة غير مكتملة. الذئب، الذي كان يرمز للشر، تحول إلى ضحية، وعيناه تحملان نظرة تعكس الفزع والغموض الذي يحيط بما حدث.

لكن المفاجأة الحقيقية لم تكن في البئر، كانت في العيادة. حيث كان الظلام يعيش في أركان المكان، وكان الفجر يذوب بهدوء في الأفق. دخل القرويون إليها، ليجدوا أن سرير الدكتورة روان كان نظيفًا تمامًا، كما لو أن الزمن نفسه قد توقف هنا. لم تكن هناك أي آثار، ولا حتى أثر لغطاء أو وسادة مُبعثرة، كل شيء كان مرتبًا إلى حد الكمال. العيادة كانت خامدة، ساكنة، وكأنها خالية من الحياة.

لكن على الوسادة، كان هناك شيء لا يمكن تجاهله. كان خاتم زواجٍ صديءٍ، قد عفى عليه الزمن، ملقى على المخدة البيضاء، وكأنما

قد نُزِعَ عن يدٍ كانت تحمل قصةً أبدية. الخاتم كان مغطى بطبقة من الصدا، ورغم حالته المتهالكة، كان منقوشاً عليه اسم «ليلي»، اسم غير مألوف لكثيرين. «ليلي»، الاسم الحقيقي لأم سالم، المرأة التي كانت قد اختفت منذ سنوات، وتركت خلفها أسراراً مظلمة، كالظل الذي يطارد حكايات الماضي.

كان هذا الخاتم، العنوان المفتوح لسرٍّ أعمق، كان علامةً على أن الماضي، بكل رموزه وأسراره، قد عاد ليطارد الحاضر. كان الزمان والمكان ينقلبان معاً، وكأنما بدأت حلقة جديدة من اللعبة، والتي لا يستطيع أحد التنبؤ بنهايتها.

السؤال الذي بقي معلقاً في الهواء، يتلأأ مثل قطرة ندى على حافة شفرة سكين، كان يحمل في طياته ألماً غامضاً، شعوراً بالضيق في متاهة من الأسئلة غير المجابة. كلما فكّر فيه، كان سالم يشعر بأن الزمن نفسه قد بدأ يتحطم، وأنه قد دخل في دوامة من الشكوك لا يمكن له أن ينجو منها.

هل كانت الدكتورة روان مجرد دمية في مسرح انتقامٍ قديم؟ هل كانت جزءاً من لعبة معقدة خطط لها من لا يريدون لها النجاة؟ هل كانت تحركها خيوط خفية تتحكم بها قوة غامضة لم تكن هي من اختارتها؟ أم أن «ابن الرمال»، الرجل الذي كان مثل شبح متجسد في ذاكرته، سيعيد تشكيل نفسه من رماد الماضي ليصبح شيئاً آخر تماماً؟ شيء مختلف، شيء أخطر.

الصحراء، التي كانت شديدة الصمت، قاسية كالموت نفسه، كانت تبسم في سرها. تبسم ببرودة، كما لو أنها تعرف أكثر من الجميع، كما لو أن كل شيء كان متوقعًا. لم يكن أحد يفهم ما الذي تراه الصحراء، ما الذي خفته الرمال في أعماقها. لكن في صمتها، كان هناك نوع من الطمأنينة الباردة. كانت وكأنها تقول:

«النهايات... مجرد بدايات تُلبس أقنعة.»

كانت الكلمات تتردد في عقل سالم، تُشعل في قلبه حرائق من التساؤلات. هل كان كل ما مر به حتى الآن مجرد بداية لمخطط أكبر؟ هل كانت الأحداث الماضية كلها جزءًا من خطةٍ محبوكة بعناية، تتكشف شذراتها مع مرور الوقت؟ كل شيء بدا وكأنه تدفق نهرٍ غامض، لا نهاية له، وكلما غرق في مياهه، زادت الغموضات واشتدت المفارقات.

لقد تعلم من الصحراء أنها لا تنسى أبدًا. كانت قديمة، لكنها كانت حية كما لو أن روحها تراقب الجميع، تراقب في صمت. كل خطوة في الرمال كانت تحمل فيها ذكرى الماضي، وكل خطوة تالية كانت تُدنيه من المستقبل المجهول. الزمن لا يمحو أبدًا، بل يُخبئ كل شيء تحت الرماد، حتى اللحظات التي كادت تظن أنها ضاعت إلى الأبد.

وكان السؤال الأكثر حيرة في قلبه الآن:

هل كان سالم مجرد جزء من مخطط أكبر؟ هل كان أداة في يد قوى لا يُمكنه فهمها؟ أم أن أفعاله، مثل تلك التي تتناثر في الهواء مثل الرمال، ستكشف عن حقيقته الحقيقية؟

هذه الرواية

في رحلة ظنَّتها هروبًا من جراح الماضي، تجد الدكتورة روان نفسها أمام أبوابٍ لم تكن تعلم أنها ما زالت مفتوحة في أعماق روحها. تنتقل إلى وادٍ ناءٍ تحيط به الجبال والأسرار، لتكتشف أن بعض الأماكن لا تستقبل الغرباء فحسب، بل تستدعيهم، وأن الذاكرة قادرة على أن تتجسد في هيئة أصوات وظلال وأسئلة مؤجلة منذ سنوات طويلة.

تنسج الرواية عالمًا تتداخل فيه الحقيقة مع الأسطورة، ويتجاوز فيه الحب والفقد والخوف والرجاء. وبين الأزقة القديمة والبيوت الصامئة والوجوه التي تخفي أكثر مما تقول، تمضي البطلة في رحلة شاقة لاكتشاف ما خفي من تاريخها الشخصي، وما دفنته الحياة في أعماق المكان. إنها رحلة نحو الحقيقة، ولكن الحقيقة هنا ليست طريقًا مستقيمًا، بل متاهة من الرموز والذكريات والأقدار المتشابكة.

«وحدها روان تعرف النبض الحقيقي» رواية تستنطق هشاشة الإنسان وقوته في آن واحد، وتطرح سؤالاً وجوديًا عميقًا: هل نهرب من الماضي حقًا، أم أننا نحمله معنا أينما ذهبنا؟ وبين نبض القلب ونداء الذاكرة، تفتح الرواية أبوابها للقارئ ليدخل عالمًا مفعمًا بالغموض والشاعرية والتأمل، حيث لا تكون النجاة في الفرار، بل في مواجهة ما نخشى النظر إليه.

سمير اليوسف

Designed By
S. Alyousef



دار الخليج للنشر والتوزيع

الأردن: عمان، العبدني تلفاكس: 35 98 77 00962

daralkhalij@gmail.com

daralkhalij1998

daralkhalij

